من مختارات كارل ماركس وانجلز

أصل العائلة
والملكية الخاصة والدولة

فردريك انجلز

ترجمة

احمد عز العرب

محتويات الكتاب

إبراهيم حمزة إبراهيم

إهـــــداء

إلى العروبة المكافحة

إلى أصدقائها وإلى أعدائها

أقدم هذا الكتاب

فإن العروبة لا تضمر عداء لأحد

أحمد عز العرب

مقدمة المترجم

ولد فردريك إنجلز مؤلف هذا الكتاب فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٢٠ بمدينة بارمن بألمانيا وكان أبوه صاحب مصانع للنسيج .

لقد كان إنجلز إنسانا آمن بفكرة ، هى حق الطبقة العاملة فى الحكم . ولست أبحث فى هذا المجال صواب هذه الفكرة أو خطأها ، وكل الذى أريد قوله أن إنجلز آمن بمبدأ ففعل المستحيل من أجله . بدأ حياته السياسية بأن قطع صلته تماما بماضيه العائلى وانحاز بكيانه إلى جانب تفكيره وانضم إلى أستاذه وزميل عمره كارل ماركس .

وفى سنة ١٨٤١ اشترك انجلز وهو فى الحادية والعشرين من عمره فى دائرة « الهيجليين اليساريين » وهم الطلاب المؤمنون بفلسفة هيجل . وفى مارس سنة ١٨٤٢ أصدر كتابه « ستشلنج والوحى » انتقد فيه فقه ستشلنج الذى حاول فيه أن يوفق بين العلم والدين بطريقة خاطئة .

وحوالى نهاية سنة ١٨٤٢ كان إنجلز قد تحول تماما إلى الاشتراكية . وفى سنة ١٨٤٤ إشترك مع ماركس فى وضع كتاب « العائلة المقدسة » وانقلب ضد الهيجليين اليساريين .

وفى سنة ١٨٤٥ نشر فى ألمانيا كتابه الشهير « حالة الطبقة العاملة فى انجلترا سنة ١٨٤٤» وقد استقى معلوماته أثناء عمله بمصنع والده بمانشستر فى إنجلترا .

وفى ربيع ١٨٤٥ ذهب انجلز إلى بروكسل حيث كان ماركس يقيم

واشتركا فى وضع كتاب « الفكر الألمانى » الذى نقدا فيه قصر نظر فلسفة فيورباخ وآراء الهيجليين اليساريين وجماعة «الاشتراكية الحقيقية» التى كانت تنكر الصراع الطبقى وتبشر بالتوفيق العالمى . وكما فعل ماركس شفع إنجلز دراساته العلمية بنشاط عملى بين صفوف العمال . وفى سنة ١٨٦٤ أسس انجلز مع ماركس « الدولية الأولى » وهى الجمعية العالمية للاحزاب العمالية التى انعقدت فى لندن ذلك العام . وبعد أن انحلت الدولية الأولى استمر انجلز مع ماركس فى قيادة الحركة الاشتراكية وقام فى ذلك الوقت بكتابة سلسلة من المقالات معارضاً إيوجين دوهرنج وكانت هذه المقالات نواة كتابه الشهير « ثورة إيوجين دوهرنج فى العلم » كما قام فى هذه الفترة بدراسة عميقة للعلوم الطبيعية والرياضيات نتج عنها أن وضع كتابه الشهير الذى لم يتمه « ديالكتيك الطبيعة » .

وبعد وفاة ماركس إستمر انجلز يعمل لنشر الجزأين الثانى والثالث من كتاب « رأس المال » اللذين لم يتمهما ماركس وقد نشر الجزء الثانى سنة ١٨٨٥ والجزء الثالث سنة ١٨٩٤ . وفى هذه الفترة نفسها وضع انجلز كتاب « أصل العائلة » والملكية الخاصة والدولة » . وفى سنة ١٨٨٨ أصدر كتابه « لودفيج » فيور باخ وظهور الفلسفة الكلاسيكية الألمانية» .

ومات انجلز فى ٥ أغسطس سنة ١٨٩٥ .

ولست أود فى هذه المقدمة إعطاء فكرة عن محتويات الكتاب فالمقدمة التى وضعها المؤلف تفى تماما بهذا الغرض ، وكل الذى أريد قوله هو أن هذا الكتاب وعشرات غيره هى الحصيلة التى قدمها ماركس وإنجلز إلى الإنسانية كانت تطبيقا لفلسفة جديدة فى تفسير الكون ، فلسفة تتناول الوقائع التاريخية بالدراسة طبقا لما يقوم على صحتها من

الأدلة العلمية وحدها بصرف النظر عن أى اعتبار آخر . والإ العلمى لهذه الفلسفة هو «المادية الديالكتيكية أو الجدلية» .

وأجد نفسى مدينا بالشكر الجزيل للزميل العزيز «سيدموسى» لتفضله بمراجعة الأجزاء الخاصة بالأدب الكلاسيكى وتصحيحها .

وختاما فلم أجد كائنا أهدى له هذا الكتاب أفضل من العروبة المكافحة التى توجت فى الشهور الأخيرة كفاح السنين الطوال بنصر حاسم طردت به الاستعمار من المحور العربى المستقل وما زالت حتى يومنا هذا تقدم فى سخاء أرواح أبنائها فى كل أرجاء الوطن العربى ، فى الجزائر وفى بورسعيد وفى معتقلات نورى السعيد وفى اليمن . ومازالت تبذل كل يوم جهدا رائعا لتقيم به صرح المستقبل المشرق وتساهم مع شعوب العالم فى بناء إنسانية رحيمة لايشوبها غبار الحروب الذرية ، وتشيد القواعد الثابتة .

من أجل التحرر والديموقراطية

من أجل حياة إنسانية أفضل

من أجل سلام دائم .

١٦/ ٤/ ١٩٥٧ أحمد عز العرب

مقدمة المؤلف

تتضمن الفصول القادمة تحقيقا لغاية معينة بطريقة ما. ولم يكن فى إستطاعة أى شخص إلا ماركس أن يقدم النتائج التى وصل إليها مورجان فى أبحاثه العلمية، وقد قام ماركس بهذا التقديم عن طريق النتائج التى توصل إلى تحقيقها [وإلى حد ما أستطيع أن أقول النتائج التى توصلنا إلى تحقيقها] خلال أبحاثه المادية فى التاريخ. وقد أعاد مورجان إكتشاف النظرية المادية للتاريخ بطريقته الخاصة فى أمريكا، وهى النظرية التى إكتشفها ماركس قبل ذلك بأربعين عاما. وقد عقد مورجان مقارنة بين مرحلتى البربرية والمدنية توصل فيها، عن طريق النظرية المادية، إلى نفس النتائج التى توصل إليها ماركس فى النقط الرئيسية. وكما كان كتاب «رأس المال» لمدة سنين طوال موضع إهمال وتجاهل من الإقتصاديين الرسميين بألمانيا، وكذلك كان كتاب مورجان «المجتمع القديم»[1] موضع نفس المعاملة من المتشدقين بعلوم ما قبل التاريخ فى إنجلترا.

ولا يستطيع كتابى هذا إلا أن يقدم مساعدة بسيطة إلى ذلك الكتاب الذى لم يقدر لصديقى الراحل ماركس أن يتمه، وعلى أى حال فأمامى تعليقات كثيرة كتبها ماركس تعليقا على كتاب مورجان وسأحاول تقديم

---

(١) المجتمع القديم أو أبحاث فى خطوط التقديم الانسانى. تأليف لويس هـ مورجان، صدر فى لندن ١٨٧٧، وقد طبع هـذا الكتاب فى أمريكا وقدمات المؤلف منذ بضع سنين (أى فى أواخر القرن التاسع عشر) ويتناول الكتاب تطور الانسان خلال مرحلتى الوحشية والبربرية حتى دخول المدنية.
(المؤلف)

هذه التعليقات فى كتابى كلما كان ذلك ممكنا .

وطبقا للنظرية المادية فى التاريخ فالتطور هو إنتاج وإعادة إنتاج الحياه الحالية ، ولكن هذا نفسه ذو طبيعة مزدوجة ، إذ نجد من ناحية إنتاج وسائل المعيشة كالطعام والملبس والمأوى والأدوات اللازمة لذلك ، ونجد من ناحية أخرى إنتاج البشر أنفسهم (أى التناسل) ويعنى ذلك جمع الأنواع [1] .

وإن النظم الإجتماعية التى يعيش الناس فى ظلها فى فترة تاريخية معينة فى بلد معين يحكمها كلا النوعين السابقين من الإنتاج ، إذ تحكم وسائل إنتاج المعيشة المجتمع عن طريق مرحلة تطور العمل وتحكمه وسائل إنتاج الأفراد عن طريق النظام العائلى . وبقدر ما يكون العمل غير متطور وبقدر ما يكون نطاق إنتاجه محدودا ، أى بقدر ما تكون ثروة المجتمع محدودة بقدر ما يزداد ظهور النظام الاجتماعى محكوما بالروابط الجنسية . وخلال هذا البناء الإجتماعى الذى تحكمه الروابط الجنسية تنمو القوة الإنتاجية للعمل أكثر فأكثر وتنمو معها الملكية الخاصة والتبادل والإختلاف فى الثروة وإحتمال استخدام قوة عمل الآخرين ولذلك تظهر أسس الصراع الطبقى مع تطور المجتمع وتظهر عناصر إجتماعية جديدة تكافح على مدى الأجيال لتجعل الصرح القديم للمجتمع متمشيا

---

(١) يتهم إنجلز هنا بعدم الدقة لوضعه جمع الأنواع بجانب إنتاج وسائل المعيشة كأسباب تحدد تطور المجتمع والنظم الاجتماعية . وفى النص الصحيح لهذا الكتاب يؤكد إنجلز نفسه بتحليل مادى خالص أن طريقة الانتاج المادى هى العامل الرئيسى الذى يحكم تطور المجتمع والنظم الاجتماعية .

مع الظروف الجديده إلى أن يقود التناقض بين الإثنين فى النهاية إلى ثورة كاملة .

ويتحطم المجتمع القديم المبنى على الروابط الجنسية نتيجة الصدام بين الطبقات الإجتماعية الحديثة النمو ويظهر فى مكانه مجتمع جديد مكون على شكل دولة وتصبح وحداته الدنيا بمجموعات إقليمية بعد أن كانت مجموعات جنسية . ويتحكم نظام الملكية فى المجتمع الجديد فى النظام العائلى ويصبح الصراع الطبقى مادة التاريخ المكتوب ، وهذا هو ما حدث للمجتمع ووصلنا تاريخيا إلى الآن .

ويرجع الفضل الأكبر لمورجان إلى إكتشافه وإعادة تنظيمه للأسس الرئيسية لما قبل التاريخ فى تاريخنا المكتوب . كما أنه وجد فى المجموعات الجنسيه القائمة لدى هنود شمال أمريكا مفتاح أهم وأغمض نقط التاريخ اليونانى والرومانى والألمانى القديم التى لم تكن معروفة قبلا. ولم يكن كتابه عمل يوم واحد فقد عاش مع محتوياته حوالى أربعين عاما حتى فهمها واستوعبها وهذا هو السبب فى أن كتابه يعتبر أحد الكتب القليلة التى تعتبر صانعه العصور فى وقتنا هذا.

وفى العرض التالى للكتاب سيستطيع القارىء أن يميز بين ما أخذته من مورجان وما أضفته من عندى ، ففى الأجزاء التاريخية الخاصة بالإغريق والرومان لم أقتصر على ماكتبه مورجان وأضفت ما عندى من معلومات . أما الأجزاء الخاصة بالألمان والسلتس فهى من وضعى كلية ، وإذا ما ذكرنا الألمان فلا نجد لدينا عنهم من المعلومات إلا تلك

المعلومات الزائفة الجديرة بالشفقة التى ساقها السيد فريمان — مع استثناء ما كتبه تاسيتس — . وقد قمت بتصحيح النتائج التى اكتفى بها مورجان والتى لم أكتفى بهـا من الناحية الإقتصادية . وأخيرا فأنا أعتبر نفسى مسئولا طبعا عن كل النتائج التى سقتهـا ولم يكن مورجان هو مرجعى فيها .

زيورخ سنة ١٨٨٤ إنجلز

الفصل الأول

مراحل التطور فيما قبل التاريخ

كان مورجان هو أول شخص ذو معرفة صحيحة حاول أن يقدم تقسيما دقيقاً لمراحل حياة الإنسان فيما قبل التاريخ ، ورغم أن هناك موادا هامة كان يجب أن تضاف إلى تقسيم مورجان إلا أن هذا التقسيم ما زال صحيحا .

أما عن عصور التطور الرئيسية الثلاث وهى الوحشية والبربرية والمدنية فلم يهتم مورجان إلا بالعصرين الأولين وبالانتقال إلى العصر الثالث . ويقسم مورجان كل من هذين العصرين إلى ثلاث مراحل ، دنيا ووسطى وعليا طبقا لمدى تقدم الإنسان فى إنتاج وسائل المعيشة لأنه كما يقول مورجان « على مهارة الإنسان فى هذا الاتجاه تتوقف كل مسألة وجود الإنسان على الأرض ، فإن الجنس البشرى هو مجرد كائنات يمكن القول بأنها قد اكتسبت سيطرة مطلقة على إنتاج الغذاء وقد تحددت العصور الكبرى للتقدم الإنسانى حسب اتساع مصادر وسائل العيش » ويستمر تطور النظام العائلى بصفة مستمرة بجانب تطور وسائل الإنتاج ، ولكن تطور العائلة لا يقدم لنا أسسا واضحة فى تحديد مراحل التطور التاريخى .

عصر الوحشية

١ — المرحلة الدنيا : طفولة الجنس البشرى : فى هذه المرحلة كان الإنسان مازال يعيش فى الكهوف من الغابات الاستوائية وغيرها ويسكن أحيانا

فى الأشجار ، وهذا يشرح لنا لماذا كان الإنسان فى هذه المرحلة ضحية مستمرة للوحوش المفترسة . وكان الإنسان يأكل الفواكه ومنتجات الطبيعة . وكان تقسيم الحديث إلى كلمات هو النجاح الرئيسى للإنسان فى هذه الفترة . ولم توجد فى هذه الفترة البدائية أى من الشعوب التى عرفها التاريخ ، ومع أن هذه المرحلة يحتمل أنها استمرت آلاف السنين فليس لدينا حقائق مباشرة عن وجودها ، ولكن مادمنا نعترف بتسلسل الإنسان من مملكة الحيوان فإن الاعتراف بوجود هذه المرحلة الانتقالية أمر لابد منه .

٢ — المرحلة الوسطى : وتبدأ باستخدام الأسماك والحيوانات المائية الأخرى فى الطعام وإستخدام النار فى طهى الطعام ، وقد قلل هذا الطعام الجديد من إعتماد الإنسان على المناخ والظروف المحلية . وبتتبع الإنسان للأنهار وسواحل البحار بحثا عن الاسماك أصبح فى إستطاعته حتى فى هذه المرحلة الوحشية أن ينتشر فى الجزء الأكبر من سطح الأرض .

وتعتبر الأحجار غير المصقوله التى إستخدمها الإنسان فى العصر الحجرى القـــديم المسمى باليولتيك والتى تنتمى إلى هذه الفترة والموجودة بجميع القـارات ، تعتبر هذه الأحجار دليلا على إنتشار الإنسان فى بقاع الأرض . وقد توصل الإنسان فى مواطنه الجديدة إلى فن إشعال النار عن طريق الإحتكاك وتناول أطعمه جديدة مثل مسحوقات الجذور النباتية المطهية . أما الشعوب التى تعيش على الصيد وحده فلم توجد إطلاقا فى إلى هذه الفترة لأن ثمار الصيد كانت تعتمد على المصادفه الغير مضمونة مما يجعل وجود شعب يعتمد على الصيد وحده مستحيلا . ونظرا لعدم ضمان موارد الطعام فمن المحتمل أن أكل لحوم

البشر قد عرف فى هذه الفترة وما زال الأستراليون الأصليون يعيشون حتى يومنا هذا فى المرحلة الوسطى من الوحشية .

٣ – المرحلة العليا : وتبدأ بإختراع القوس والسهم حيث أصبحت ثمار الصيد عنصرا أساسيا فى الطعام وأصبح الصيد مهنه منتشره . ولقد كان إختراع القوس والسهم نتيجة تجارب كثيرة ساعدت على شحذ القوى العقلية مما نتج عنه إختراعات أخرى . وكانت الشعوب فى هذه الفتره رغم تعودها على إستعمال القوس والسهم لم تصل بعد إلى فن صناعة الآنية [الذى يعتبره مورجان نقطة الإنتقال إلى عصر البربرية] وحتى فى هذه المرحلة المبكرة نجد بداية إستقرار الإنسان فى قرى ودرجة معينة من المهارة فى إنتاج الأشياء المساعدة فى الحيــاة مثل الأوعية الخشبية والمصنوعات اليدوية والآلات الحجرية المصقولة ، كما إستخدمت النار والمعاول الحجرية فى صنع القوارب البدائية المحفورة فى الخشب كما إستخدم الخشب فى بناء المساكن ويمكن مشاهدة كل آثار هذا التقدم بين هنود شمال غرب أمريكا مثلا ، فهم لا يعرفون شيئا عن صناعة الآنية [نقطة الإنتقال للبربرية كما سبق] رغم قدم إستخدامهم للقوس والسهم . لقد كان القوس والسهم بالنسبة لعصر الوحشية مثل السيف الحديدى بالنسبة لعصر البربرية والأسلحة النارية بالنسبة لعصر المدنيـة أى أنه كان السلاح الفعال .

عصر البربرية

١ – المرحلة الدنيا : وتبدأ منذ بدء صناعة الآنية التى نجد أصل صناعتها فى معظم الحالات أو ربما كلها بدأ بصناعة السلال والأوعية

الخشبية بجانب الأوعية الحجرية فقد إكتشف الإنسان أن المواد غير الحجرية يمكن أن تؤدى نفس الغرض .

وإلى هذه النقطة من التطور البشرى يمكن القول أن مدى التطور واحد فى كل الشعوب فى هذه المرحلة بصرف النظر عن الظروف المحلية . وبتقدم البربرية نصل إلى مرحلة يبدأ فيها الفرق بين الموارد الطبيعية للقارتين الكبيرتين [العالم القديم من جهة والأمريكتين من جهة أخرى] يبدأ هذا الفرق فى الوضوح . وتعتبر المميزات الأساسية للبربرية هى استئناس وتربية الحيوانات وزراعة النباتات .

وقد كانت القارة الشرقية المسماه الآن بالعالم القديم تحتوى تقريبا على كل الحيوانات الممكن إستئناسها وكل النباتات الممكن زراعتها مع إستثناء واحد . فى حين أن القاره الغربية [الأمريكتين] لم يكن بها إلا حيوان واحد يمكن إستئناسه هو اللاما وفى جزء فقط من الجنوب كما لم يكن بها إلا نباتا واحدا صالحا للزراعة وإن كان أفضل النباتات وهو القمح الهندى وكان أثر هذا الإختلاف الطبيعى فى الظروف أن سار سكان كل قارة فى طريق مختلف واختلفت الحدود المميزة للمراحل المختلفة فى كل قارة .

٢ — المرحلة المتوسطه : وتبدأ فى الشرق باستئناس الحيوانات وفى الغرب بزراعة النباتات الصالحة للغذاء عن طريق وسائل الرى وباستخدام الطوب النىء والأحجار فى البناء .

وسنبدأ بالغرب لأن هذه المرحلة ظلت فى الغرب على ما هى عليه

ولم تتطور إطلاقا حتى الإكتشاف الأوربى لأمريكا . فعند الإكتشاف كان الهنود الحمر فى المرحلة الدنيا من البربرية فى كل منطقة شرق نهر المسيسبى وكانوا مستقرين إلى حد معين فى زراعة القمح الهندى وأحيانا النباتات المتسلقة والشمام وغيرها مما كان يكون الجزء الأكبر من طعامهم . وكانوا يعيشون فى مساكن خشبية فى قرى محاطة بأسوار . وكانت قبائل الشمال الغربى وخاصة سكان منطقة نهر كولومبيا لا تزال فى المرحلة العليا من الوحشية ولم تكن تعرف أى شىء عن صناعة الآنية أو أى نوع من الزراعة . وكان هنود المكسيك المسمين بويبلو وهنود وسط أمريكا وسكان بيرو فى المرحلة الوسطى للبربريه عند الإكتشاف الأوربى لأمريكا وكانوا يعيشون فى مساكن مبنية بالطوب النىء والحجارة وكانوا يعتمدون على الرى الصناعى ويزرعون القمح الهندى وغيره من النباتات الصالحة للطعام والتى تختلف باختلاف المناخ والظروف المحلية وكانت هذه النباتات هى المصدر الأساسى لغذائهم ، كما إستأنسوا بعض الحيوانات القليلة ، فقد إستأنس المكسيكيون الديوك الرومية وغيرها من الطيور كما استأنس سكان بيرو اللاما .

وكانوا علاوة على ذلك يستخدمون المعادن عدا الحديد مما كان سبباً فى عدم إستغنائهم عن الأسلحة والآلات الحجرية . وقد وضع الإستعمار الإسبانى حداً لهذا التطور المستقل فى هذه المناطق .

وفى نصف الكرة الشرقى بدأت المرحلة الوسطى من البربرية باستئناس الحيوانات التى يؤخذ منها اللبن واللحوم فى حين ظلت الزراعة غير معروفة إلى وقت متأخر جداً من هذه المرحلة . والظاهر أن تربية وإستئناس حيوانات الركوب كان سببا فى الاختلاف بين الآريين والساميين فى الجماعات الحالية من البربريين .

ولا تزال أسماء حيوانات الركوب متشابهه عند الأوربيين والآريين الأسيويين على عكس أسماء النباتات الزراعية .

وقد كان تكوين القطعان الحيوانية فى الأماكن المناسبة لذلك سببا فى حياة الرعى عند الجنس السامى فى السهول المليئة بالحشائش عند نهر الفرات وغيره ؛ كما كانت سببا فى حياة الرعى عند الآريين فى سهول الهند وعند الإكسس والجكارتس فى سهول نهرى الطونه والدنيبر . ومن المحتمل أن أول إستئناس للحيوانات تم فى هذه المراعى . وقد كانت الأجيال الأخيره من الشعوب التى تعيش على الرعى والتى نشأت فى مناطق غير المناطق المعتبرة المهد الأول للإنسان ، يظهر أن هذه الأجيال كانت غير مستقرة فى مرحلتها الوحشية وحتى فى المرحلة الدنيا من البربرية . وعلى العكس من ذلك فحينما إعتاد المتبربرين فى المرحلة الوسطى على حياة الرعى لم يحاولوا الهجرة من السهول المليئة بالحشائش والمياه والعودة إلى الغابات التى كانت مهد أسلافهم . وحينما إنتشر الآريون والساميون فى الشمال والغرب من آسيا وأوربا أصبح فى إستطاعتهم إطعام حيواناتهم بالنباتات المزرعة فى المناطق الجديدة التى إنتشروا فيها والتى كانت أقل صلاحية من المراعى وخاصة لقضاء فصل الشتاء . ومن الأمور المحتملة جدا أن زراعة النباتات كان الغرض منها أولا توفير العلف للحيوانات ثم أصبحت مصدرا لغذاء الإنسان .

وقد تكون الفائدة الغذائية العظيمة للحم واللبن وخاصة فى تنمية الأطفال سبب تفوق الآريين والساميين على غيرهما من الأجناس ، فنجد

مثلا أن هنود المرحلة الدنيا من البربرية فى أمريكا والذين كانوا يأكلون اللحوم والأطعمة الطازجة كان حجم المخ البشرى عندهم أكبر من حجمه عند هنود المكسيك البويبلو . وقد اختفى أكل اللحوم البشرية تدريجيا فى هذه المرحلة ولم يبق إلا بمثابة طقوس دينية لدى السحرة .

٣ ـ المرحلة العليا : وتبدأ بإستخدام الحديد ، وتدخل هذه المرحلة فى عصر المدنية عن طريق إختراع الحروف الكتابية وإستخدامها فى تدوين الآداب. وفى هذه المرحلة التى إمتدت كما سبق الإشارة فى النصف الشرقى فقط من العالم حدث تطور فى الإنتاج يفوق التطور الذى حدث فى كل العصور السابقة مجتمعة ، وإلى هذه المرحلة ينتمى إغريق العصر البطولى[1] والقبائل الإيطالية السابقة على تأسيس روما بفترة قصيرة والألمان أيام تاسيتس . وفى هذه الفترة ظهر للمرة الأولى المحراث الحديدى الذى تجره الحيوانات مما كان سببا فى تمهيد الأرض للزراعة عن نطاق واسع وحصول الإنسان على موارد غير محدودة للغذاء كما قام الإنسان بقطع أشجار الغابات وتحويلها إلى أرض زراعية مما لم يكن ممكنا حدوثه دون إستخدام الفؤوس وآلات الحرث الحديدية (ولذا أعتبر استخدام الحديد بداية لهذه المرحلة) . ورغم هذه الموارد الغزيرة حدثت زيادة سريعة فى عدد السكان وكثافتهم فى مساحات صغيرة . وحسب ما نعلم لم يتعد عدد السكان فى أى منطقة النصف مليون إلا فى حالات قليلة جدا وربما لم يحدث ذلك أبدا .

---

(١) العصر البطولى للاغريق هو عصر ماقبل الاسكندر الأكبر والفتوحات العسكرية
المترجم

وفى أشعار هوميروس (شاعر الإغريق الشهير) وخاصة الإلياذه نجد المرحلة العليا للبربرية فى قمة إزدهارها ، فقد جاء فى هذه الأشعار وصف الآلات الحديدية التى تحسن صنعها كالعجلات وكذلك صنع الزيت والنبيذ والصناعات الحديدية التى تطورت إلى فنون والعربات والعجلات الحربية وبناء السفن وبدء الفن الهندسى وبناء المدن ذات الأسوار والأبراج الدفاعية ، وتعتبر كل هذه الأشياء مضافا إليها قصص هوميروس التاريخية وعلم الخرافات الميراث الرئيسى الذى حمله الإغريق فى إنتقالهم من البربرية إلى المدنية . وإذا قارنا بذلك وصف سيزار أوتاسيتس للألمان الذين كانوا على أبواب تلك المرحلة التى كان الإغريق أيام هوميروس يستعدون لاجتيازها إلى مرحلة المدنية لرأينا إلى أى حد كان التطور الإنتاجى غنيا فى المرحلة العليا من البربرية .

وإن صورة التطور الإنسانى خلال عصرى الوحشية والبربرية إلى بداية المدنية ، تلك الصورة التى نقلتها فيما سبق عن مورجان تعتبر كافية بما لا يقبل الشك لأنها مأخوذة رأسا من الإنتاج ولو كان الأمر غير ذلك لبدت ضعيفة إذا ما قورنت بالصورة المكونة فى نهاية رحلتنا هذه . ولأن هذه الصورة مأخوذه رأسا من الإنتاج يمكنها أن تعطى فكرة كاملة عن الإنتقال من البربرية إلى المدنية والتعارض بينهما .

والآن نستطيع أن نوجز تقسيم مورجان فيما يلى :

الوحشية حيث يعيش الإنسان على ما تنتجه الطبيعة دون مجهود إنسانى وكل ما أنتجه الإنسان فى هذه الفترة أساسا هو الأشياء المسهلة لعملية استخدام ما تجود به الطبيعة .

البربرية وهى المرحلة التى عرف الإنسان فيها إستئناس القطعان الحيوانية وتربيتها وزراعة الأرض أى تعلم الانسان فيها وسائل زيادة الانتاج الطبيعى عن طريق مجهوده الخاص .

المدنية وهى المرحلة التى تعلم الانسان فيها عمل الانتاج الطبيعى بالمجهود الصناعى كما تعلم الفنون .

الفصل الثاني

العـــائلة

قضى مورجان الشطر الأكبر من حياته بين قبائل الإيروكيوس في أمريكا وقد تبنته إحدى هذه القبائل (السينيكاس) . وقد وجد مورجان لدى هذه القبائل نظاما للقرابة يتعارض مع علاقاتهم العائلية القائمة . فقد كانت العائلة عندهم تسير على قاعدة الزواج بين ذكر وأنثى بشروط سهلة فى كل طرف وسمى مورجان هذا الوضع بالعائلة الزوجية وإلى هنا والوضع طبيعى مألوف وكانت هذه القبائل تسير عليه وكان يؤدى بلا شك إلى إيجـــاد أب وأم وأبناء وإخوة للشخص . ولكن تطبيق الإيروكيوس لهذا النظام كان على العكس من ذلك غاية فى الغرابة . فالإيروكيوس الرجال لا يعتبرون أبناءهم وبناتهم الطبيعيين فقط أولادا لهم بل يعتبرون أبناء وبنات إخواتهم الذكور أبناء بعكس أولاد أخواتهم الإناث ، والمرأة عند الإيروكيوس تعتبر أولاد أخواتها الإناث أولادا لها بعكس أولاد إخوتها الذكور إذ تعتبر بالنسبة لهم عمة وليس أما . وبنفس المقياس يكون أبناء وبنات العم إخوة وكذلك أبناء وبناء الخالات بعكس أبناء وبنات الأخوال والعمات .

وهذا النظام ليس مجرد عبارات جوفاء بل تعبير له قوة حقيقية فيما يتعلق بالقرب والبعد عن الشخص والمساواة وعدم المساواة فى علاقات وروابط الدم . وتعتبر هذه هى الفكرة الأساسية لنظام القرابة وتحتوى على مئات من العلاقات المختلفه للشخص الواحد . وزيادة على ذلك فهذا

النظام لا يقتصر فى وجوده على الهنود الأمريكيين وحدهم [وهو مطبق بين قبائلهم دون أى استثناء] ولكن يسرى هذا النظام أيضا فى الهند وبين قبائل الدرفيان فى الدكان وقبائل الجورا فى الهندستان . ونجد فى علاقات القرابة المطبقة بين قبائل التاميل فى جنوب الهند والسينكاس فى ولاية نيويورك تمييزا بين أكثر من مائتى نوع من أنواع القرابة حتى اليوم . ولذلك نقول أن هذه الأنواع من القرابة تتعارض مع الشكل العادى للعائلة مع أنه الشكل السائد عندهم .

فكيف يمكن تفسير ذلك ؟ إذا بحثنا الموضوع من وجهة نظر الدور الحاسم الذى تلعبه علاقات القرابة فى النظام الإجتماعى لدى كل الشعوب فى عصرى الوحشية والبربرية فإن هذا النظام المتسع لا يمكن شرحه فى كلمات ، فنظام مطبق تطبيقاً عاما فى أمريكا ومطبق أيضا فى آسيا بين شعوب مختلفة تماما وكذلك أشكال أخرى من هذا النظام تختلف قليلا أو كثيرا عنه نجدها سائدة فى أفريقيا وأستراليا ، كل هذا النظام لا يمكن أن يفسر إلا تفسيرا تاريخيا يتتبع أصوله التاريخية . إن عبارات أب وأم وأخت وإبن ونحوها ليست مجرد ألقاب شرفية ولكنها تحمل فى طياتها إلتزامات متبادلة فى غاية الخطورة تكوّن فى مجموعها جزءا أساسيا من النظام الإجتماعى لتلك الشعوب .

وقد وجد شرح لهذا الموضوع فى جزر هاواى فقد وجد هناك فى النصف الأول من القرن الحالى[1] نوع من العائلة مكون من الأب والأم والإخوة والأخوات والأبناء والبنات وإخوة الأب والأم

---

(١) القرن التاسع عشر (المترجم)

وأبنائهم مثل نظام القرابة عند الهنود الأمريكيين . ولكن علاقات الدم السائدة فى جزر هاواى غريبة جدا عن الشكل الحالى لدى الهنود . ففى جزر هاواى يعتبر كل أبناء وبنات الأعمام والعمات والأخوال والخالات إخوه فيما بينهم وأبناء وبنات لكل هؤلاء الأعمام والأخوال والعمات والخالات دون تمييز . وعلى ذلك فإذا كان نظام الهنود الأمريكيين يمثل نوعا خاصا من العائلة لا يعمل به الآن حتى فى أمريكا نفسها فإن هذا النظام يجد له مجالا للتطبيق فى جزر هاواى وبشكل أكثر غرابة . وهذا النظام وإن كان غير محقق الموجود الآن إلا فى جزر هاواى إلا أنه من المقطوع به أنه كان موجودا من قبل وإلا لما وجد النظام الحالى فى جزر هاواى .

ويقول مرجان « إن العائلة تمثل مبدءاً إيجابياً غير ثابت وإنما يتطور من شكل أدنى إلى شكل أعلا كما يتطور المجتمع من حالة دنيا إلى حالة عليا . وعلى العكس من ذلك فإن نظم علاقات الدم سلبية تسجل التقدم الذى تحرزه العائلة فى فترات طويلة ولا يتغير تغيرا كلياً إلا حينما تتغير العائلة تغيرا كلياً » . ويضيف ماركس « ونفس الشيء ينطبق على النظم السياسية والقانونية والفلسفية عموما » . وبينما تستمر العائلة فى تطورها فإن نظام علاقات الدم يصبح جامدا . وبينما يستمر نظام علاقات الدم موجودا فى شكله العادى فإن تطور العائلة يطوره .

وكما استنتج كوفيار من بقايا هيكل عظمى لحيوان جيبى[1] وجد قرب باريس أن ذلك يعتبر دليلا على أن الحيوانات الجيبية كانت تعيش

---

(١) الحيوان الجيبى هو حيوان يحمل صغاره فى كيس طبيعى فى صدره مثل الكنجارو (المترجم)

قرب باريس ، كذلك نستنتج نحن مؤكدين من نظام لعلاقات الدم نقل عبر التاريخ أن نظاما للعائلة نبع منه كان موجودا قديما وانقرض الآن .

وتختلف نظم علاقات الدم وأشكال العائلة النابعة منها عن الشكل السائد حالياً ، إذ يكون للطفل فيها عدة آباء وأمهات . فطبقا للنظام الأمريكى لا يمكن للأخ وأخته أن يكونا أبوين لطفل واحد [فكما ذكرنا يكون إخوة الأب آباء أما أخواته فلا يكن أمهات] وعلى العكس من ذلك نجد أن نظام جزر هاواى يجعل الأخ وأخته أبوين لطفل واحد كما سبق . وعلى ذلك نجد أنفسنا أمام مجموعات من أشكال العائلة تتعارض تماما مع الشكل السائد حاليا . فالفكرة التقليدية هى زواج الرجل الواحد من المرأة الواحدة وتوجد بجانبها حالة تعدد الزوجات وأحيانا تعدد الأزواج . وتتجاهل الفكرة التقليدية حقيقة ما يحدث فى المجتمع من عدم إحترام هذه الأوضاع الرسمية وانها كلها فى سكون ودون خجل .

وتوضح لنا دراسة تاريخ الشعوب البدائية الشروط التى كان يسمح للرجال على أساسها بتعدد الزوجات ويسمح للنساء بتعدد الأزواج ويكون الأطفال الناتجين عن هذا الزواج أبناء عموميين لهم جميعا .

وقد أخذت شروط تعدد الأزواج والزوجات تتعرض على مدار التاريخ لمجموعة مختلفة من التعديلات حتى وصلت للوضع الحالى أى زواج الرجل من إمرأة واحدة . فقد أخذت دائرة الناس المرتبطين بزواج عمومى مشترك [وكانت دائرة واسعة جدا فى الأصل] تضيق شيئا فشيئا حتى وصلت فى النهاية إلى زواج رجل واحد من إمرأة واحدة وهو الشكل الحالى للزواج .

وفى هذا البناء التدريجى لتاريخ العائلة ، وصل مورجان مع أغلبية زملائه إلى مرحلة بدائية حدث عندها تغير أولى فى القبيلة بحيث أصبحت كل إمرأة مملوكة بالتساوى لكل رجل وبالعكس . وقد ثارت مناقشات طويلة عن هذه الحالة البدائية منذ القرن الماضى ولكنها كانت مناقشات عامة .

وقد كان باتشوفن أول من بحث شروط هذه الحالة بحثــــا جديا [ويعتبر هذا من أجل خدماته] كما بحث آثارها فى التقــاليد التاريخية والدينية ولكننا وصلنا فى معلوماتنا اليوم إلى أن الآثار التى إكتشفها باتشوفن لا يمكن أن تؤدى إلى وصولنا إلى هذه المرحلة البدائيــة من من التطور الجنسى ولكن إلى شكل متأخر فى الظهـــور من أشكال الزواج الجماعى . وهذه المرحلة الاجتماعية — بافتراض أنها وجدت فعلا — تنتمى إلى عصر بعيد جدا لا نتوقع أن نجد عنه حقائق أكيدة من الحفريات[1] الخاصة بمرحلة الوحشية .

ويعود فضل باتشوفن إلى أنه وضع هذه المسألة موضع الدراسة والتحرى .[2]

---

(١) الحفرية هى الهيكل المتحجر لكائن مات منذ آلاف السنين ودفن فى الأرض حتى تحجر وظل إلى أن كشف عنه بالمصادفة أو بالبحث العلمى ثم تجرى عليه دراسة الحياة القديمة.
(المترجم)

(٢) لم يفهم باتشوفن جيدا ما إكتشف أو خمن ، ويؤيد ذلك وصفه لهذه الحالة البدائية على أنها علاقة غير شرعية أو بغاء . وقد إستعمل الإغريق هذه الكلمة لوصف العلاقة بين الرجال غير المتزوجين أو المتزوجين والنســاء غير المتزوجات ، وهى تعنى دائما وجود شكل محدد من الزواج توجد خارجه هذه العلاقة بمافيها البغاء .
ولم تستعمل الكلمة بأى معنى آخر . وإن أهم إكتشــافات باتشوفن ينقص من قيمتها دائما إعتقاده الخاطىء أن العلاقات التى ظهرت فى التاريخ بين الرجل والمرأة نشأت من أفكار الرجال الدينية فى الفترة التى توجد فيها العلاقة وليس من ظروف الحياة القائمة .

وقد أصبحت عادة الذين جاؤوا بعد باتشوفن أن ينكروا هذه المرحلة من مراحل الحياة الجنسية للإنسان لكى ينقذوا الإنسانية من هذا العار وبدلا من أن يشيروا إلى عدم وجود حقائق ثابتة عن هذه المرحلة يشيرون إلى بقية العالم الحيوانى الذى جمع منه ليتورنو[1] حقائق عديدة يظهر منها أن التطور الجنسى الكامل يعود فى أصله إلى مرحلة دنيا . والنتيجة الوحيدة التى استطيع إستخلاصها من هذه الحقائق أن أغلبية من جاؤوا بعد باتشوفن لم يستطيعوا أن يثبتوا شيئا بالمرة عن الإنسان والشروط الأولية لحياته .

إن شرح فترات تطور الحيوانات قد يكفى فيه الشرح الفسيولوجى بعكس حالة الإنسان . فعند الطيور مثلا نجد أن الأنثى تحتاج إلى المساعدة أثناء فترة الفقس ومن الضرورى إخلاص الذكر لها فى هذه الفترة ، ولكن هذه المعلومات لا يمكن أن نستمدمنها دليلا على الإنسان ما دام لا يتناسل من الطيور ، وإذا كان إخلاص الذكر للإنثى والأنثى للذكر هو أساس الفضائل لوجب علينا أن نصفق فى إعجاب إلى الدوده الخنساء التى تملك جهازاتنا سليا مذكرا ومؤنثا فى كل جزء من أجزاء جسمها التى تتراوح بين الخمسين والمائتين والتى تقضى كل حياتها فى تلقيح نفسها . وإذا إنتقلنا إلى دائرة الحيوانات الثديية نجد أن جميع أشكال الحياة الجنسية التى يعرفها الإنسان مطبق بينها مع إستثناء تعدد الأزواج إذ لا تحققه إلا أنثى الإنسان . ونجد كذلك أن أقرب الحيوانات شبها بالإنسان تختلف عنه أشد الإختلاف فى حياتها الجنسية ، إذ يقول ليتورنو أنها تسير أحيانا على قاعدة العلاقة الفردية بين الذكر والأنثى وأحيانا تسير على قاعدة التعدد ، بينما يخبرنا سوزر وجيرود يتولان أنها تسير على

(١) ليتورنو — تطور الزواج والعائلة — باريس سنة ١٨٨٨ .

أساس العلاقة الفردية بين الذكر . والأنثى وهكذا يتضح مدى تضارب المعلومات بشأنها وقد أكد وسترمارك أخيرا [كتاب تاريخ الزواج البشري — لندن سنة ١٨٩١ .] أن مسألة العلاقة الفردية بين الذكر والأنثى عند الحيوانات الأربع الشبيهة بالإنسان ليس عليها دليل حتى الآن . ويقول ليتورنو أنه « بين الحيوانات لا توجد علاقة بين درجة الذكاء ونوع العلاقة الجنسية » . ويقول إسبيناس [كتاب المجتمعات الحيوانية] ويونيت بلانك أن التارتار هو أعلا مجموعة إجتماعية بين الحيوانات ويظهر أنه مقسم إلى عائلات ولكن العداء القائم داخل مجموعة هذا الحيوان يسير فى إتجاه عكسى مع العائلة .

ويتضح من كل ما سبق أننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن العائلة والمجموعات الإجتماعية الأخرى لدى الحيوانات الشبيهة بالإنسان فإن المعلومات فى هذا الشأن متضاربة ولا غرابة فى ذلك فإن ما لدينا من معلومات عن القبائل الإنسانية نفسها فى المرحلة الوحشية متضارب وعرضه لنقد علمى كثير ولا شك أن مجتمعات الحيوانات الشبيهة بالإنسان أكثر صعوبة فى دراستها من المجتمعات الإنسانية . ولذلك يجب علينا أن نستبعد كل نتيجة تأتى إلينا من مثل تلك المعلومات التى لا يعتمد عليها . ولكن المعلومات التى ساقها إلينا إسبيناس وذكرناها فيما سبق تسوق لنا أدلة أفضل من غيرها إذ ذكر أن التارتار والعائلة ليسا شيئان متكاملين بل متضادين ويضيف إسبيناس أن الغيرة بين الذكور تكاد تفكك مجموعات التارتار أثناء فترة اللقاح ولا ينتعش التارتار إلا حيث تكون القاعدة هى العلاقات الجنسية الحرة أى عندما تضعف الروابط العائلية . وذلك هو السبب فى أننا نادرا ما نصادف مجموعات منظمة بين الطيور وبين الحيوانات الثدية نجد هذه المجموعات

ولكن دون أى روابط عائلية ، ونجد أن الشعور الجماعى لدى التارتار لا يجد له عدوا أكثر من الشعور العائلى .

ويتضح مما سبق أن المجتمعات الحيوانية ذات قيمة معينة لكى نستخلص منها إستنتاجات عن المجتمعات الإنسانية ولكن هذه القيمة سلبية . فالحيوانات العليا لاتعرف إلا نوعين فقط من العائلة وهما تعدد الزوجات والزواج المنفرد وفى كلتا الحالتين لا يسمح إلا بوجود ذكر واحد للأنثى .

وتمثل غيرة الذكر روابط وحدود العائلة الحيوانية وتجعلها فى تنازع مع العشيرة فإن العشيرة باعتبارها أعلا الأشكال الاجتماعية تكون متفككة فى موسم اللقاح وهذا وحده يكفى دليلا على عدم إمكان المقارنة بين العائلة الحيوانية والمجتمع الإنسانى البدائى . فالإنسان البدائى ، الذى شق طريقه إلى الوجود بعد المرحلة الحيوانية إما أنه لم يعرف العائلة إطلاقا وإما أنه عرف نوعا منها لاوجود له بين الحيوانات . وقد ذكر وسترمارك نقلا عن تقارير الصيادين أن الغورلا والشمبنز وهما أقرب الحيوانات للإنسان استطاعت أن تعيش فى مجموعات صغيرة منعزلة على أساس من الزواج الفردى باعتباره أعلا الأشكال الاجتماعية .

وقد كانت هناك حاجة إلى عامل إضافى لكى يمكن التطور من المرحلة الحيوانية والوصول إلى أكبر تقدم عرفته الطبيعة ، وهذا العامل الإضافى هو إحلال القوة الجماعية للعشيرة محل القوة الفردية العاجزة ، لذلك لا يمكن القول أن الإنسان قد تطور إجتماعياً من الظروف التى تعيش فيها الآن الحيوانات الشبيهة بالإنسان فهذه الحيوانات توحى حالتها بأنها فى طريقها إلى الانقراض وهذا وحده كاف لاستبعاد الرأى القائل

بأن الأشكال العائلية لهذه الحيوانات موازية لأشكال عائلة الإنسان البدائي. فقد كان أساس الجماعات الأولى التي تم عن طريقها الانتقال من الحيوان إلى الإنسان هو التحرر من الغيرة والتسامح المتبادل بين الذكور. فالشكل القديم جداً للعائلة الإنسانية البدائية، وهو الشكل الذي توجد عليه دلائل لا تنكر ويمكن إلى اليوم مشاهدته بين قبائل بدائية عدة وفي أماكن مختلفة، هذا الشكل هو الزواج الجماعي الذي تكون فيه جماعات بأسرها من الرجال وجماعات بأسرها من النساء في علاقات جنسية مشتركه وهو مالا يترك إلا مكانا ضئيلا للغيره.

وزيادة على ذلك نجد في مرحلة تالية من التطور الإنساني الشكل الإستثنائي الخاص بتعدد الأزواج وهو بدوره أبعد ما يكون عن الغيره ولا تعرفه الحيوانات.

وحيث أن أشكال الزواج الجماعي المعروفة لنا مصحوبة بشروط غريبة معقدة تشير إلى وجود أشكال مماثلة لها من العلاقات الجنسية سابقة عليها أي أنها تشير إلى فترة علاقات جنسية جماعية مطابقة لفترة الإنتقال من الحيوان إلى الإنسان، لذلك فإن الرجوع إلى أشكال الزواج لدى الحيوانات للإستدلال بها على الإنسان يؤدي حتما إلى الخطأ.

فماذا تعني المعاشرة الجنسية المختلطة إذن؟ تعني أن الحدود الخلقية المطبقة حاليا أو منذ وقت مبكر لم تكن موجودة. وقد شاهدنا فيما سبق مدى هبوط مستوى الغيرة. وإذا كان هناك شيء مؤكد فهو أن الغيرة شعور حديث نسبيا في ظهوره لدى الإنسان ونفس الشيء ينطبق على البغاء. وفي شعوب كثيرة إلى اليوم نجد أن الأخ وأخته بل الوالدين

والأولاد مازالوا يتعاشرون معاشرة الأزواج . ويذكر بانكرفت(١) وجود هذه العلاقات بين الكاثيات قرب مضيق برنج والكادياك قرب ألاسكا والتينهى فى وسط كندا . وقد جمع ليتورنو معلومات مماثلة عن هنود التشيبيوا ، والكاكاس فى تشايل والكاريبين والكارن فى الهند الصينية ، وهذا فضلا عن الإغريق والرومان القدماء والفرس وغيرهم .

وقبل اختراع نظام البغاء كانت المعاشرة الجنسية بين الوالدين والأولاد شيئاً لا يزيد فى حقارته عن العلاقة الجنسية بين أشخاص من من أجيال مختلفة مثل مايحدث اليوم فى أكثر الشعوب جهلا دون أن يسبب إستهجانا كبيراً .

وإذا بدأنا البحث من أكثر أشكال العائلة المعروفة لنا بدائية ، فإن صور البغاء الموجودة لديهم ، وهى صور تختلف عما لدينا الآن . تجعلنا أمام شكل من أشكال المعاشرة الجنسية لا يمكن وصفه إلا بأنه مختلط تماما فإن الحدود التى وضعت للعلاقة الجنسية لم تكن قد عرفت بعد . وليس معنى ذلك أن المعاشرة الجنسية كانت ضمن العمل اليومى للناس ، كما أن انفراد الرجل بامرأة معينة لفترة محدودة كان محتمل الحدوث ، وهو يحدث فعلا فى حالات الزواج الجماعى الموجودة حاليا

وإذا كان وستر مارك (آخر من أنكر هذه الحالة الأصلية) يعتبر أن الزواج هو كل حالة يظل فيها الجنسين فى علاقة لحين مولد الطفل ، فيمكن إذن أن يقال أن هذا النوع من الزواج كان يمكن جدا أن يوجد

---

(١) كتاب السكان الأصليون فى ولايات شمال أمريكا بالباسفيكى جزء ١ سنة ١٨٧٥ .
المؤلف

فى ظل المعاشرة الجنسية الجماعية دون تعارض مع هذه الجماعية . ويبدأ وسترماك (لكى يؤكد كلامه) من جهة النظر القائلة « أن المعاشرة المختلطة تتضمن كبتا لميول الفرد » وعلى ذلك « يكون البغاء أكثر أشكالها « دقة » ويبدو لى أنه لا يمكن فهم الظروف البدائية طالما نظرنا إليها بمنظار البغاء . وسنعود إلى هذه النقطة ثانية عند الكلام عن الزواج الجماعى .

وطبقا لما كتب مورجان فإن هذه الظروف الجنسية البدائية التى ذكرناها قد تطورت عنها — ربما فى وقت مبكر جدا — الأشكال التالية من العائلة :

١ — العائلة المرتبطة برباط الدم — المرحلة الأولى للعائلة : وفيها كانت المجموعات الزوجية مقسمة بحسب الأجيال فكل الأجداد والجدات فى العائلة أزواج وزوجات مشتركين وكذلك كل الآباء والأمهات وكذا الأولاد والبنات ثم أولادهم من بعدهم وهكذا . وفى هذا الشكل من أشكال العائلة نجد أن الأصول والفروع فقط هم الممنوعين من ممارسة حقوق وواجبات الزواج مع بعضهم البعض . كما نجد أن أبناء وبنات الجيل الواحد إخوة جميعا بالتبادل بصرف النظر عما إذا كانوا حقيقة أخوة أو أبناء عم أو خال أو نحوه . وكانت علاقة الأخ بأخته فى هذه المرحلة تشمل ممارسة العلاقة الجنسية ، أى أن العائلة كانت بهذا الشكل تتكون من سلالة زوجين ويكون كل جيل تسلسل من هذه السلالة إخوة وأخوات وأزواج مشتركين فى نفس الوقت .

وقد انقرضت العائلة المبنية على علاقات الدم ، وحتى أقدم الشعوب المعروفة فى التاريخ لم يثبت أنها عرفت هذا النوع من العائلة ولكن

الدليل على أن مثل هذه العائلة وجدت مستمد من النظام القائم فى جزر هاواى والذى يشمل درجات من روابط الدم لايمكن أن توجد إلا فى مثل هذا الشكل من العائلة ، ومما يؤيد هذا الدليل التطور الكلى للعائلة الذى يفترض وجود هذا الشكل باعتباره مرحلة أولية ضرورية .

٢ — العائلة البونالوانية [عائلة الرفاق الأعزاء] : إذا كانت الخطوة الأولى فى التنظيم العائلى هى منع الأصول والفروع من ممارسة العلاقات الجنسية فإن الخطوة الثانية كانت منع الإخوة والأخوات من هذه الممارسة . وقد كانت هذه الخطوة غاية فى الأهمية ولكنها أكثر صعوبة من الأولى ، ويحتمل أنها طبقت تدريجيا مبتدئة بمنع الإخوة والأخوات الطبيعيين من ممارسة العلاقة الجنسية فى حالات فريدة أولا ثم أصبحت تدريجيا هى القاعدة [1] . ثم انتهى تدرج هذه الخطوة بمنع الزواج حتى بين أبناء وبنات العمومة والخؤولة إلى الدرجة الثالثة . وكما قال مورجان فإن هذا المنع « يقدم تفسيرا حسنا لمبدأ الاختيار الطبيعى » . ومن المقطوع به أن القبائل التى حددت فيها العلاقات الجنسية على هذا النحو قفزت فى تطورها بخطوات أسرع وأقوى من القبائل التى بقيت فيها المعاشرة الجنسية بين الأخ وأخته حقا وواجبا . وقد كان هذا المنع السبب المباشر فى نشأة القبيلة ، وقد كانت القبيلة أساس النظام الإجتماعى لمعظم شعوب العالم فى مرحلتها البربرية . وعند الإغريق والرومان نخرج من القبيلة رأسا إلى المدنية .

وقد كانت كل عائلة بدائية تنقسم بعد جيلين على الأكثر إلى أقسام ، وكانت العائلة البدائيـة الأصلية التى ظلت موجودة حتى آخر المرحلة

---

(١) وما زالت هناك إستثناءات لهذه القاعدة فى جزر هاواى فى القرن التاسع عشر .
(المترجم)

الوسطى من البربرية محددة بحجم أقصى معين من النطاق العائلى ، يختلف باختلاف الظروف ولكنه موجود فى كل مكان .

وبمجرد أن تصور الإنسان عدم لياقة العلاقة الجنسية بين أولاد أم مشتركة كان لذلك التصور أثره فى تقسيمات العائلية وفى تأسيس وحدات عائلية جديدة ، فقد أصبحت مجموعة أو أكثر من الأخوات نواة لعائلة وأصبح إخوتهم نواة لعائلة أخرى . وبهذه الطريقة أو طرق أخرى مشابهة تطور الشكل العائلى الذى سماه مورجان العائلة البونالوانية فقد تطورت هذه العائلة من العائلة المرتبطة برباط الدم . فطبقا لعادات جزر هاواى نجد أن عددا من الأخوات سواء فى ذلك الأخوات الطبيعيات وبنات العمومة والأخوال والخالات أصبحت زوجات مشتركات لأزواج مشتركين ليسوا إخوتهم الذكور . وهؤلاء الأزواج المشتركين لا يعتبرون بعضهم البعض إخوة بل بونااليا أى رفاقا أعزاء . وبنفس الطريقة أصبح عدد من الأخوة الطبيعين وأبناء العمومة والأخوال والخالات أزواجا مشتركين لمجموعة من النساء من غير أخواتهم وتعتبر تلك النساء فيما بينها أيضا بونااليا . وهذا هو الشكل الكلاسيكى للبناء العائلى وهو الشكل الذى طرأت عليه فيما بعد مجموعة من الاختلافات صفتها الأساسية وجود وحدة مشتركة من الأزواج والزوجات فى نطاق عائلى محدود يستبعد منه الأخوة الطبيعين للنساء أولا ثم أبناء العمومة والخؤولة ، ونفس الوضع بالنسبة لأخوات الرجال .

ويبين لنا هذا الشكل من العائلة بمنتهى الوضوح درجات القرابة كما هى موجودة لدى الهنود الأمريكيين ، فأبناء الخالة ما زالوا معتبرين إخوة وكذلك أبناء العم بعكسه أبناء العمة وأبناء الخال ، ولذلك فإن أزواج الخالة يعتبرون أزواج للأم وزوجات العم تعتبر زوجات للأب

من الناحية الرسمية وإن كان لا يستعمل حقه معهن دائما من الناحية العملية . وقد كان حظر المعاشرة الجنسية بين الأخ وأخته هو أول تقسيم لأبناء العمومة والخؤولة من الدرجة الأولى إلى طبقتين . فإحداهما بقيت معتبرة إخوة وأخوات كما كان الحال قبلا وهم أبناء العم وأبناء الخالة ، والطبقة الثانية لم تعد معتبرة إخوة وأخوات وهم أبناء العمة وأبناء الخال . ولذلك فإن طبقة أبناء العمومة الذكور والإناث التى كانت غير محسوسة فى العائلة المرتبطة برباط الدم أصبح وجودها ضروريا للمرة الأولى . وإن النظام الهندى الأمريكى لعلاقات الدم ، وهو النظام الذى يظهر غاية فى الغرابة لأن به أيضا بعض أنواع الزواج الفردى إلى جانب هذه القرابات الغريبة ، يبدو هذا النظام معقول التفسير وطبيعيا إذا تعمقنا فى التفصيلات الخاصة بالعائلة البونالوانية ، وهذا يؤكد لنا أن هذه العائلة أو شكلا مشابها لها كان موجودا فى الأصل لدى الهنود الأمريكيين .

كما أن الشكل العائلى الموجود فى جزر هاواى يحتمل أنه كان موجودا فى كل مكان . وقد صادفت الإرساليات الدينية مثل الإرساليات الأسبانية القديمة أنواعا كريهة من العلاقات فى هذه النظم غير المسيحية(١) .

ويقول سيزار عن الجنس البريتونى [وهو جنس وجده الرومان

(١) لايمكن أن يظل هناك شك فى أن الآثار الباقية من عدم التميز فى العلاقات الجنسية ، وهى الآثار التى ظن باتشوفن أنه اكتشفها ، هذه الآثار تعود بنا إلى الزواج الجماعى . وإن نظرة باتشوفن لهذا الزواج البونالوانى على أنه غير خاضع لقانون تساوى تماما نظرة رجل من أيام الزواج البونالوانى لزواجنا الحالى بين أبناء العمومة على أنه بغاء لأن زواج أبناء العمومة مثلا كان محرما فى ظل المجتمع البونالوانى . (ماركس)

في بريطانيا] الذى كان فى ذلك الوقت فى المرحلة الوسطى من البربرية « أنه كان لديهم عشرات من الزوجات المشتركات وكان أزواجهم فى الغالب إخوة أو أبناء أو آباء » وهذه ولاشك صورة واضحـــة من الزواج الجماعى .

ولم يكن لدى أمهات المرحلة البربرية عشرات من الأبناء الكبار كفاية لكى يكون لهم زوجات جماعيات ولكن النظام الأمريكى الخاص بقرابة الدم والذى تفرعت عنه العائلة البنالوانية كان يحتوى على إخوة كثيرين حيث أن كل أبناء عمومة وخئولة الرجل كانوا إخوة له .

وعلى ذلك فيمكن شرح كتابات هيرودوت وغيره من الكتاب القدماء بشأن الزوجات الجماعيات بين الشعوب فى عصرى الوحشية والبربرية ، يمكن شرح هذه الكتابات بالرجوع إلى العائلة البونالوانية .

وقد كانت نشأة القبيلة فى أغلب الحالات عن طريق العـــائلة البونالوانية ويؤكد ذلك النظام الاسترالى فى الزواج الجماعى الواسع النطاق لدى الأستراليين الأصليين ، ولم يصل الاستراليون بعد إلى العائلة البونالوانية والذى لديهم هو شكل أكثر بدائية من الزواج الجماعى . وسيأتى شرح النظام الأسترالى . ويلاحظ أنه فى جميع أشكال الزواج الجماعى لايمكن التأكد من أبوة الطفل ولكننا نستطيع بسهولة معرفة أمه ، ورغم أن الأم فى هذا النظام تسمى كل أطفال العائلة أولادها وتلتزم نحوهم بواجبات الأم إلا أنها تعرف رغم ذلك أولادها الحقيقيين . وعلى ذلك فكلما وجد زواج جماعى فلا يمكن التأكد من السلالة إلا من ناحية الأم وهذه هى الحالة بين كل شعوب عصر الوحشية والمرحلة الدنيا

من البربرية . وكان الاكتشاف الثانى الكبير لباتشوفن هو اكتشافه لهذه الحقيقة ، وهو يسمى هذا التسلسل من الأم والعلاقات الوراثية التى تفرعت عنه بفترة الانتساب للأم .

وإذا أخذنا الآن أحد نوعى العائلة اليونالوانية وهو الذى يتكون من عدد من الأخوات الطبيعيات وبنات العمومة والخؤولة [المعتبرين إخوة كما ذكرنا] مع أولادهن وإخوتهن الطبيعيين وأبناء العمومة والخؤولة [وهم معتبرين أيضاً إخوة] ، فإننا نكون بذلك أمام تلك الدائرة من الأشخاص التى ظهرت فى المجتمع على هيئة قبيلة ، وهكذا نشأت القبيلة من أصول نسائية تعتبر سلالتها من الإناث جيلا بعد جيل أخوات بفضل الانحدار من أصل مشترك ، أما أزواج هؤلاء الأخوات فلم يعودوا معتبرين إخوة لهم أى لا يمكن أن يكونوا منحدرين من نفس الأصول النسائية ولذلك لا ينتمون إلى دائرة القرابة فى الدم التى أصبحت تسمى قبيلة ، ولكن أولاد هؤلاء الأزواج ينتمون للقبيلة لأن أمهاتهم منها والقاعدة هى الانتساب للأم لأنه الرابطة الوحيدة المؤكدة .

وحيث يطبق منع المعاشرة الجنسية بين الإخوة والأخوات بالمعنى الواسع لانحدارهم من أصول نسائية مشتركة فإن تلك المجموعة تجعل من نفسها دائرة محدودة من الأقارب فى الدم لا يسمح لأفرادها بالزواج فيما بينهم ، وهكذا تصبح قبيلة ، ومنذ ذلك الوقت فصاعد يزداد التضامن الداخلى لتلك القبيلة ويتخذ طابعاً إجتماعياً ودينياً وتفرق هذه القبيلة بين نفسها وبين باقى قبائل العشيرة . وسنعود لهذه المسألة بتفصيل أكثر فيما بعد . وحيث أننا وجدنا أن القبيلة قد خرجت من العائلة البونالوانية فإننا لذلك نستطيع التأكيد أن هذا الشكل من العائلة وجد قديما بين

كل الشعوب التى لدينا آثار عن أنظمتها القبيلية القديمة .

وعندما وضع مورجان كتابه كانت معلوماتنا عن الزواج الجماعى قليلة جداً إذ لم نكن نعرف إلا القليل عن الزواج الجماعى المطبق لدى الأستراليين الأصليين . وقد نشر مورجان سنة ١٨٧١ المعلومات التى وصلته عن العائلة البونالوانية فى جزر هاواى . وقد أعطتنا العائلة البونالوانية الشرح الكافى لنظام قرابة الدم المطبق لدى الهنود الأمريكيين ومن ناحية أخرى أعطتنا نقطة بدء نخرج منها إلى السلالة المنتسبة للأم كما أنها كانت تمثل مرحلة عليا أكثر تطورا من النظام الأسترالى . ولذلك كان يجب على مورجان إعتبار العائلة البونالوانية مرحلة من مراحل التطور سبقت فى ظهورها العائلة المكونة من فردين وكان يجب عليه التسليم بأن هذا الشكل العائلى كان عام الانتشار فى الزمن القديم .

ومنذ كتاب مورجان علمنا عن مجموعة أشكال أخرى من الزواج الجماعى ، وقد قطع مورجان مرحلة كبيرة فى هذا المجال ولذلك فقد كان إكتشاف مورجان للعائلة البونالوانية إكتشافا للشكل الكلاسيكى الأعلى للزواج الجماعى مكننا من شرح مرحلة التطور التالية له بسهولة .

وقد قام المبشر الإنجليزى لوريمر فيسون بدراسة الزواج الجماعى لمدة سنوات طويلة بموطنه الأصلى بإستراليا ، وإنا لندين بمعظم معلوماتنا الأساسية عن الزواج الجماعى له . وقد وجد لوريمر المرحلة الدنيا من التطور بين الزنوج الأستراليين بجبل جامبير جنوب أستراليا إذ وجد القبيلة كلها مقسمة إلى طبقتين كبيرتين هما الكروكى والكوميت . كما وجد أن العلاقات الجنسية داخل كل طبقة ممنوعة تماما ، ومن ناحية أخرى

يعتبر كل رجل فى إحدى الطبقتين زوجا بالميلاد لكل إمرأة فى الطبقة الأخرى ولا توجد أى موانع بسبب الإختلاف فى السن أو روابط الدم خلاف الموانع الناتجة عن التقسيم إلى طبقتين ، فالرجل من الكوميت مثلا يعتبر زوجا لكل إمرأه من الكروكى ، وحيث أن إبنته نفسها تعتبر من الكروكى طبقا لقاعدة الإنتساب للأم السابق ذكرها فإن إبنته نفسها تعتبر زوجة له . وحيث أن هذا التنظيم لا يضع أى موانع فإنه إما أن يكون قد ظهر فى وقت كانت فيه المعاشرة الجنسية بين الأبوين والأولاد لا تعتبر ممنوعة وإما أنه ظهر فى وقت كانت فيه هذه العلاقات محرمة من الناحية العملية ثم نشأت هاتين الطبقتين وهى الحالة التى تشير إلى العائلة المرتبطة برباط الدم والتى تعتبر الطبقات أول خطوة للتطور بعدها وهذا هو الإحتمال الذى نرجحه .

وإن حالة العلاقات الجنسية بين الأبوين والأولاد التى إستقينا معلوماتها من استراليا والعرف الخاص بضرورة الزواج من خارج السلالة (نظام الطبقات سالف الذكر) وكذلك نظام السلالة المنتسبة للأم ، كل ذلك يفترض ضمنا أن مثل هذه العلاقات محرمة فعلا .

وفضلا عن جبل جامبير بجنوب أستراليا نجد نظام الطبقتين مطبقا فى منطقة نهر دارلنج بالشرق ومنطقة كوينزلاند فى الشمال الشرقى وهو لذلك نظام شائع بأستراليا . وتوجد خطوة أخرى فى إتجاه منع التربية الداخلية فى قبائل الكاميلا روى بمنطقة نهر دار لنج وفى نيو سوث ويلز حيث تتقسم الطبقتين الأصليتين إلى أربع طبقات وتعتبر كل طبقة منهم متزوجة من طبقة أخرى محددة . فالطبقتين الأولتين متزوجتين فيما بينهما أما أولاد كل منهما فلا يكونون أعضاء فى أى من هاتين الطبقتين بل يصبح أبناء الطبقة الأولى أعضاء فى الطبقة الثالثة وأبناء الطبقة الثانية أعضاء فى الطبقة الرابعة . وكذلك

تعتبر الطبقتين الثالثة والرابعة متزوجتين فيما بينهما وبالمثل يعتبر أبناء الطبقة الثالثة أعضاء فى الطبقة الأولى وأبناء الطبقة الرابعة أعضاء فى الطبقة الثانية ومعنى ذلك أن الجيل الأول ينتمي للطبقة الأولى أو الثانية والجيل الثانى ينتمى للطبقة الثالثة أو الرابعة والجيل الثالث يعود ثانية فينتمى للطبقة الأولى أو الثانية وهكذا . ومعنى هذا أن أطفال الإخوة والأخوات لا يستطيعون الزواج فيما بينهم ولكن أحفادهم يستطيعون ، ومن ذلك نرى كيف أن الميل لمنع التربية الداخلية فى القبيلة يعود فيتأكد ولكن بطريقة غريزية غريبة ودون أى هدف واضح .

وعندما ندقق النظر فى نظام زواج الطبقات الجماعى المطبق فى أستراليا نجد أنه ليس شيئاً مستهجنا بالنسبة للتطور الإباحى للإنسان البدائى وقد ظل كذلك سنوات طوال ولم يصبح شيئاً مستنكرا إلا حديثا . وقد يظهر من النظرة السطحية أن هذا النظام نوع مفكك من الزواج الفردى أو من نظام تعدد الأزواج والزوجات مصحوب بخيانات زوجية من وقت لآخر ، ولكن على الباحث أن ينفق السنوات الطوال حتى يكتشف القانون المنظم لشروط هذا الزواج كما فعل فسون وهوديت وهو القانون الذى يذكر الأوربى العادى بعاداته العملية (أى خيانته لزوجته) والذى يجد الزنجى الأسترالى بمقتضاه نساءا تعطى له نفسها دون حرج أومقاومة حتى ولو كان بعيداً آلاف الأميال عن قبيلته ويستطيع الزنجى بمقتضى هذا القانون نفسه أن يملك عدة زوجات يستطيع تقديم أى منها هدية لضيفه ليقضى معها الليل . وفى ظل هذا القانون ، حيث لا يرى الأوربى فيه إلا الإنحلال « يحترم الأهالى قانونهم الجنسى بدقة فالقانون يمنع تماما العلاقة الجنسية داخل الطبقة وعقوبة المخالفة الطرد من القبيلة والنفى . وحتى حيث تغتصب النساء وهى الحالة الغالبة فى بضع

مناطق يراعى القانون الطبق بدقة ، فبعد أن يغتصب الشاب فتاة ويهرب به معها بمساعدة أصدقائه الذين يمارسون معها من بعده العملية الجنسية الواحد بعد الآخر ، تعتبر الفتاة زوجة لمغتصبها . وإذا هربت الفتاة من مغتصبها وضبطها آخر فإن هذا الأخير يصبح زوجها ويفقد الأول إمتيازه . ويعتبر هذا الإمتياز . الخطوة الأولى للإنتقال إلى الزواج الفردي .

من كل ما سبق يتضح أن القيود على العلاقات الجنسية وإنفراد رجل بإمرأة فترة طويلة أو قصيرة وتعدد الأزواج والزوجات ، كل ذلك يوجد جنبا إلى جنب فى الزواج الجماعى ، والسؤال الذى يتردد الآن هو من الذى سيختفى أولا فى أستراليا نتيجة النفوذ الأوربى ، هل هو الزواج الجماعى أم الاستراليون الأصليون الذين يعيشون فى ظله .

وعلى أى حال فإن الزواج بين طبقات بأكملها كما هو سائد فى أستراليا هو شكل بدائى منحط جدا من الزواج الجماعى بينما تعتبر العائلة البونالوانية أعلا صور الزواج الجماعى حسب ما نعرف ، ويظهر أن الشكل الأول هو الناتج عن الحالة الإجتماعية لدى المتوحشين غـــير المستقرين بينما تفترض العائلة البونالوانية نوعا من الإستقرار النسبى فى مجموعات مشاعيه وتتطور مباشرة إلى المرحلة التالية لها من التطور . ومن المؤكد أننا سنجد مراحـــل متوسطة بين هاتين المرحلتين وما زال مجال البحث مفتوحا أمامنا .

٣ — <u>العائلة المكونة من فردين</u> : ظهر شكل معين من أشكال العلاقة بين ذكر وأنثى فقط لفترة طويلة أو قصيرة فى ظل الزواج الجماعى وربما قبله ، فقد كانت للرجل زوجة رئيسية ضمن زوجاته العديدات ، وكان الرجل يعتبر زوجها الرئيسى بين غيره من الرجال . وعندما نمت القبيلة

وإزداد عدد طبقات الإخوة والأخوات الذين تحرم المعاشرة الجنسية بينهم ، إزداد إنتشـار هذا النوع من العلاقة بين إثنين فقط وأصبح هو القاعدة المتبعة تدريجيا . فعندما سارت القبيلة فى طريق منع الزواج بين الأقارب فى الدم إستمرت فى هذا الطريق ، ولذلك نجد بين قبائل الإيروكيوس الهندية الأمريكية ومعظم القبـائل الهندية الأخرى فى المرحلة الدنيا من البربرية ، نجد عند هذه القبائل أن قانونهم يحرم الزواج بين جميع الأقارب وهم أنواع تبلغ عدة مئات . وقد كان هذا الازدياد المستمر فى موانع الزواج سببا فى جعل الزواج الجماعى أكثر استحالة وهكذا إستبدل بالزواج بين إثنين فقط . وفى ظل هذا الزواج بين إثنين فقط [وهو يختلف عن الزواج بمعناه الحديث الذى نعرفه الآن ـــ كما سيأتى] كان الرجل يعيش مع امرأة واحدة ولـكن ظل من حقه تعدد الزوجات والخيانات الزوجية من وقت لآخر ، ولـكن الرجل كان نادرا ما يلجأ إلى تعدد الزوجات لأسباب إقتصادية ، وفى ظل هذا الزواج كان يفرض على المرأة الإخلاص التام طوال فترة عشرتها مع الرجل وكان الزنا يعرضها لأشـد عقاب . أما الرابطة الزوجية فكان يمكن لأى من الطرفين حلها بسهولة وكان الأطفال ينتسبون للأم كما كان الحال قبلا . وفى ظل هذا المنع المتزايد للأقارب فى الدم من الزواج كان الإختيـار الطبيعى ذا أثر . ويقول مورجان أن الزواج بين القبائل غير الأقارب فى الدم « كان يميل إلى خلق تكافؤ أقوى من الناحيتين الجسمانية والعقلية وكان الطفل الناتج عن هذا الزواج يجمع بين مزايا القبيلتين .

وعلى ذلك فإن تطور العائلة فى عهد ما قبـل التاريخ كان عبارة عن تضييق مستمر فى نطاقها الذى كان يضم فى الأصل الجماعة كلها فى جماعية جنسية بين الرجال والنساء . ثم أخذت موانع الزواج تزداد حتى أصبح

الزواج الجماعى مستحيلا من الناحية العملية ولم يبق إلا الزواج بين إثنين فقط وإن كانت رابطته مفككة . وقد كان للحب الجنسى الفردى أوالاختيار الطبيعى أثره هذا النوع من الزواج . ويزيدنا دليلا على ذلك الحياة العملية لكل الشعوب فى هذه المرحلة . وبينما كان الرجال فى ظل أنظمة الزواج السابقة غير محتاجين إلى النساء وكان لديهم مايزيد عن الحاجة منهم ، أصبح عدد النساء فى ظل هذا الزواج قليلا ، ونتيجة لذلك فقد كان بدء الزواج الفردى هو بدء الإغتصاب والعلاقات غير المشروعة فى الوقت نفسه ، كما بدأ إنتشار ستر العورة كطريقه صريحه لامتلاك النساء .

وقد إعتبر ميكلنان [ذلك الأسكتلندى المحافظ] ستر العورة طبقه من طبقات الزواج سماها « الزواج بالإغتصاب » أو « الزواج بالخطف » .

ولم يكن هذا النوع من الزواج عند الهنود الأمريكيين وغيرهم من عمل الزوج والزوجة ، أى لم يكن الحب الجنسى هو الدافع له فى أغلب الأحوال ولم يكن الزوج والزوجة يستشاران فى ذلك بل كانت أم الزوج وأم الزوجة تنظمان الزواج وتخطران العروسين قبل الزفاف بمدة قليلة . وكان على الزوج أن يقدم إلى أقارب عروسه قبل الزفاف هدايا تسمى هدايا خطف بالنسبة للفتاة المستسلمة . وكان يمكن حل الرابطة الزوجية برغبة أى من الطرفين . وقد أخذ شعور جماعى ينمو فى كثير من القبائل مثل الايروكيوس ضد حل الرابطة الزوجية فكانوا عندما تنشأ منازعات بين الزوجين يقوم أقاربهما من ناحية الأم بالتدخل للصلح بينهما ولا يتم الطلاق قبل أن تستنفد وسائل الإصلاح ، وفى هذه الحالة يظل الأولاد مع الأم وتعود لكل من الزوجين حريته فى الزواج من جديد .

ولما كانت العائلة المكونة من فردين ضعيفة وغير ثابتة لاتستطيع أن تقيم عشيرة مستقلة فإنهالم تستطع أن تكون سببا فى حل العشيرة الجماعيــة التى سبقتها فى الوجود . ولكن العشيرة الجماعية كانت تعنى سيادة النساء فى المنزل نتيجة الإنتساب للأم وكان ذلك يعنى مركزا ممتازاً للنساء فقد كانت النساء تشغل مركزا محترما وحراً لدى كل الشعوب فى عصر الوحشية والمرحلتين الدنيا والوسطى من البربرية وجزء من المرحلة العليا . ويقول آرثر رايت الذى كان يعمل مبشرا دينياً لمدة سنين طويلة بين قبائل الإيروكيوس أن وضع المرأه ظل محترما عندهم حتى فى ظل العائلة المكونة من إثنين ، وكانت نساء القبيلة المسيطرة تستولى على أزواج لها من القبائل المجاورة وكانت النساء هى التى تحكم المنزل ولم يكن للزوج أو الحبيب أى دور فى الأمر والنهى وقد كان ممكنا أن تأمره المرأة فى أى وقت بأن يحمل بطانية ويرحل فكان يمتثل للأمر فى ذلك بصرف النظر عن عدد الأولاد الذين له بالمنزل أو الأمتعة التى عنده ، وكان الرجل فى هذه الحالة يعود إلى قبيلته أو يتزوج من أخرى كما كان يحدث غالبا . وقد كانت النساء هى القوة العليا فى القبيلة وفى كل مكان آخر لدرجة أنه كان فى استطاعتها أن تنزع التاج من فوق رأس زعيم القبيلة وتعيده فردا عاديا . أما الأساس المادى لتلك المزايا التى حصلت عليها المرأة فهو أن البيت فى ذلك الوقت كانت أغلب النساء فيه إن لم يكن كلهن من سلالة واحدة أما الرجال فكانوا من عشائر مختلفة و يعتبر إكتشاف باتشوفن لذلك الخدمة الثالثة الكبرى التى أداها. وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أن تقارير الرحالة والمبشرين عن النساء عند القبائل التى تعيش فى المرحلة الوحشية والبربرية مليئة بمعلومات لاتتعارض مطلقامع ماسبق ذكره ، وأن تقسيم العمل بين الرجل والمرأة حددته أسباب مختلفة تماما عن الأسباب التى تحدد وضع النساء فى المجتمع ،

وأن الشعوب التى تؤدى نساؤها أعمالا أشق مما نتصور تكن للمرأة إحتراما أعمق مما يكنه الأوربيون لنسائهم، وأن الحالة الإجتماعية للمرأة فى عهد المدينة وهى المرأة المحاطة بالإحترام الزائف والمبعدة عن كل عمل حقيق لأحط كثيرا من حالة المرأة التى كانت تؤدى أشق الأعمال فى مرحلتى الوحشية والبربرية والتى كان قومها ينظرون إليها على أنها سيدة حقيقية بحكم طبيعة وضعها.

واما مسألة ما إذا كان الزواج بين إثنين قد حل محل الزواج الجماعى كلية أم لا فى أمريكا الآن(١) فيجب لتقرير ذلك مزيد من التحريات بين هنود الشمال الغربى وخصوصا هنود الجنوب الذين لا يزالون فى المرحلة العليا للوحشية. وتشير التقارير عنهم إلى أن لحظات الحرية الجنسية لديهم من الكثرة الشديدة لدرجة أنه لا يمكن إفتراض أن الموانع الكاملة موجودة أو أن كل مظاهر الزواج القديم قد إختفت. ونجد عند أربعين قبيلة على الأقل فى شمال أمريكا أن الرجل الذى يتزوج الأخت الكبرى فى عائلة يعتبر زوجا لباقى أخواتها بمجرد أن يبلغن سن الزواج، وتعتبر هذه الحالة إحدى الحالات الباقية من الزواج الجماعى (زواج مجموعة من الأزواج لمجموعة من الأخوات). ويذكر بانكرف أن قبائل شبه جزيرة كاليفورنيا (فى المرحلة العليا للوحشية) لديها نوع معين من الأعياد تتجمع أثناءها عدة قبائل بقصد ممارسة العلاقات الجنسية دون أى قيود، وتمثل هذه الأعياد بالنسبة لهذه القبائل الذكريات المظلمة للأوقات التى كانت فيها كل نساء القبيلة تملك كل رجال قبيلة أخرى فى زواج عمومى. وما زالت نفس العادة سارية فى

---

(١) القرن التاسع عشر (المترجم)

أستراليا . وفى شعوب قليلة يستغل الرجال الأكبر سنا والرؤساء ورجال الدين سلطتهم فى السطو على كل زوجات الآخرين ويحوزون معظم النساء على أن يسمحوا لهن بالعلاقات الجنسية الجماعية القديمة فى أثناء الأعياد العامة . ويضيف وسترمارك أن هناك مجموعة كبيرة من الأمثلة لتلك الأعياد الدورية التى تمارس خلالها العلاقات الجنسية الحرة القديمة لمدة قصيرة كما هو الحال عند الهوس والسانتالز والبانجاز والكوتار الهنود وكذلك عند بعض الشعوب الإفريقية . ويستنتج وسترمارك بحق أن ذلك ليس زواجا جماعيا وإنما تشابها بين الإنسان البدائى والحيوان فى موسم اللقاح .

ونصل الآن إلى الاكتشاف الرابع الكبير لباتشوفن ، وهو الانتشار الواسع النطاق للعائلة المكونة من اثنين على أنقاض الزواج الجماعى . فقد وجد باتشوفن حالة مترجمها على أنها عقاب لمخالفة التعليمات الإلهية وهذه الحالة هى حق المرأة فى الانسحاب من الزواج الجماعى ومنح نفسها لرجل واحد فقط ويعتبر باتشوفن أن ذلك كان يعتبر عقابا نظراً لأن استسلام المرأة أصبح محدودا . وهناك عادات مماثلة ذات بواعث دينية شائعة بين معظم الشعوب الآسيوية فى المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض والقرغيز ، فقد كانت نساء بابل ملزمات بالاستسلام مرة كل عام فى معبدميليتا ، وكانت شعوب الشرق الأوسط الأخرى ترسل بناتها لمدة سنوات إلى معبد أنايتس حيث يستطعن معاشرة من يخترن من الرجال قبل أن يسمح لهن بالزواج ، ويقول باتشوفن عن هذا التطور « أن العلاقات الجنسية الواسعة للنساء المتزوجات فى ظل الزواج الجماعى أعقبتها العلاقات الخاصة بغير المتزوجات ، وممارسة العلاقة الجنسية أثناء الزواج أعقبتها الممارسة قبل الزواج والاستسلام لكل رجل بلا تمييز

أعقبه الاستسلام لرجال معينين » وفى كثير من الشعوب نجد مثل هذه التعليمات الدينية معدومة ، وفى بعض الشعوب مثل التراسيانز والسلتس القدماء وكثير من السكان غير الأصليين بالهند والملايو وسكان جزر البحر الجنوبى وكثير من الهنود الأمريكيين حتى يومنا هذا تتمتع الفتاة لديهم بحرية جنسية كاملة حتى تتزوج ونفس الوضع نجده فى جنوب أمريكا . ويذكر أجاسز فى كتاب رحلة فى البرازيل الذى صدر سنة ١٨٨٦ أنه قدم إلى عائلة غنية من أصل هندى ولما تعرف بالفتاة سأل عن أبوها الذى كان يعتقد أنه متزوج من أمها فأجابته الأم مبتسمة « ليس لها أب أنها ابنة المصادفة » وهى الطريقة التى تتحدث بها النساء الهنديات أو المولدات عن الأطفال غير الشرعيين دون أى شعور بالخطأ أو الخجل .

وتعتبر هذه الحالة العادية فى تلك المناطق والعكس هو الاستثناء فالأطفال لا يعرفون غالبا سوى أمهاتهم وتقع مسئولية العناية بهم على الأم بل إن الأم وأولادها لا يعتقدون أن لهم أى حقوق على الأب ، وما يظهر هنا للإنسان المتمدن على أنه شىء غريب يعتبر هو القاعدة السائدة فى ظل نظام الانتساب للأم والزواج الجماعى .

ولدى شعوب أخرى يمارس أصدقاء الزوج وأقاربه أو ضيوف الزفاف حقهم التقليدى القديم فى ليلة الزفاف نفسها ثم يأتى دور الزوج آخرهم كما كان يحدث فى جزر البليارك ولدى الأوجيلاس الأفريقيين القدماء وكما يحدث إلى اليوم فى أبيسينيا . ولدى شعوب أخرى يقوم شخص رسمى هو الزعيم أو الأمير أو الكاهن بالنيابه عن العشيرة فى الليلة الأولى للعروس ، ورغم كل المعايير الخلقية مازال الحق فى الليلة الأولى قائما

ليومنا هذا بين معظم سكان ألاسكا الوطنيين(١) [كذكرى مقدسه من الزواج الجماعى] وبين التاهوس بشمال المكسيك ولدى شعوب أخرى .

وقد كان الحق فى الليلة الأولى مطبقا خلال العصور الوسطى فى بلاد الغال الأصلية [فرنسا] وقد تطور هذا الحق مباشرة من الزواج الجماعى فرغم أن الفلاح لم يكن معتبرا من رقيق الأرض فى مقاطعه كاستيل كان نظام رقيق الأرض مطبقا فى أبشع صورة فى مقاطعه أراجون حتى ألغى بالمرسوم الذى أصدره فرديناند الكاثوليكى سنة ١٤٨٦ وقد جاء بهذا المرسوم ، «إننا نطبق العدل ونعلن أن النبلاء والبارونات لن يناموا الليلة الأولى مع المرأة التى يتزوجها الفلاح كدليل على سلطتهم ، كما لن يحصل النبلاء والبارونات على خدمات الفلاحين دون رغبتهم سواء بمقابل أو بدونه» .

ويعتبر باتشوفن على حق عندما قال أن الإنتقال من الإباحية إلى الزواج بين إثنين قد تم عن طريق النساء ، فكلما كانت العلاقات الجنسية الجماعية القديمة تفقد طابعها البدائى نتيجة لتطور الظروف الإقتصادية للحياه وتحلل المشاعيه القديمة وإزدياد عدد السكان ، كلما كانت النساء تعتبر العلاقات الجماعية عملا مهينا منحطا وتسعى إلى الحصول على حقها فى الفضيلة والزواج المؤقت أو الدائم من رجل واحد فقط. وهذا التقدم لم يكن ممكنا أن يتم عن طريق الرجال إذ لم يحلم الرجال أبدا [حتى إلى يومنا هذا] بالتخلى عن متعة الزواج الجماعى ، ولما إضطر الرجال إلى

---

(١) بانكرفت ــ كتاب الأجناس الأصلين . جزء ١ ص٨١ . (المؤلف) .

الإنتقال من الإباحية إلى الزواج بين إثنين تمسكوا بتطبيق هذه العفه على المرأة وحدها طبعا .

وقد ظهرت العائلة المكونة من فردين فى الفترة بين عصرى الوحشية والبربرية وبالتحديد فى المرحلة العليا من الوحشية والمرحلة الدنيا من البربريه ، وتعتبر هذه العائلة هى الشكل العائلى الخاص بعصر البربريه كما يعتبر الزواج الجماعى هو الشكل العائلى الخاص بعصر الوحشية. ويعتبر الزواج بمعناه الحديث هو الشكل العائلى الخاص بعصر المدنية [وهو يختلف عن العائلة المكونة من فردين كما سيأتى] ، فإن التطور المستمر للعائلة المكونة من فردين إلى أن أصبحت زواجا بالمعنى الحديث يتطلب شروطا مختلفة عما رأيناه الآن .

ولو لم تظهر قوى إجتماعية دافعه جديدة إلى الوجود فى كل مرحلة من مراحل التطور لما كان هناك سبب لظهور شكل جديد من أشكال العائلة .

ولنترك الآن أمريكا ، الأرض الكلاسيكية للعائلة المكونة من فردين فليست هناك معلومات تؤكد أن شكلا أعلا للعائلة قد ظهر فى أمريكا . ولننتقل الآن إلى العالم القديم .

فى العالم القديم إتسع نطاق استئناس الحيوانات وإزداد عدد القطعان بطريقة جعلتها مصدراً غير متوقع للثروة مما سبب نمو علاقات إجتماعية جديده . فإلى المرحلة الدنيا من البربرية كانت الثروة تتكون كلية من المنزل والملابس ووسائل الإنتاج والآلات البدائيـــة كالقوارب والأسلحة والأوعية المنزلية البدائية . وكان الغذاء يتم جمعه جديداً يوما بيوم . أما عندما وجدت قطعان الماشية والخيل وغيرها فقد أصبح فى

إستطاعة الشعوب المتقدمة المسيطرة مثل الآريين فى الأرض الهندية ذات الأنهار الخمسة وأرض القرغيز ، ومثل الأوكس والجكارتس ، والجنس السامى عند نهر الفرات ودجلة ، أصبح فى إستطاعة هـــذه الشعوب أن تملك قطعان تتطلب رقابة وعناية حتى يزداد عددها وتستخرج منها الألبان واللحوم الوفيرة . واختفت كل الوسائل السابقة لإنتاج الطعام وحتى الصيد الذى كان فيما مضى ضرورة للحياه أصبح عندئذ هوايه .

ولكن من الذى كان يملك هذه الثروة الوفيرة ؟ كانت فى الأصل ملكا للقبيلة بلا شك ولكن يرجح أن الملكية الفردية نمت فى مرحلة مبكرة جداً . وفى الكتاب الأول لموسى نقرأ أن الأب إبراهيم قد ظهر لموسى كمالك لقطيع من الحيوانات يتصرف فيه بإعتباره زعيما لعشيرة وليس بإعتبار القطيع ملكا خاصا له . ومنذ بدء التاريخ المكتوب نجد أن القطعان الحيوانية تعتبر ملكا خاصا لزعيم العائلة مثلها فى ذلك مثل المنتجات الفنية فى عصر البربرية كالأدوات الحديدية وأدوات الصيد وأخيراً القطيع الآدمى من العبيد ، فقد كان نظام العبيد قد اخترع حينئذ .

وفى المرحلة الدنيا من البربرية كان العبد عديم الفائدة ولهذا السبب كان الهنود الأمريكيون يعاملون الأسرى معاملة تختلف تماما عن معاملة الأسرى فى المرحلة العليا من البربرية إذ كانوا إما أن يقتلوا الأسرى من الرجال وإما أن يتبنونهم كأخوة للقبيلة المنتصرة . وكانت الأسيرات من النساء إما أن يتزوجوهن وإما أن يتبنونهن مع أولادهن . ولم يكن هناك فى هذه المرحلة الدنيا من البربرية عدد كبير من العمال فائض عن الحاجة

كما حدث بعد ذلك . ولكن بإنتشار تربية القطعان الحيوانية وإستخدام المعادن ثم ظهور الزراعة ، تغير هذا الوضع كلية . فقد أصبحت الزوجة التى كان الحصول عليها سهلا فيما مضى ، أصبحت تشترى ويدفع فيها قيمة مقابلة . وحدث نفس الشيء مع القوة العاملة وخاصة بعد أن خرجت القطعان من ملكية القبيلة ودخلت فى ملكية الأسرة (كما سيأتى) ، إذ لم يزد عدد أفراد الأسرة بنفس السرعة التى زاد بها عدد الحيوانات المستأنسة فأصبحت هناك حاجة لمزيد من الأفراد للعناية بأمر القطعان وأصبح ممكنا أن يؤدى أسرى الحرب هذا الغرض بل أصبح فى الإمكان تربية أسرى الحرب كالقطيع نفسه .

وقد كانت هذه الثروات الجديدة المملوكة للعائلة سببا فى تحطيم المجتمع المؤسس على عائلات مكونة من فردين وقبائل منتسبة للأم ، فطبقا لتقسيم العمل الذى كان مطبقا فى العائلة كان انتاج الطعام من واجب الرجل ولذا كانت وسائل إنتاج الطعام مملوكة للرجل وكان يأخذها معه فى حالة الافتراق عن زوجته كما كانت الزوجة تأخذ أمتعة المنزل . ولهذا كان الرجل يملك القطيع بإعتباره المصدر الجديد للغذاء ، ثم أصبح الرجل أيضاً يملك العبيد بإعتبارهم الوسيلة الجديدة للعمل ، وطبقا لعادات المجتمع لم يكن أولاد الرجل يستطيعون وراثته لأن الوضع كان كما يأتى : —

حيث أن الإنتساب كان للأم فقد كان الأقارب من جهة الأم هم الذين يرثون من يموت من القبيلة حتى تبقى الملكية داخل القبيلة . وحيث أن أولاد الرجل لا ينتمون إلى قبيلته وإنما إلى قبيلة أمهم فقد كانوا لا يرثون أباهم .

ولذلك فعندما إزدادت الثروة الحيوانية الجديدة المملوكة للرجل

فقد أعطت الرجل وضعا أكثر أهمية فى العائلة من المرأة ، ومن ناحية أخرى أصبح الرجل يميل إلى توجيه النظام التقليدى للوراثة لمصلحة أولاده ، ولكن ذلك كان مستحيلا طالما ظل الإنتساب للأم مطبقا فكان على ذلك النظام أن يتغير حتى يستطيع الأب توريث أولاده ، وقد تغير هذا النظام فعلا ولم يكن من الصعوبة تغييره كما نتصور الآن لأن الرجل كان هو الأقوى فى العائلة ، وبذلك أصبح الإنتساب للأب هو السائد ، ومما سهل هذا التغيير أن هذه الثورة على الإنتساب للأم والتى تعتبر من إحدى التجارب الشديدة التأثير فى تاريخ الإنسان لم تكن تزعج أى عضو على قيد الحياة من القبيلة ، فكل أعضاء القبيلة كانوا يستطيعون البقاء على ما هم عليه وكان القرار الوحيد الكافى لإحداث هذه الثورة هو أن تظل سلالة الرجل مستقبلا فى القبيلة . ولا تخبرنا معلوماتنا عن كيف ومتى تم هذا التغيير فقد وقع كلية فى أوقات ما قبل التاريخ .

وقد جمع باتشوفن آثارا كثيرة تدل على حدوث هـــذا التغيير . ويمكن أن نشاهد بسهولة كيف جرى هـذا التغيير فى عدد من القبائل الهندية التى تم فيها هـذا التغيير حديثا وما زال مستمرا بسبب إزدياد الثروة وتغير طرق الحيـاة [الإنتقال من زراعة الغابات إلى زراعة البرارى] . وبسبب النفوذ الأدبى للمدنية والمبشرين الدينيين . فبين ثمانية من قبائل ولاية ميسورى بأمريكا نجد أن ستة منها تسير على قاعدة الإنتساب للأب وإثنان على قاعدة الإنتساب للأم . وعند الشاونيش قبائل ميامى والدلاورس أصبحت العـادة هى نقل الأولاد إلى قبيلة الأب بإعطائهم أحد أسماء أقارب الأب المقربين لـكى يرثوا منه . وقد قامت فى وجه هـــذا التغيير معارضة ولـكنها لم تجدى ولم تغير مجرى

الأمور ، « وهذا كله يظهر على أنه أكثر الإنتقالات طبيعية - ماركس » وقد كتب علماء القانون المقارن ومنهم ماكسيم كوفالفكى [كتاب الشكل الخارجى لأصل وتطور العائلة والملكية - ستوكهولم سنة ١٨٩٠] عن الطرق والوسائل التى تم بها هذا التغيير عند الشعوب المتمدنة فى العالم القديم ، ولكن هذه الكتابات إفتراضات فى معظمها .

وقد كان إنهاء الإنتساب للأم هو الهزيمة التاريخية العالمية للجنس المؤنث ، فقد سيطر الرجل على السلطة فى المنزل أيضا وإنخفض شأن المرأة وأصبحت عبده لشهوة الرجل وآلة لتربية الأطفال . ويظهر هذا الوضع المنحط للمرأة بصفة خاصة لدى الإغريق فى العصر البطولى والعصر الكلاسيكى ، ومع أن المرأة عندهم أخذت تدريجيا تتزين وتتأنق فى ثيابها إلا أن وضعها لم يتغير .

وكان الأثر الأول لإنفراد الرجل بالسلطة يظهر فى الشكل المتوسط للعائلة الذى يظهر الآن ، العائلة المنتسبة للأب ، فصفتها الرئيسية ليست تعدد الزوجات بل « تنظيم من عدد من الأشخاص الأحرار المرتبطين فى أسرة تحت سيادة رب الأسرة ، وعند الجنس السامى كان رب الأسرة مسموحا له بتعدد الزوجات ، وكان الغرض من هذه التنظيم العائلى كله العناية بتربية القطعان الحيوانية فى أرض محدودة » .

وتعتبر العائلة الرومانية المثل الدقيق لهذا الشكل من العائلة الذى يتميز بسيادة رب الأسرة ، ولم تكن كلمة « عائلة » عند الرومان تعنى فى الأصل المعنى الذى نعرفه الآن أى مزيج من العواطف والخلافات المنزلية ، بل لم تكن هذه الكلمة تشير فى الأصل عند الرومان إلى الزوجين وأولادهم ولكنها كانت تعنى العبيد فقط . فكلمة « famulus »

تعنى عبد الأسرة وكلمة « familia » كانت تعنى مجموعة العبيد المملوكة لفرد معين . وحتى فى أيام المشرع جايوس كانت كلمة « familia » تعنى الميراث الذى ينتقل بوصية . ثم إستعمل الرومان هذا التعبير « familia » لوصف تنظيم إجتماعى جديد يكون للرئيس فيه تحت سلطته زوجه وأبناء وعدد من العبيد ، وهذا التنظيم هو العائلة . وفى ظل السلطة الأبوية عند الرومان كان لرب الأسرة سلطة الحياة والموت على جميع من تحت إمرته » فكلمة الأسرة لذلك ليست أقدم من النظام العائلى عند القبائل اللاتينية الذى جاء بعد زراعة الحقول وشرعية الرق وبعد انفصال الإغريق اللاتينيين . ماركس » . ويضيف ماركس إلى ذلك « أن العائلة الحديثة تحتوى على ذرية من العبيد ومن رقيق الأرض لأنها مرتبطة منذ البداية بالعمل الزراعى . وتحتوى العائلة فى داخلها على كل الصراع الذى تطور بعد ذلك على نطاق أوسع فى المجتمع والدولة » .

وقد كان هذا الشكل من العائلة مرحلة الإنتقال من العائلة المكونة من فردين إلى الزواج الحديث ، ولكى يمكن ضمان إخلاص الزوجة وضمان أبوة الأطفال وضعت المرأة تحت السلطة المطلقة للرجل .

ومع ظهور العائلة المنتسبة للأب ندخل ميدان التاريخ المكتوب ، وهو الميدان الذى يقدم لنا فيه علم القانون المقارن مساعدة كبرى لمعرفة التطور العائلى ، وإننا ندين لماكسيم كوفالفسكى بحصولنا على الأدلة التى قدمها على أن الوحدة العائلية المنتسبة للأدب مثل التى نجدها الآن[1] عند الصربيين والبلغاريين تحت إسم « zadruga » أو « bratstvo » وتعنى

---

(١) القرن التاسع عشر . (المترجم)

شيئا كالأخوة ، وغير هذه من الوحدات العائلية الموجودة عند الشعوب الشرقية بشكل معدل ، هـذه الوحدات العائلية تعتبر مرحلة إنتقال بين العائلة المنتسبة للأم والتى نبعت من الزواج الجماعى وبين العائلة الفردية المعروفة العالم الحديث ، وهذا الوضع ثابت على الأقل بالنسبة للشعوب المتمدنة فى العالم القديم وهى الآرمنين والساميين .

وتعتبر الـ « zadruga » السلافيه الجنوبية أحسن مثل قائم لمثل هذه الوحدات العائلية . فهى تتضمن عدة أجيال من المنحدرين من أب واحد وزوجاته يعيشون معافى وحدة عائلية والأرض الزراعية مملوكة للجميع على المشاع وتأكل العائلة وتلبس من المخزن العام للعائلة ويعتبر الفائض عن حاجتهم فى المخزن مملوكا للجميع . ويدير الوحدة العائلية رب البيت المسمى « doméc.n » والذى يمثلها فى الأعمال الخارجيـة ويتصرف فى شئونها ويدير ماليتها ويعتبر مسئولا عنهـا . وينتخب رب البيت من بين أعضاء الأسرة وليس ضروريا أن يكون أكبرهم سنا . أما عمل النساء فتشرف عليه ربة البيت المسماه « domacica » وهى عادة زوجة الرئيس ، ويكون لها الكلمة العليا عند إختيار أزواج للفتيات . والسلطة العليا فى هــذه الوحدات العائلية مركزه فى مجلس العائلة وهو عبارة عن إجتماع لكل أعضائها البالغين عن الرجال والنساء ، ويقدم الرئيس لهذا المجلس حسابه ويقوم المجلس بإتخاذ القرارات الهامة وخاصة ماتعلق منها بالملكية العقارية كما يقوم بتطبيق العدالة بين أعضاء الأسرة .

وقد أمكن إثبات وجود مثل هـذه الوحدات العائلية فى روسيا حوالى سنة ١٨٧٥ . وقد اشتملت أقدم مجموعة قانونية فى روسيا وهى برافدا ياروسلاف على وصف قانونى لهذه الوحدات العائلية التى كانت تسمى « vew » مثـل إسمها فى قوانين رومانيا ، ويمكن وجود مراجع

لهذه الوحدات العائلية فى المصادر التاريخية البولندية والتشيكوسلوفاكية كذلك .

وقد ذكر هيوسلر [1] أن الوحدة الإقتصادية عند الألمان لم تكن الأسرة الفردية بالمعنى الحديث ولكن كانت «المجموعة المنزلية» المكونة من عدة أجيال أو عائلات فردية لها عدة رؤساء . وقد كانت العائلة الرومانية كذلك بهذا الشكل ونتيجة لذلك ظلت السلطة المطلقة لرأس الأسرة ونقصت حقوق باقى أعضاء الأسرة فى علاقتهم به . ويرجح أن وحدات عائلية مشابهة لذلك وجدت عند السلتس فى أيرلندا وفى فرنسا

إستمرت هذه الوحدات العائلية موجودة فى نيفرنايز تحت إسم « rarconreries » حتى قيام الثورة الفرنسية وفى منطقة لوهانز [الساؤون واللوار] نجد إلى الآن منازل للفلاحين واسعة ذات قاعات مركزية عالية محاطة بغرف نوم تسكنها عدة أجيال من أسرة واحدة . وقد ذكر نيارتشاس وجود مثل هذه الوحدات العائلية فى الهند أيام الإسكندر الأكبر ، ولا تزال هذه الوحدات موجوده إلى يومنا هذا فى البنجاب وكل الشمال الغربى للهند . وقد إستطاع كوفالفسكى أن يتحقق من وجود هذه الوحدات العائلية فى القوقاز . ولا تزال هذه الوحدات العائلية موجودة إلى اليوم فى الجزائر بين القبائل . وقد حاول زوريتا إثبات وجودها فى الـ calpullis » وهى الوحده العائلية عند الأزتك فى المكسيك القديمة . وأثبت كانو فى كتاب « in ausland » أن نوعا مماثلا من هذا التنظيم وجد فى بيرو عند اكتشافها .

وعلى أى حال فإن الوحدة العائلية المنتسبة للأب ذات الملكية الشائعة

---

(١) كتاب Institutes of german right . (المؤلف)

والزراعة الجماعية لها الآن معنى مختلفه تماما عن ذى قبل . ولا يمكن أن ننكر الدور الإنتقالى الهام الذى لعبته هذه الوحدات عند كثير من الشعوب المتمدنة فى العالم القديم فى الإنتقال من العائلية المنتسبة للأم إلى الزواج الحديث . وسنعود فيما بعد إلى النتيجة التى ساقها كوفالفسكى ومؤداها أن هذه الوحدات العائلية كانت مرحلة الإنتقال التى خرجت منها القرية كوحدة إجتماعيـة ، كما خرجت منها الزراعة الفردية التى كانت أول أمرها توزيعا دوريا للأرض بين الأفراد بالتناوب ثم أصبح التوزيع دائما .

وقد كان رؤساء هذه الوحدات العائلية فى روسيا يسيؤون استخدام سلطتهم مع النساء الشابات وخاصة زوجات أبنائهم الذين يحولوهن إلى حريم لهم ، وتنعكس هذه الأوضاع فى منتهى البلاغة فى الأغانى الشعبية الروسية .

وهناك بضع كلمات أخرى تعدد الزوجات وتعدد الأزواج نذكرها قبل أن نبحث العائلة الزوجية بالمعنى الحديث وهى العائلة التى تطورت سريعا وأعقبت إنتهاء العائلة المنتسبة للأم .

فلم يكن كل من تعدد الأزواج وتعدد الزوجات يطبقان إلا إستثناء بمثابة إنتاج تاريخى للترفية ، ومن الثابت أن أى منهما لم يصل إلى مرتبة التطبيق العام ، وقد كان الرق قديما هو سبب تعدد الزوجات الموجود حاليا . وعند الجنس السامى لم يكن تعدد الزوجات يسمح به (فى ظل العائلة المنتسبة للأب إلا للأب نفسه وإثنين من أبنائه على الأكثر وكان على

الآخرين أن يكتفوا بزوجة واحدة . وقد ظل الوضع إلى الآن [1] على ماهو عليه فى الشرق كله ، فتعدد الزوجات يعتبر من مميزات الأغنياء وذوى الألقاب ، وتجمع الزوجات أساسا عن طريق شراء الإماء ، أما جماهير الشعب فلها فى الغالب زوجة واحدة . وهناك إستثناء واحد لتعدد الأزواج موجود فى الهند والتبت وأصله من الزواج الجماعى ، ويظهر هذا النظام فى تطبيقه العملى أكثر سهولة من نظام الحريم الغيورات المطبق لدى المسلمين ، وفى ظل هذا النظام يكون الرجال فى مجموعات مكونة من ثلاثة أو أربعة رجال لهم زوجة واحدة شائعة فيما بينهم ولكل منهم الحق فى زوجة ثانية شائعة بينه وبين ثلاثة رجال آخرين ، وبنفس الطريق يستطيع الرجل الحصول على زوجة ثالثة وأربعة وهكذا . ومن الغريب أن ميكلنان الذى كتب عن هذا النظام لم يعتبر هذه النوادى الزوجية » طبقة جديدة من الزواج ، وقد كانت عضوية عدة نواد زوجية مفتوحة الرجل فى نفس الوقت ، ويلاحظ أن هذا النظام لايعتبر تعدد أزواج بالمعنى الصحيح بل شكل خاص من الزواج الجماعى يسمح للرجال فيه بتعدد الزوجات ويسمح للنساء بتعدد الأزواج كما ذكر جيرود تيلون .

٤ — العائلة الزوجية بالمعنى الحديث : تطور هذا النوع من العائلة كما سبق القول، تطور عن العائلة المكونة من فردين أثناء فترة الإنتقال من المرحلة الوسطى إلى المرحلة العليا للبربرية ، ويعتبر الإنتصار النهائى

---

(١) القرن التاسع عشر (المترجم)

للعائلة الزوجية الحديثة إحدى علامات بدء المدينة. وهذه العائلة مؤسسة على أساس سيادة الرجل وهدفها إنجاب أطفال غير مشكوك فى أبوتهم حتى يرثوا ثروة أبيهم، وتختلف هذه العائلة عن العائلة المكونة من فردين فى قوة الرابطة الزوجية التى لم تعد تحل فى الزواج الحديث بمجرد رغبة الطرفين. ولكن أصبحت القاعدة هى حق الرجل وحده فى حل الرابطة الزوجية. ومازال حق الرجل فى خيانة زوجته قائما من الناحية العملية على الأقل (وينص قانون نابليون على حق الرجل فى خيانة زوجته مادام لايحضر عشيقته إلى منزل الزوجية)، ولكن أصبحت الزوجة عرض لأشد عقاب إذا أقدمت على خيانة زوجها.

ونجد هذا الشكل الجديد من العائلة فى عنفوانه عند الإغريق. فقد إنحط شأن المرأة فى العصر البطولى نظرا لسلطة الرجل ومنافسة الإناث من العبيد لها. وقد إنعكس هذا الوضع فى الأدب الإغريقى الذى ظهر فى تلك الفترة، فنجد فى الأودسا[1] أن تلمافيوس يقتل أمه وينعم بالهدوء فوق جسدها، وكانت الأسيرات الشابات موضوع الرغبة العاطفية لدى المنتصرين فى أشعار هوميروس، ويدور كل موضوع الإلياذة[2] على الصراع بين أتيلز وأغا ممنون من أجل إمرأة من العبيد. وقد كان كل بطل من أبطال قصص هوميروس تذكر بجانبه أسيرة جميلة يشاركها البطل فى الخيمة والفراش ويصحبها إلى منزل الزوجية كما فعل أغا ممنون مع كاسا ندرا، ويعطى الأبناء الذين يولدون من تلك الأسيرات

(١) قصيدة هوميروس الشهيرة. (المترجم)

(٢) قصيدة هوميروس الشهيرة. (المترجم)

جزءاً صغيراً من أملاك والدهم ويعتبرون أحرارا ، وقد كان تيوكروس فى القصة إبنا غير شرعى لتيلامون وسمح له بأن يحمل إسم والده . وكان على الزوجة الشرعية أن تسمح بكل هذه الأوضاع وتخلص رغم ذلك لزوجها إخلاصا تاما . ورغم كل ذلك فقد كانت الزوجة فى العصر البطولى لدى الإغريق أكثر إحتراما منها فى عصر المدينة . وقد كان وجود الرق جنبا إلى جنب مع الزواج ، وجود إماء جميلات يملكهن الرجل هو الذى طبع الزواج الحديث منذ بدايته بطابع الإخلاص من جانب الزوجة والخيانة من جانب الرجل ، ومازال الرجل يحتفظ بهذا الطابع إلى اليوم .

أما الإغريق الذين جاءوا بعد ذلك فهناك فارق بين الدوريانيين والإيونيين . فالأولين الذين كانت إسبرطه هى المثل الكلاسيكى لهم كانت لديهم فى مجالات كثيرة علاقات زوجية أقدم مما كتب عنها هوميروس وقد كان فى إسبرطة نوع من الزواج الفردى — عدلته الدولة تمشيا مع الآراء السائده — يحمل كثيرا من خوص الزواج الجماعى . فكان الزواج الذى لا ينتج عنه أطفال يحل . وقد إتخذ الملك أنكساند ريداس (حوالى سنة ٦٥٠ ق . م) زوجة أخرى له بالإضافة إلى زوجته الأولى لأنها لم تنجب أطفالا . وأضاف الملك أرستوتس (نفس الفتره) زوجة ثالثة لزوجتيه الأولتين لأنهما كانتا عقيمتين ثم طلق إحداهما . ومن ناحية أخرى فقد كان يمكن لعدة إخوة أن يتخذوا زوجة مشتركة لهم وكان الشخص يستطيع مشاركة صديقه فى زوجته إن كانت له رغبة فى ذلك ، وكان فى بلوثارت مر ترسل له المرأة الإسبرطية الحبيب الذى يتتبعها

باهتمامه لكى يتباحث مع زوجها فى ذلك ، ويدل هذا كما قال تشومان على حرية جنسية كبرى . ولم يكن الزنا بمعناه الحقيقى أى خيانة الزوجة لزوجها دون علمه معروفا فى إسپرطه كما لم يكن الرق المنزلى معروفا أيام إزدهار إسپرطه وكان رقيق الأرض يعيشون منعزلين فى المزارع ولذلك كان ميل الإسپرطيين إلى معاشرة نسائهم قيلا . ولكل هذه الظروف تمتعت المرأة فى إسپرطه بمركز محترم عن كل نساء الإغريق الأخريات . وقد كانت النساء الإغريقيات والبغايا الأثينيات (وسيأتى ذكرهن) هن النساء الإغريقيات الوحيدات التى تكلم عنهن الأقدمون بإحترام ورأوا أن آثارهن جديرة بالتسجيل .

أما الايونيون فتعتبر أثينا المثل الصحيح لهم . وكان وضعهم يختلف تماما عن الاسپرطيين . فقد كانت فتياتهم تتعلم العزف على الآلة الموسيقية والحياكة والطهى وقليل من القراءة والكتابة . ولكنهم كن فى عزلة لا يختلطن إلا بالنساء ، وكان جناح النساء جزءاً منفصلا فى المنزل فى الدور الأعلى ولا يسمح للرجال وخاصة الأغراب بدخوله بسهولة . ولم يكن يسمح للمرأة بالخروج إلا فى صحبة إمرأة من العبيد ، ويقول أرستوفانز أنهم كانوا يحتفظون بكلاب الصيد لحراسة النساء وإخافة الرجال [كما كان سكان المدن الأسيوية يحتفظون بالخصيان لحراسة النساء ، وكان هؤلاء الخصيان يعدون للإتجار فيهم منذ وقت قديم مثل وقت هيرودوت ويقول واتشسميث أن هؤلاء الخصيان لم يكونوا من الزنوج فقط] . وقد إنعكس وضع المرأة أيضا فى الآداب التى ظهرت فى تلك الفترة ، ففى كتابات إيوريبيداس توصف المرأة على أنها شىء للإحتفاظ به فى المنزل ، وفيما عدا وظيفتها فى إنجاب الأطفال لم تكن تعنى بالنسبة للأثينى

سوى خادمة المنزل الرئيسية وكانت محرومة تماما من الإشتراك في الشئون العامة أو ممارسة الرياضة وزيادة على ذلك فقد كان للرجل في أغلب الحالات عبيد من النساء،وفي أيام إزدهار أثينا تفشى البغاء وكانت الدولة تشجعه أو على الأقل تتغاضى عنه .

وكان هـذا البغاء هو سبب علو مركز المرأة الاغريقية،فبإيحاء البغايا وذوقهم الفني عملوا على تقوية مركز المرأه عموما في هذا الوقت القديم وكان على المرأة أن تصبح بغيا أولا لكي تصبح زوجة ، وكان هـذا أخص خصائص العائلة الأثينية .

وبمرور الوقت أصبحت العائلة الأثنية المثل الذي اقتدى به كل الأيونيين بل كل الإغريق الأصليين والمقيمين بالمستعمرات ، ورغم كل العزلة والإحتجاب كان لدى النساء الإغريقيات الفرص الكافية لخيانة أزواجها ، وكان يخجل الرجل في ذلك الوقت أن يظهر أي حب لزوجته وكان يجد مع عشيقاته كل أنواع المتعة . وقد كان لانخفاض شأن المرأة الأثنية أثره المنعكس على الرجل ، فإنخفض شأن الرجال بدورهم حتى غرقوا في هاوية الشذوذ الجنسي مدنسين بذلك أنفسهم وآلهتهم على السواء .

وكان ما سبق هو أصل نظام الزواج الحديث على قدر ما نستطيع التحقق من آثاره بين معظم الشعوب المتمدنة في الزمن القديم . ولم يكن هذا الزواج ثمرة الحب الجنسي بأي حال من الأحوال ولم يكن للحب أي مظهر عام كما كان الحال قبلا . وقد كان هذا الزواج هو الشكل الأول للعائلة المبني على أسس إقتصادية وليست طبيعية ، وهـذه الأسس هي إنتصار الملكية الخاصة على الملكية الجماعية الأصلية التي نمت نموا طبيعيا

لحكم الرجل للعائلة ورغبته فى إنجاب أطفال موثوق من أبوتهم ليرثونه بعد موته ، كانت هى كل أسباب الزواج التى يعترف بها الاغريق ، وكان ذلك عبئا على بقية أفراد الأسرة وواجبا عليهـــم نحو الآلهة والدولة والأسلاف يجب أداؤه .

وقد وكان القانون فى أثينا يجعل الزواج إجباريا باعتباره وفاء من الرجل بالحد الأدنى لما يسمى بالواجبات الزوجية .

وعلى ذلك فإن الزواج لم يظهر فى التاريخ باعتباره توافقاً بين الرجل والمرأة بأى حال ، وعلى العكس فقد ظهر الزواج باعتباره خضوعا من جنس لجنس آخر ، فلم يكن التنازع بين الجنسين قد أعلن إلى اللحظة التاريخية التى ظهر فيها الزواج . وقد وجدت الآتى فى كتاب قديم من عمل ماركس وعملى سنة ١٨٤٦ (وهذا الكتاب واسمه الفكر الألمانى نشرت الترجمة الإنجليزية للجزء الأول والثالث فى نيويورك سنة ١٩٣٩) وقد وجدت فى هذا الكتاب ما يأتى : —

« إن التقسيم الأول للعمل هو تقسيمه بين الرجل والمرأة من أجل تربية الأطفال » . وأستطيع اليوم أن أضيف إلى ذلك أن أول صراع طبقى ظهر فى التاريخ كان مع الصراع بين الرجل والمرأة فى ظل الزواج وأن أول خضوع طبقى يتمشى مع خضوع المرأة للرجل فقد كان الزواج تقدما تاريخياً كبيراً ولكنه فى نفس الوقت ظهر مع ظهور الرق والملكية الخاصة ، ولذلك فإن هذا العصر (أى عصر الزواج) الذى يستمر إلى اليوم نجد كل تقدم فيه نعمة ونقمة وكل تحسن ونمو فى مجموعة يقابله بؤس وشقاء فى مجموعة أخرى ، ويعتبر هذا العصر هو الشكل المركب

للمجتمع المتمدن الذى نستطيع أن ندرس فيه طبيعة الصراع والتعارض الذى ينمو بقوة فى المجتمع المتمدن .

ولم تختف الحرية الجنسية القديمة بانتصار العائلة المكونة من فردين أو حتى بانتصار الزواج الحديث ، إن نظام العائلة القديم الذى اختصر إلى حدود ضيقة باختفاء المجموعات البونالوانية ظل يحيط بالعائلة المتقدمة فى طريقها إلى المدنية ، وكان ذلك فى شكل العلاقات غير الشرعية التى تخيم على العائلة كظل مظلم فى مرحلة المدنية » . ويعنى مورجان بالعلاقات غير الشرعية العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء غير المتزوجات بجانب الزواج . وقد ازدهرت هذه العلاقات غير الشرعية بأشكالها المختلفة فى ظل المدنية وما زالت تتطور فى ثبات إلى بغاء علنى . وتعود هذه العلاقات فى أصلها إلى الزواج الجماعى والاستسلام الفدائى للنساء التى باعت حقها فى العفة . وقد كان الاستسلام للمال أول الأمر عملا دينياً يجرى فى معبد آلهة الحب وكان المال يوضع فى صندوق المعبد. وقد كانت إماء معبد أناتيس فى أرمينيا وإماء معبد أفرودت فى كورنث. وفتيات الرقص الدينى الملحقات بالمعابد فى الهند ، كانت هؤلاء النساء أول البغايا . وقد كان هذا الاستسلام فى الأصل إجباريا لكل النساء فى ظل الزواج الجماعى ثم أصبحت تمارسه فى تضحية تلك الراهبات نيابة عن كل النساء . وتنبع العلاقات غير المشروعة عند الشعوب الأخرى من الحرية الجنسية المسموح بها للفتيات قبل الزواج والتى نبعت بدورها من الزواج الجماعى .وبظهور الفوارق فى الملكية الفردية (أى منذ المرحلة العليا للبربرية) يظهر العمل الأجير فى كل مكان مع الرق ويظهر

أحتراف النساء للبغاء فى نفس الوقت مع الاستسلام الإجبارى للأماء وعلى ذلك فقد كان الميراث الذى انتقل للمدنية عن طريق الزواج الجماعى نعمة ونقمة مثله فى ذلك مثل كل شيء ظهر فى المدينة ، فمن ناحية نجد الزواج ومن ناحية أخرى نجد العلاقات غير المشروعة وخاصة أبشع أشكالها وهو البغاء .

وتعتبر العلاقات غير المشروعة نظاما إجتماعيا شأنها فى ذلك شأن أى نظام آخر ، فهى إستمرار للحرية الجنسية القديمة لصالح الرجال الذين يمارسونها بأجسادهم ويلعنونها بأفواههم ، والحقيقة أن هذه اللعنة لا تمس الرجال وتقتصر على النساء لكى يؤكد الرجل مرة أخرى سيطرته على المرأة كقانون أساسى للمجتمع .

وهناك تعارض آخر ينمو داخل الزواج فبجانب الرجل الذى تمتلىء حياته بعلاقات غير شرعيه تقف الزوجة المهملة الشأن ، ومن المستحيل أن نأخذ جانبا واحدا من التعارض دون الجانب الآخر ، وعلى ذلك فعلينا أن نذكر أن هناك صورتان إجتماعيتان لم تكونا معروفتين قبلا حتى ظهر الزواج وهما عشيق الزوجة وزجها ، لقد إنتصر الرجال على النساء ولكن تتويج المنتصر بالعار قام به المهزوم فى شجاعة . فالزنا ممنوع ومعاقب عليه بشدة ولكنه أصبح نظاما إجتماعيا لا يمكن تجنبه بجانب الزواج والبغاء . وبذلك أصبحت أبوة الطفل المؤكدة مبنية كما كان الحال قبلا على مجرد الإقتناع الأدبى ، ولكى تحل المدنية هذا التعارض الذى لا يحل تنص المادة ٣١٢ من قانون نابليون على أن « الطفل الذى « يولد أثناء الزواج يعتبر إبنا للزوج » . وهذه هى الحصيلة النهائية لثلاثة آلاف سنة من الزواج .

وعلى ذلك فإن هذه الحالات الملازمه للزواج تنعكس فيها بأمانة أصولها التاريخية ويظهر بوضوح التنازع الحاد بين الرجل والمرأة الذى ينتج عن السيطرة المفرطة للرجل، ويعطينا هذا التنازع صورة مصغرة للتنازع والصراع فى المجتمع المقسم إلى طبقات منذ بدء المدنية دون أن يستطيع حل هذا التنازع أو القضاء عليه . وأنا أشير هنا بطبيعة الحال إلى حالات الزواج التى تسير فيها الحياة الزوجية طبقاً للقواعد التى تحكم الطابع الأصلى للنظام العائلى كله ، ولكن حيث تثور الزوجة ضد سيطرة الزوج (وهى حالات قليلة) يخبرنا الألمانى غير المثقف عن مدى هذه الثورة وهو الرجل الذى لم يعد مستطيعا أن يحكم بيته شأنه فى ذلك شأن وضعه فى الدولة ويعزى هذا الألمانى المسكين نفسه متخيلا الحالة المؤلمة التى يعيش فيها الرجل الفرنسى .

ولم تظهر العائلة الزوجية فى كل مكان بالشكل الكلاسيكى القاسى ظهرت به عند الإغريق . وقد كانت نظرة الرومان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم غزاة العالم المستقبلين ، كانت نظرتهم للعائلة أعمق من نظرة الإغريق فقد كانت المرأة عندهم أكثر حرية وإحتراما وكان الرومانى يعتقد أن إخلاص زوجته مضمون بسلطته عليها وحقه فى قتلها ، كما كان فى إستطاعة الزوجة والزوج حل الرابطة الزوجية بإرادة أى منهما .

ولكن أكبر تقدم ظهر فى نظام الزواج جاء مع دخول الألمان للتاريخ لأنه يبدو أن الزواج عندهم لم ينبع من العائلة المكونة من إثنين وربما كان ذلك راجعا لفقرهم ، ونستنتج ذلك من ثلاثة ظروف ذكرها تاسيتس :

أولا : بجانب إعتقادهم بقدسية الزواج « كان الرجل قانعا بزوجة

واحدة تعيش فى سياج من العفة . وكان تعدد الزوجات موجودا بالنسبة لأصحاب الألقاب ورؤساء القبائل فقط وهو وضع مشابه لوضع الهنود الأمريكيين الذين كانوا يعيشون فى ظل العائلة المكونة من فردين .

ثانيا : لم يطبق الإنتقال من العائلة المنتسبة للأم إلى العائلة المنتسبة للأب إلا فترة قصيرة ، فقد كان أخو الأم [وهو أقرب ذكر لها طبقا للإنتساب للأم] يعتبر أكثر قرابة للشخص من الأب نفسه مما يقودنا إلى موقف مماثل للهنود الأمريكيين الذين وجد ماركس عندهم المفتاح الذى يؤدى إلى فهم حياتنا فيما قبل التاريخ كما تعود ماركس أن يقول .

ثالثا : كان للنساء عند الألمان مركز ممتاز وكان لهن نفوذ فى الشئون العامة وهو ما يتعارض مع سيطرة الرجل فى الزواج . وفى كل ذلك يتفق الألمان مع الإسبرطيين .

وعلى ذلك فإن عنصرا جديدا إكتسب التفوق العالمى مع ظهور الإلمان ، فالزواج الذى نتج عن امتزاج الأجناس على حطام العالم الرومانى وسمح للنساء بأن تشغل مركزا ممتازا (على الأقل فى المظاهر الخارجية) ، كان هذا الزواج سببا فى تقدم أدبى كبير يأخذ مكانه فى الزواج ويسير فى خط متواز أو متعارض معه ، وهذا التقدم يسمى الحب الجنسى بين الأفراد وهو ما لم يكن معروفا فى العالم كله من قبل .

ومن المسلم به أن هذا التقدم ظهر فى ظل الظروف التى كان الألمان يعيشون فيها أثناء فترة العائلة المكونة من فردين . ولم يظهر هذا التقدم بأى حال من الأحوال نتيجة للتقاليد الخلقية الرائعة والعفة التى كان الألمان يتحلون بها بل ظهر نتيجة للظروف التى عاشوا فيها بدليل أن

الألمان « الفضلاء » أنفسهم عندما هاجروا إلى الجنوب الشرقى حيث رعاة الإستبس على البحر الأسود قاسوا إنحطاطا أدبيا كبيرا ولم ينقلوا عن هؤلاء الرعاة فروسيتهم بل نقلوا عنهم رذائلهم الخطيرة كما كانت حال قبائل الـ taifali الـ heruli .

ومع أن الزواج كان الشكل الوحيد للعائلة الذى كان يمكن أن يتطور منه الحب الجنسى فإن هـذا الحب أو حتى أغلبيته لم يتطور من الزواج وحده . فقد كانت طبيعة الزواج الصارمة فى ظل سيطرة الرجل تنفى حدوث ذلك . فبين كل الطبقات التاريخية الحاكمة ظل الزواج كما كان الحال فى ظل العائلة المكونة من فردين أى مسألة مصلحة أو ملاءمة ينظمها الوالدان. ولم يكن الشكل الأول للحب الجنسى الذى ظهر فى العصور الوسطى — حب الفرسان — لم يكن هذا الشكل حبا بين زوجين ، بل على العكس كان فى شكله الكلاسيكى عند هؤلاء الفرسان يتجه بكل قواه نحو الزنا ، وهو ما كان يتغنى به الشعراء . ومن الثمار الأدبية لهذا النوع من الحب أغانى الفجر albas الألمانية فقد كانت تصف بألوان فاقعة كيف ينام الفارس مع عشيقته وهى زوجه آخر فى حين يقف حارس فى الخارج ليناديه عند ظهور أول بوادر الفجر لكى يهرب دون أن يشعر به أحد ، ويمثل منظر الفراق فى هذه الأغانى قمة النشوة . وقد تبنى الفرنسيون الشماليون هذا الأسلوب من الشعر مع تقاليد حب الفرسان ، وعلى ضوء هذا الموضوع الإيحائى ترك لنا منشدنا القديم ولفرام فون إشنباخ ثلاثة أغانى رائعة .

وللزواج البورجوازى فى وقتنا الحالى نوعان ، فى البلاد الكاثوليكية يقدم الوالدان لبورجوازيهم الصغير الزوجة المناسبة، والنتيجة الطبيعية

لذلك ظهور أقصى التناقض الموروث فى الزواج وازدهار العلاقات غير الشرعية من جانب الزوج والزنا من جانب الزوجة . وقد منعت الكنيسة الكاثوليكية الطلاق لمجرد إقتناعها بأن ليس هناك علاج للزنا شأنه فى ذلك شأن الموت وفى البلاد البروتستنتية جرت العاده على السماح للإبن البورجوازى أن يختار زوجته بحرية على أن تكون من طبقته ، والنتيجة أنه يمكن فى تلك الحالات تأسيس الزواج على درجة معينة من الحب الذى نفترض وجوده تمشيا مع النفاق البروتستنتى ، ونجد فى هذه الحالات أن الزوج لا يسعى بنفس الحماس إلى العلاقات غير المشروعة كما لا يكون زنا الزوجة هو القاعدة ، وحيث أنه فى كل أنواع الزواج يبقى الناس كما كانوا قبل الزواج وحيث أن مواطنى البلاد البروتستنتية جهلة فى أغلبيتهم فإن هذا الزواج لا يؤدى فى أغلب الحالات إلا إلى حالة مستمرة من الملل يصفونها بالسعادة الزوجية . وأحسن إنعكاس لهذين النوعين من الزواج هو القصة الفرنسية بالنسبة للزواج الكاثوليكى والقصة الألمانية بالنسبة للزواج البروتستنتى ، وفى كلتا القصتين يقول الكتاب أن الزوج « يأخذها » ، فى القصة الألمانية يأخذ الزوج « الفتاة » وفى القصة الألمانية يأخذ الزوج « قرنى المخدوع » ، أما أى الإثنين هو الأسعد فهو مالا يسهل تقريره . ويثير جمود القصة الألمانية فى نفس الفرنسى نفس الإشمئزاز الذى يثيره إنحلال القصة الفرنسية فى نفس الألمانى ، وإن كانت القصة الألمانية قد بدأت تتجه إلى الجرأة فى الكلام عن الزنا والعلاقات المحرمة منذ أصبحت برلين عاصمة ألمانيا .

وفى كلا النوعين السابقين يتحدد الزواج بالوضع الطبقى للزوجين وإلى هذا الحد يظل الزواج زواج مصلحة ويتحول فى أغلب الحالات

إلى دعارة طائشة ، أحيانا من جانب الزوجين وغالباً من جانب الزوجة التي تختلف عن الغانية في أنها لا تؤجر جسدها بالقطعة مثل العامل الأجير كما تفعل الغانية وإنما تبيعه في عبودية بصفة دائمة . وإن كلمات فورييه لتنطبق بدقة على كل زواج مصلحي إذ يقول «كما أنه في القواعد اللغوية يعتبر نفيان إثباتاً ، فكذلك في القواعد الزوجية تعتبر دعارتان فضيلة». ويمكن للحب الجنسي في يومنا هذا أن يصبح القـــاعدة بين الطبقات المحكومة أي بين العمال ، فقد انعدمت بينهم أسس الزواج الـكلاسيكي ولم يعد يهمهم إن كانت العلاقة العاطفية رسمية أم لا ، فبين العمال تنعدم الملكية التي اخترع الزواج وسيطرة الرجل من أجل المحافظة عليها ووراثتها.

ولذلك لم يعد هناك دافع بين العمال لتأكيد سيطرة الرجل فضلا عن إنعدام وسائل السيطرة ويضاف إلى ذلك أنه منذ إتسعت رقعة الصناعة وإضطرت المرأة إلى الإنتقال من المنزل إلى السوق والمصنع أصبحت مورد رزق للعائلة ففقدت سيطرة الرجل أساسها وأصبح أساس الزواج هو العلاقات الشخصية ولم تبق إلا بعض القسوة في معاملة النساء وهي قسوة ورثها الرجل وإنطبعت في أعماقه منذ نشأ الزواج . وعلى ذلك فإن العائلة العمالية لم تعد عائلة زوجية بالمعنى الحرفي ولم يعد للزنا والعلاقاث المحرمة إلا دور بسيط فقد عاد للمرأة حق الطلاق ، وبإختصار فإن الزواج العمالي زواج بالمعنى اللغوي الدقيق للكلمة وليس بمعناها التاريخي بأي حال . ولـكي نؤكد ما نقوله نسوق ما يعتقده قضاتنا من أن التطور التشريعي الـكامل يمحو وجود أي سبب للشكوى من جانب المرأة ، فالنظم القانونية الحديثة تعترف أكثر فأكثر بأن الزواج يجب

أن يتم برغبة كلا الطرفين حتى يكون مثمرا ، وأن حقوق وواجبات الزوجين أثناء الزواج يجب أن تكون متساوية ، فإذا نفذ هذان الشرطان بدقه تكون المرأة قد حصلت على كل ماتريد .

ويطابق تفكير هؤلاء المشرعين تفكير الراديكاليين البورجوازيين الذى يستعبدون به العمال فالمفروض فى نظرهم أن عقد العمل هو عقد بين صاحب عمل وعامل بمحض إرادة الطرفين ويحاولون إيهامنا بأن العقد يتم فعلا بإرادة الطرفين لمجرد أن القانون ينص على ذلك . ولكن السلطة التى يملكها أحد هؤلاء الطرفين لاختلاف الوضع الطبقى والضغط الذى يفرض على الآخر ،كل هذا لايهم القانون ، والمفروض أيضا أن كلا الطرفين متساويان فى الحقوق والواجبات بشأن إستمرار عقد العمل إلى أن يرغب أحدالطرفين فى إنهائه ، أما كون الوضع الإقتصادى يضطر العامل إلى أن يتنازل حتى عن أبسط مظاهر المساواة فهو أيضا مالا دخل للقانون به .

وإن أكثر القوانين المنظمة للزواج تقدما يقنعها مجرد إعلان الطرفين رغبتهما الكاملة فى الزواج ، أما مايحدث خلف الستائر القانونية حيث تجرى الحياة الحقيقية وكيف ينفذ هذا الإتفاق الإختيارى فهو مالا يخص القانون أو القاضى ، وإن أبسط مقارنة بين القوانين يجب أن تظهر للقاضى حقيقة هذه الرغبة الإختيارية . فى البلاد التى يضمن القانون فيها للأولاد أن يرثوا آباءهم مثل ألمانيا والإمبراطورية الفرنسية يجب على الأولاد أن يحصلوا على موافقة آبائهم فى مسائل الزواج ، وفى البلاد الخاضعة للحكم الإنجليزى حيث لايتعين الحصول على موافقة الآباء نجد للوالدين الحرية المطلقة فى الإيصاء بثرواتهم بعد الموت لمن يشاؤون

ويمكنهم إذا أرادوا حرمان أولادهم من الميراث ، وعلى ذلك فني الطبقات التي يجد أبناؤها مايرثون عن آبائهم نجد أن حرية الزواج فى إنجلترا ليس بأفضل منها فى فرنسا .

وليس الوضع بأفضل من ذلك إذا نظرنا إلى المساواة القانونية بين الرجل والمرأة فى الزواج . فعدم المساواة بين الإثنين أمام القانون هو شيء سببته الظروف الإجتماعية السابقة وليس هو سبب السيطرة الإقتصادية على النساء بل نتيجة هذه السيطرة . فنى العائلة المشاعية القديمة التى كانت تضم عدة أزواج وأولادهم ، كانت إدارة المنزل موكولة إلى النساء على أنها وظيفه عامة حتمية مثل حتمية قيام الرجل بالحصول على الطعام . وقد تغير هذا الوضع مع ظهور العائلة المنتسبة للأب وازداد تغيرا مع ظهور العائلة الزوجية الحديثة فقد فقدت إدارة المنزل طابعها العام ولم تعد تهم المجتمع وأصبحت خدمة خاصة وأصبحت الزوجة خادمة المنزل الأولى وحرمت من المساهمة فى الإنتاج الاجتماعى. ولم تعد المرأة إلى المساهمة فى الانتاج إلا مع ظهور الصناعة الحديثة ولكن بطريقة تجعلها حينما تؤدى واجباتها العائلية تظل مبعدة عن الإنتاج وحينما تريد المساهمة فى الانتاج وكسب معاشها فى إستقلال تكون فى وضع لا يمكنها من أداء واجباتها العائلية ، وماينطبق على المرأة فى المصنع ينطبق عليها فى كل حرفة حتى الطب والقانون . فالعائلة الزوجية الحديثة مؤسسة على العبودية المنزلية الظاهرة أو المستترة المرأة ، والمجتمع الحديث ماهو إلا كتلة مكونة من عائلات فردية بمثابة جزيئاته .

وعلى الرجل فى أغلب الحالات حديثاً أن يكون كاسب العيش لأسرته وهذا يعطيه وضعاً مسيطراً دون حاجة لامتيازات قانونية . وإذا

ما انتقلنا إلى عالم الصناعة نجد الطابع الخاص بالخضوع الاقتصادى الذى يحط من شأن العامل يظهر بكل حدته بعد إلغاء المزايا القانونية الخاصة بالطبقة الرأسمالية وتطبيق المساواة الإسمية الكاملة بين جميع الطبقات ، فإن الجمهورية الديموقراطية لاتلغى الصراع بين الطبقتين بل تعد لهما الميدان الذى تتصارعان فيه . ومما لاشك فيه أن ذلك الوضع الشاذ وهو سيطرة الرجل على المرأة سيختفى تمـــاما بدخول المرأة كلية إلى ميدان الإنتاج الاجتماعى فعندئذ ستنتفى الدوافع التى كانت سبباً فى سيطرة الرجل .

* * *

مما سبق يتضح أن لدينا ثلاثة أشكال رئيسية للزواج تمثل المراحل الرئيسية الثلاث للتطور الإنسانى ، فبالنسبة للمرحلة الوحشية كان الزواج الجماعى هو الشكل السائد وبالنسبة للمرحلة البربرية كانت العائلة المكونة من اثنين هى الشكل السائد وبالنسبة للمدنية كانت العائلة الزوجية الحديثة هى الشكل السائد ويكملها فى هذه المرحلة الزنا والبغاء . وفى المرحلة العليا للبربرية كانت هناك العلاقة التى يمارسها الرجال مع العبيد من النساء كما كان هناك تعدد الزوجات .

وكما يتضح من العرض السابق نلاحظ أن التقدم الملحوظ فى هـذا المجال مختلط مع حقيقة غريبة مؤداها أنها بينما تحرم النساء أكثر فأكثر من الحرية الجنسية لايعانى الرجال هذا الحرمان ، فما زال الزواج الجماعى إلى اليوم موجودا بالنسبة للرجال من الناحية العملية ، وما يعـد اليوم جريمة بالنسبة للمرأة تترتب عليهـا آثار قانونية وإجتماعية خطيرة يعد بالنسبة للرجل شيئاً مشرفا أو على الأكثر سقطة خلقية بسيطة يتحمل آثارها فى سرور . وبقدر ماتعدلت العلاقات القـديمة غير المشروعة فى

أيامنا هذه بسبب مستلزمات الصناعة الحـــديثة ، وبقدر ماتتحول هذه العلاقات إلى بغاء علنى ، بقدر ماتنهار المعايير الخلقية وخاصة بين الرجال، ونعتقد أن تلك التعيسات اللاتى يتردين فى هاوية البغاء من أجل لقمـة العيش لسن بالانحطاط الذى يظنه المجتمع .

ونقترب الآن من تغيير اجتماعى تختفى فيه أسس الزواج الاقتصادية القائمة إلى الآن كما يختفى البغاء . فقد ظهر الزواج مع ظهور قدر معين من الثروة فى يد شخص واحد هو الرجل ومع رغبة هذا الرجل فى توريث الثروة لأبنائه ، وكان الزواج ضروريا لأداء هـذا الغرض من جانب المرأة وليس من جانب الرجل بدليل أن زواج المرأة من رجل واحد لم يمنع تعـدد الزوجات العلنى أو الخفى بالنسبة للرجل . أما التغيير الاجتماعى المقبل فسيحول الجزء الأكبر من الثروة المتوارثة إلى الملكية الاجتماعية وسيكون ذلك سبباً فى تخفيض كل القلق من أجل الميراث . وحيث أن الزواج قد ظهر نتيجة أسباب اقتصادية ، فهل يختفى الزواج باختفاء تلك الأسباب ؟

لا يجب أبداً أن نقول ذلك ، فبدلا من الاختفاء سيبدأ الزواج تماما فى أن يتحقق لأنه بتحويل وسائل الإنتاج إلى ملكية اجتماعية سيختفى العمل الأجير وستختفى باختفائه ضرورة وجود عدد معين من النساء يبعن جسدهن المال أى سيختفى البغاء ، وبدلا من اختفاء الزواج سيصبح أخيراً حقيقة ناصعـة حتى بالنسبة للرجال . ولذلك فإن وضع الرجل سيعتريه تغير ملحوظ وكذلك وضع المرأة ، وستظل العائلة هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع وستصبح إدارة المنزل عملا اجتماعياً مرة أخرى وستصبح تربية الأطفال أمرا يهم المجتمع الذى سيعنى حينئذ بكل الأطفال

بصرف النظر عما إذا كانوا شرعيين أو غير شرعيين ، كما أن الخوف من « النتائج » الذى يعتبر اليوم أهم دافع خلقى واقتصادى يمنع الفتاة أن تمنح نفسها للرجل الذى تحبه ، هذا الخوف سيختفى . ولكن ألن يكون، ذلك كافياً للتوسع التدريجى فى العلاقات الجنسية ونمو رأى عام أكثر تساهلا فيما يتعلق بعذرية الفتاة وخجل المرأة ؟ وهل يستطيع البغاء أن يختفى دون أن يأخذ معه الزواج ؟

نعتقد أن العكس هو الصحيح فهناك عامل جديد ظهر إلى الوجود وهو كفيل بحفظ الروابط الاجتماعية وهذا العامل هو الحب الجنسى بين الأفراد .

ولم يظهر ما يسمى بالحب الجنسى قبل العصور الوسطى . فإن الجمال وتشابه العواطف والصداقة الوطيدة أظهرت الرغبة فى الدخول فى علاقات جنسية مع أشخاص معينين ، ولم يعد الرجل أو النساء غير مكترثين بمسألة مع من يدخلون فى تلك العلاقات الوثيقة ، ولكن كل ذلك كان بعيدا عن الحب الجنسى فى أيامنا هذه فقد كان أطراف الزواج فى العصور الوسطى يقبلان الزواج الذى كان ينظمه الوالدان فى هدوء ولم يكن الحب الزوجى القليل المعروف لدى الأقدمين عاطفة بأى حال بل كان واجبا خارجيا ولم يكن سببا للزواج بل نتيجة له . ولم يكن الرعاة الذين تغنى ثيوكريتس وموسكى بأفراحهم وعواطفهم ، لم يكن هؤلاء الرعاة أحرارا بل كانوا عبيدا لا نصيب لهم فى الدولة وبذلك لم يكن الحب من صفات المواطن الحر ، وكانت أمور الحب لدى المواطنين الأحرار قاصرة على عواطف النساء الذين يعيشون خلف حوائط المجتمع وغانيات أثينا عندما بدأ نجمها فى الأفول وغانيات روما أيام الأباطرة ، وكان

كل الحب الذى ظهر بين المواطنين الأحرار يتخذ شكل الزنا . ولم يكن الحب الجنسى بمعناه الحالى مادة لشعر الحب الـكلاسيكى عند الأقدمين ففى أشعار أناكريون لم يكن حتى جنس الشخص المحبوب موضع أهمية .

ويختلف الحب الجنسى الحالى إختلافا ماديا عن الرغبة الجنسية التى كانت هدف الأقدمين فهو يفترض حبا متبادلا من جانب الطرف الآخر بينما كانت موافقة المرأة لدى الأقدمين غير مهمة إطلاقا ، كما يتطلب الحب الجنسى الحديث درجة من الرقى ورغبة فى الدوام قد تدفع الطرفين إلى الإقدام على مخاطرات قد تصل إلى درجة المخاطرة بالحياة وهو مالم يكن يحدث عند الأقدمين إلا فى حالات الزنا ، كما يتطلب الحب الحديث مستوى خلقيا جديدا لحكم العلاقات الجنسية .

وبذلك يصبح أهم سؤال هو ما إذا كانت العلاقة الجنسية مبنية على حب أم لا بصرف النظر عما إذا كانت العلاقة مشروعة من عدمه .

وعندما بدأ الأقدمون يتجهون إلى الحب الجنسى بدأت العصور الوسطى وكان الحب حينئذ عبارة عن علاقات غير شرعية ، وقد وصفنا فيما سبق حب الفرسان الذى كان يظهر فى أغانى الفجر ، وما زالت هناك ثغرة واسعة بين هذا النوع من الحب الذى كان يهدف إلى تحطيم الزواج وبين الحب الذى يهدف إلى أن يكون أساس الزواج . ولم يكن الألمان القدماء بأفضل من اللاتينيين العابثين من حيث نظرتهم للحب ، وقد إنعكس ذلك بصدق فى آدابهم ففى رواية « Nibebungenlied » نقرأ أن كرايمهيلد كانت تحب سيجفريد بنفس القوة التى كان يحبها بها ولما أخبرها أبوها بأنه وعد فارسا بأن يزوجها إياه أجابت ببساطة « ليست بك حاجة لسؤالى فكما تأمر سأكون إلى الأبد ، وهذا الذى اخترته أنت ياسيدى ليكون زوجى سأمنحه

إخلاصى » ، ولم يظهر لكرايمهيلد أبدا أن حبا يمكن أن تكون له قيمة فى هذا الشأن . وكانت عروس الأمير عند الألمان يختارها له والداه فإن لم يكونا على قيد الحياة اختارها بنفسه مع مجلس النبلاء ، وبالنسبة للفارس أو البارون كما هو الحال بالنسبة للأمير نفسه يعتبر الزواج عملا سياسيا وفرصة للحصول على السلطة عن طريق عقد محالفات جديدة وتعتبر المصلحة العامة هى العامل الحاسم بصرف النظر عن العواطف الشخصية ولذلك لم يكن ممكنا للحب أن يكون أساس الزواج .

وقد كان هذا هو نفس الحال بالنسبة للرجل العادى من سكان المدن فى العصور الوسطى ، والميزة الوحيدة التى كانت تحميه [مواثيق النقابات بشروطها الخاصة والحدود الصناعية بين المناطق وهى الحدود التى كانت تفصله عن النقابات الأخرى] هذه الميزة كانت تقتصر على تضييق الدائرة التى كان الرجل يستطيع أن يبحث فيها عن شريكة حياته ، ومع ذلك فقد كانت هذه الشريكة تختار طبقا لمصلحة العائلة وليس طبقا للعواطف الفردية فى ظل هذا النظام المعقد .

وإلى نهاية العصور الوسطى ظل الزواج فى أغلبية الحالات عملا لا يقرره الطرفان الرئيسيان فيه .

من كل ما سبق يتضح أن الإنسان كان فى البداية يولد متزوجا من كل مجموعة الجنس الآخر ، ومن المحتمل أن علاقات خاصة قد نشأت فى الشكل الأخير من الزواج الجماعى مع تضييق مستمر فى نطاق الجماعة .

وفى مرحلة العائلة المكونة من فردين كانت القاعدة هى قيام الأمهات بتنظيم زواج الأولاد ، وكانت تراعى مسألة إنشاء روابط جديدة لتقوية مركز الزوجين فى القبيلة . وعندما حلت الملكية الفردية

محل الملكية الجماعية وظهرت المصلحة فى الميراث ظهرت العائلة المنتسبة للأب ثم ظهر الزواج الحديث فأصبح الزواج مؤسسا على إعتبارات إقتصادية أكثر من أى وقت مضى ، ومع أن الزواج بالشراء قد إختفى فقد إتجه المجتمع الجديد بدرجة متزايدة إلى تقدير المرأة والرجل على السواء بما يملكان وليس بشخصيتهما ، ولم تعد لفكرة العواطف المتبادلة أى حساب فى الحيـاة العملية للطبقات الحاكمة ولم تجد هذه العواطف لها مجالا إلا فى قصص الفروسية وبين الطبقات المحكومة التى لا يحسب لها حساب .

وقد ظل الوضع على ماهو عليه فى ظل المجتمع الرأسمالى ،عندما بدأت الإكتشافات الجغرافية وبدأت الرأسمالية تغزو العالم عن طريق الصناعة والتجارة . وقد يظن المرء أن الزواج الحديث كان الشكل العائلى الذى يناسب المجتمع الرأسمالى [وكم يتهكم التـاريخ فى سخرية من هذا الظن] ، ولكن الإنتاج الرأسمالى حول كل الأشياء إلى سلع تباع وتشترى فتحللت بذلك كل العلاقات التقليدية وحـل البيع والشراء محل التقاليد الموروثة وأصبح « التعـاقد الحر » أساس المجتمع . وقد ظن القانونى الإنجليزى h. s. maine أنه توصل إلى إكتشاف عبقرى حين قال « إن كل التقدم الذى أحرزه المجتمع الحالى إذا قارناه بالأزمنة القديمة يتلخص فى أننـا خرجنا من الأوضاع القديمة إلى العقد ومن حالة موروثة فى الحياة العملية إلى حالة يتعاقد الناس عليها إختياريا » . ولكن العبقرى الإنجليزى نسى أن عقد العقود يفترض فى النـاس أنهم يتصرفون فى أنفسهم وأعمالهم وأموالهم فى حرية ، ويلاقون بعضهم بعضا فى ظروف متساوية كما كانت الرأسمالية تتشدق دائما بأن هدفها هو خلق مثل هؤلاء الأحرار المتساوين . ومع أن هـذه المساواة حدثت فى البداية بطريق نصف واعية فى شكل

دينى فرغم ذلك نجد أنه منذ حركة لوثر وكالفن الإصلاحية أصبح من المبادىء الثابتة مسئولية الإنسان الكاملة عن عمله إذا كانت لديه الحرية الكاملة وقت إظهار إرادته. ولكن كيف يتفق ذلك مع التطبيق السابق للزواج؟ طبقا للتفكير البورجوازى يعتبر الزواج عقدا لأنه يتصرف فى جسد وعقل شخصين مدى الحياة، ومن الصحيح من الناحية الشكلية أن المساومة على العقد كانت تجرى بإختيار الطرفين وليس دون موافقتهما، أما كيف كانت تتم هذه الموافقة ومن هو الذى كان ينظم الزواج حقيقة فمعروف جيدا.

ولكن إذا كانت الحرية الحقيقية مطلوبة فى كل العقود الأخرى فلماذا لا توجد فى عقد الزواج؟ أليس للشابين الذين على وشك الزواج الحق فى التصرف بحرية فى أنفسهما؟ ألم يصبح الحب الجنسى هو الموضة نتيجة لعهد الفروسية؟ ألم يكن حب الزوج والزوجة هو الشكل البورجوازى لحب الفروسية بدلا من حب الفرسان المدنس بالزنا؟ وإذا كان من واجب الزوجين أن يحبا بعضهما أليس من واجب الحبيبين أن يتزوجا بعضهما وليس أى إنسان آخر؟ أليس حق هؤلاء المحبين أقوى من حق الوالدين والأقارب وغيرهم من سماسرة الزواج؟ وإذا كان الإختيار الحر قد أخذ طريقة غير مكترث بالكنيسة أو العقيدة فكيف وقف عند إعتراض الجيل الأكبر وإدعاءه حق التصرف فى جسد وروح وسعادة وشقاء وملكية الجيل الأصغر؟.

ظهرت هذه الأسئلة فى فترة تفككت فيها كل الروابط الإجتماعية القديمة وإصطدمت فيها أسس كل الأفكار التقليدية. فبضربه واحدة ازداد حجم العالم إلى عشرة أمثاله[1]. وبدلا من ثمن بسيط من الكرة

(١) يعنى المؤلف بذلك الإكتشافات الجغرافية. (المترجم).

الأرضية كانت تشغله أوربا أصبحت السبعة أثمان الأخرى مفتوحة أمامها . وإختفت الحدود التى فرضها الإقطاع فى العصور الوسطى بنفس الطريقة التى إختفت بها الحدود الضيقة القديمة للوطن . وفتح الأفق المتسع عيون الرجال فى الداخل والخارج ، وإجتذبت أثرياء الهند ومناجم الذهب والفضة فى المكسيك المغامرين من كل أنحاء أوربا ، فقد كانت الفترة هى فترة المغامرات الفروسية البورجوازية وكانت لها قصصها البطولية وأحلامها العاطفية ولكن على أساس بورجوازى .

وقد كان ظهور البورجوازية (الرأسمالية) وخاصة فى البلدان البروتستنتية الناميه سبباً فى إزدياد حرية التعاقد فى الزواج ولكنه ظل زواجا طبقيا ، ولكن فى حدود الطبقة كان لطرفى الزواج درجة معينة من حرية الإختيار على الورق وفى النظريات الخلقية والأوصاف الشعرية فقط . وبإختصار فقد أعلن الزواج على أساس الحب كحق إنسانى للرجل وبطريق الإستثناء للمرأة وأصبح الزواج المؤسس على غير الحب عملا غير خلقى من الناحية النظرية .

وهناك ناحية يختلف فيها هذا الحق الإنسانى عن باقى مايسمى بالحقوق الانسانية . فبينما ظلت حقوق الانسان من الناحية العملية قاصرة على الطبقة الحاكمة أى البورجوازية ، كانت الطبقة المحكومة أى الطبقة العاملة المحرومة عمليا من هذه الحقوق تجد التهكم التاريخى يؤكد نفسه مرة أخرى ، إذ بينما يظل الزواج لدى الطبقة الحاكمة مبنيا على أسس إقتصادية فى أغلب الحالات يكون الزواج الاختيارى هو القاعدة لدى الطبقة المحكومة ، ولن يصبح الزواج إختياريا إطلاقا قبل إلغاء الانتاج الرأسمالى وعلاقات الملكية المبنية عليه حتى تزول كل الاعتبارات الاقتصادية التى ما زالت تمارس نفوذا قويا فى مسألة إختيار شريك الحياة وعندئذ

لن يكون للزواج دافع سوى التبادل العاطفى . وحيث أن الحب الجنسى مانع للخيانة بطبيعته (ولو أن هـذا المنع لا يتحقق الآن إلا بالنسبة للمرأة) فسيكون الزواج المبنى على الحب الجنسى زواجا صحيحا بطبيعته كذلك . وقد رأينا إلى أى حد كان باتشوفن صادقا عندما قال أن الإنتقال من الزواج الجماعى إلى العائلة المكونة من فردين كان أساسا من عمل المرأة وأن التقدم من العائلة المكونة من فردين إلى العائلة الزوجية الحديثة تم لحساب الرجل وتلخص هذا التقدم من الناحية التاريخية فى تسوىء مركز المرأة وتسهيل الخيانة للرجل .

وعندما تختفى الإعتبارات الاقتصادية التى اضطرت النساء إلى قبول خيانة الرجل ، وعندما تساهم المرأة فى الحياة الاجتماعية فينتهى بذلك قلقها بشأن كسب عيشها ومستقبل أولادها ، عندئذ ستصبح رغبة الرجل فى الزواج أكثر من رغبة المرأة فى تعدد الأزواج وستصبح المرأة مساوية حقا للرجل .

وكذلك ستختفى من الزواج الصفات التى طبعت فيه نتيجة ظهوره من علاقات الملكية وهذه الصفات هى أساسا سيطرة الرجل وعدم قابلية الزواج للحل . وقد كانت سيطرة الرجل فى الزواج نتيجة سيطرته الإقتصادية ولذلك فإنها ستختفى آليا باختفائها . وقد كان عدم قابلية الزواج للحل نتيجة هذه الظروف الإقتصادية ونتيجة التقاليد التى نشأت منذ الوقت الذى كانت فيه العلاقة بين هذه الظروف الإقتصادية والزواج غير مفهومه على الوجه الصحيح وبولغ فيها بسبب الدين . واليوم أصبح الحال غير الحال ، وإذا كان الزواج المبنى على الحب يعتبر زواجا أخلاقيا فإن الزواج الذى يستمر فيه الحب هو الزواج الأخلاقى بحق ، وحيث

أن دوام حيوية الحب الجنسي يختلف باختلاف الأفراد وخاصة الرجال فإن زوال الحب يجعل الطلاق نعمة لاشك فيها للزوجين والمجتمع على السواء .

وعلى ذلك فإن مانستطيع استنتاجه حاليا عن تنظيم العلاقات الجنسية بعد تصفية علاقات الإنتاج الرأسمالى يعتبر إستنتاجا ذا طابع سلبي يحدد ما سيختفى من الزواج . ولكن ما الذى سيزيد على الزواج ؟ هذا هو ما سيستقر بعد نمو جيل جديد ، جيل من الرجال لم تسنح له الفرص أبدا لشراء إستسلام إمرأة سواء بالمال أو بأى وسيلة أخرى من وسائل السيطرة الإجتماعية ، وجيل من نساء لم يضطررن أبدا للإستسلام لأى رجل لأى سبب سوى الحب الحقيق ، ولن تخاف المرأة حينئذ أن تمنح نفسها لمن تحب خشية النتائج الإجتماعية، وعندما يظهر مثل هذا الجيل فإنه لن يهتم أبدا بما نعتقد اليوم أنه يجب عليه عمله ، فسيتبع طريقة الخاص وسيكون له رأيه الخاص به دون أى اكتراث بما نعتقد .

ولنعد الآن لمورجان ، فإن الأبحاث التاريخية للنظم الإجتماعية التى ظهرت أثناء عصر المدنية لا يشتمل عليها كتابة ، فلم يعن مورجان إلا بمصير الزواج خلال هذه المرحلة . وقد نظر مورجان إلى نمو العائلة الزوجية الحديثة باعتباره تقدما واقترابا من المساواه التامة بين الجنسين، ولم يلاحظ أن هذه الغاية قد تحققت فعلا .

ويقول مورجان « عندما تواجهنا حقيقة أن العائلة قد مرت خلال أربع أشكال متتابعة وهى الآن فى الشكل الخامس يواجهنا فورا سؤال عما إذا كان هذا الشكل سيدوم فى المستقبل . والجواب الوحيد على ذلك هو أن هذا الشكل يجب أن يتقدم بتقدم المجتمع ويتغير بتغيره كما حدث

فى الماضى فإن الزواج نظام خلقه النظام الإجتماعى ولذلك فهو يعكس صورته . وحيث أن العائلة الزوجية الحديثة قد تقدمت تقدما كبيرا منذ بدء المدنية وخاصة فى العصر الحديث فمن المفروض أنها قادرة على مزيد من التقدم حتى تتحق المساواة بين الجنسين ، وإذا فشلت العائلة الزوجية مستقبلا فى تحقيق مطالب المجتمع فمن المستحيل أن تتنبأ بطبيعة العائلة التى ستخلفها » .

الفصل الثالث

السلالة « gens » الإيروكيوسية

ونأتى الآن إلى اكتشاف آخر لمورجان يوازى فى أهميـة إعادة تنظيم الشكل البدائى للعائلة من داخل نظم علاقات الدم . وقد أثبتت الدراسة التى قام بها مورجان أن السلالة وروابط الدم فى القبيلة الأمريكية الهندية وفروع القبيلة التى تسمى بأسماء الحيونات ، تماثل تماما تنظيم السلالة عند الإغريق والرومان ، وقد أثبتت هذه الدراسة أن السلالة الأمريكية كانت الشكل الأصلى للسلالات ، وقد أوضحت هذه الدراسة أكثر أجزاء التاريخ الإغريقى والرومانى صعوبة كما ألقت ضوءا على المميزات الأسياسـية للنظام الإجتماعى فى الفترات البدائية قبل ظهور الدولة ، وقد يظن المرء عندما يقرأ هذا الإكتشـاف أنه غاية فى البساطة ولكن مورجان لم يتوصل إليه إلا منـذ وقت قريب جدا ، وفى كتابة السابق الذى صدر سنة ١٨٧١ لم يكن قد كشف بعد هذا السر .

وتعنى الكلمة اللاتينيه « gens » التى استخدمها مورجان كتعريف عام لعنـاصر القرابة فى الدم ، هذه الكلمـة تماثل شبيهتها الإغريقية « genos » المشتق من الأصل الآرى العـام « gan » وتعنى الإخراج

إلى الوجود أو التسلسل ، وتشبه هذه الكلمة اللفظ السنسكريتى [1] . « janas » والكلمة الألمانية القديمة « kuni » والكلمة الأنجلو سكونية « kyn » والكلمة الإنجليزية « kin » والكلمة الألمانية « künne » ، وتعنى كل هذه الكلمات القرابة أو السلالة عموما ؛ وتعنى عند اللاتينيين والاغريق عناصر قرابة الدم التى تكون سلالة عامة من المنحدرين من أصل مذكر مشترك وتمتزج معا فى وحدة خاصة فى ظل نظم إجتماعية ودينية . وقد ظلت طبيعة السلالة غير واضحة لكل مؤرخينا حتى اكتشفها مورجان ، وقد رأينا فيما سبق عند الكلام عن العائلة البونالوانية كيف تكونت السلالة فى شكلها الأصلى ، فقد كانت تتركب فى الأصل من كل الأشخاص الذين ينحدرون من أنثى معينة هى مؤسسة السلالة طبقا للزواج البونالوانى .

فلما كانت الأبوة غير مؤكدة فى العائلة البونالوانية فقد كانت القاعدة هى الانتساب للأم ، وحيث أن الأخوة لا يتزوجون أخواتهم فى هذا الشكل من العائلة بل يتزوجون نساء سلالة مختلفة فقد كان أولادهم يعتبرون خارج السلالة لانتسابهم لأمهاتهم ؛ فماذا يكون مصير هذه المجموعة المرتبطة برباط الدم عندما تصبح مجموعة مستقلة ضمن مجموعات مماثلة فى القبيلة ؟

ويعتبر مورجان السلالة الإيروكيوسية [والايروكيوس هم قبائل من الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية كما سبق] وخاصة فى قبيلة السينيكا هى الشكل الكلاسيكى للسلالة الأصلية ، فلديهم ثمانية فروع فى القبيلة مسماة

---

(١) السنسكريتية هى اللغة الهندية القديمة . (المترجم)

بأسماء الحيوانات التالية : (١) الذئب (٢) الدب (٣) السلحفاه (٤) كلب البحر (٥) الغزال (٦) طائر البكاش (٧) مالك الحزين (٨) الصقر .

وتسير كل سلالة على النظام التالى :

(١) تنتخب كل سلالة زعيمها وقت السلم وقائدها الحربى ، ويجب أن يختار الزعيم السلمى من السلالة نفسها وكان مركزه وراثياً فى السلالة بمعنى أنه كان يجب ملء هذا المنصب بمجرد فراغه . أما القائد الحربى فكان يمكن إختياره من خارج السلالة ويمكن أن يظل منصبه شاغراً أحيانا . ولم يكن إبن الزعيم السابق يختار أبدا للزعامة حيث أن الايروكيوس يسيرون على قاعدة الانتساب للأم وبذلك ينتمى إبن الزعيم لسلالة أخرى وكان الأخ أو إبن الأخت هو الذى يختار غالباً للزعامة .

وكان الرجال والنساء على السواء يدلون بأصواتهم فى الانتخاب . وكان يجب أن توافق الفروع السبعة الأخرى فى القبيلة على إختيار زعيم كل سلالة وعندئذ فقط يحتفل رسميا بتثبيت الزعيم المنتخب فى منصبه . ويجب كذلك أن يقر المجلس العام لاتحاد الايروكيوس [وسيأتى ذكره] هذا الانتخاب . وقد كانت سلطة الزعيم فى السلالة ذات طابع أبوى محض فلم تكن تحت يده أية وسيلة من وسائل الارغام . وكان بحكم منصبه عضوا بالمجلس القبلى للسينيكاس وكذلك مجلس الاتحاد العام للإيروكيوس . وكانت سلطة القائد الحربى قاصرة على المسائل العسكرية .

(٢) تستطيع السلالة عزل الزعيم والقائد الحربى بإرادة الرجال

والنساء على السواء ويصبح الشخص المعزول فردا عاديا كغيره. ويستطيع مجلس القبيلة عزل الزعيم حتى رغم إرادة السلالة.

(٣) ليس لأى شخص الحق فى أن يتزوج من سلالته ، وهذه هى القاعدة الأساسية فى السلالة وهى التعبير السلبى عن قرابة الدم الايجابية التى تتكون السلالة بفضل إشتراك الأفراد فى هذه القرابة .

وباكتشاف هذه الحقيقة البسيطة اكتشف مورجان للمرة الأولى طبيعه السلالة ، وقد كانت المعلومات عنها قليلة جدا حتى هذا الاكتشاف كما يتضح ذلك من التقارير التى كانت موجودة عن عصرى الوحشية والبربرية فقد كانت هذه التقارير تصف الفروع المختلفة المكونة للتنظيم الاجتماعى على أنها عشيرة أو قبيلة دون تمييز . وكانت هذه التقارير الخاطئة هى سبب الحيرة اليائسة التى تردى فيها ميكلنان. فأخذ يخلق أنظمة من عنده كما لو كان نابليون وقال فى سذاجة أن كل القبائل مقسمة إلى فروع يمنع الزواج داخلها وفروع لايمنع ، وبعد أن خلط الأمور بهذه الطريقة أخذ يخوض فى أعمق التحريات لمعرفة أى النوعين من الفروع هو الأقدم فى ظهوره . وقد انتهى هذا الهراء باكتشاف مورجان لحقيقة السلالة ، ولاتخضع قاعدة منع الزواج داخل السلالة لدى الايروكيوس لأى استثناء .

(٤) توزع الممتلكات العقارية للموتى بين كل الأعضاء الباقين من السلالة ، وكان باقى الميراث يقسم بين أقرب الأقارب أى بين الإخوة والأخوات والخال بالنسبة للرجل ، وبين الأولاد والأخوات بالنسبة للمرأة ، ونظرا للإنتساب للأم فقد كان مستحيلا أن يرث الرجل من

زوجته أو العكس كذلك كان مستحيلا أن يرث الأولاد من أبيهم فقد كان على ممتلكات الموتى أن تبقى فى السلالة .

(٥) كان على أعضاء السلالة أن يتبادلوا المعونة والحماية وخاصة الانتقام من الأغراب إذا اعتدوا على أحدهم ، وكان الفرد يعتمد على حماية السلالة له فقد كانت أى إساءة إليه تعتبر إساءة للسلالة كلها . ونظرا لروابط الدم فى السلالة نشأ التزام الانتقام للدم وهو التزام مقدس لدى الايروكيوس ، فإذا قتل شخص من خارج السلالة أحد أفرادها كان على السلالة كلها أن تنتقم للدم فكانت تجرى محاولة أولى للسلام بأن ينعقد مجلس سلالة القاتل ويعرض الصلح على مجلس سلالة القتيل ويتم هذا الصلح بتقديم الاعتذارات والهدايا القيمة فإذا لم تقبل سلالة القتيل ذلك عينت فرداً أو أكثر لتتبع القاتل وقتله ، وإذا حدث ذلك اعتبر الموضوع منتهياً وليس لأحد حق الشكوى .

(٦) للسلالة أسماء محددة أو مجموعات من الأسماء تنادى بها هى وحدها دون باقى القبيلة وعلى ذلك فإن إسم الفرد يدل على سلالته ، ويعطى حمل الشخص لاسم السلالة كل الحقوق التى تتمتع بها .

(٧) تستطيع السلالة أن تتبنى الأغراب فيندمجون بذلك فى القبيلة كلها . وكانت قبيلة السينيكا تتبنى أسرى الحرب الذين لم يقتلوا ، عن طريق إحدى سلالاتها فكان الأسرى يحصلون بذلك على كل حقوق القبيلة والقرابة . وكان الرجال يعتبرون الأجنبى المتبنى أخا أو أختا وتعتبره النساء إبنا أو بنتا . ولتأكيد التبنى كان من الضرورى إجراء إحتفال للقبول فى السلالة . وقد كان يحدث أحيانا أن تقوم سلالة بتبنى فروع

كاملة من القبيلة أو القبائل الأخرى عندما تكون هذه الفروع قليلة العدد. وقد كان احتفال التبنى لدى الإيروكيوس يجرى فى إجتماع عام لمجلس القبيلة الذى كان يحوله إلى إحتفال دينى .

(٨) وكان لكل فرع من الفروع الهندية حفلاته الدينية الخاصة به . وكان لدى الايروكيوس ستة حفلات دينية فى السنة يقوم فيها الزعيم والقائد العسكرى بوظائف كهنوتية باعتبارهم من «حراس العقيدة» .

(٩) ولكل سلالة مقبرة عامة [وقد اختفت المقبره العامة للإيروكيوس باكتساح البيض لولاية نيويورك] وما زالت المقابر العامة موجودة لدى باقى القبائل الهندية مثل التوسكاروراس وهى قبيلة تنتمى إلى الإيروكيوس بصلة قرابة وثيقة ، ورغم أن الإيروكيوس مسيحيون الآن فمازالوا يحتفظون فى مقابرهم بقسم خاص لكل سلالة ، وعند وفاة أحد يقوم كل أعضاء السلالة بالبكاء وترتيبات الجناز .

(١٠) وللسلالة مجلس يعتبر الجمعية الديموقراطية لكل الذكور والإناث البالغين فى السلالة مع تساويهم فى الأصوات . ويقوم هذا المجلس بانتخاب وعزل الزعيم والقائد العسكرى و «حراس العقيدة» أى الكهنة ، ويبت فى مسائل هدايا التعويض والانتقام للدم وتبنى الغرباء ونحوها . وباختصار كان المجلس هو السلطة العليا فى السلالة .

هذه هى الخصائص المميزة للسلالة الهندية عموما . «فقد كان كل أعضاء السلالة لدى الإيروكيوس أحرارا متساوين يدافع كل منهم عن حرية الآخر ولم يكن لزعمائهم أى امتياز وكان الكل مرتبطين برباط الأخوة والقرابة فى الدم ، وكانت الحرية والأخاء والمساواة هى المبادىء الأساسية فى السلالة رغم أنه لم ينص عليها أبدا .وكانت السلالة هى خلية

النظام الإجتماعى والأساس الذى بنى عليه المجتمع الهندى . وقد كانت معانى الاستقلال والكرامة هى الصفة العامة للطباع الهندية » .

وقد كان الهنود فى كل أمريكا الشمالية عند اكتشافها منتظمين فى فروع طبقا لقاعدة الانتساب للأم ، وقد انحط شأن الفروع فى قبائل قليلة مثل الداكوتاس . وفى قبائل أخرى مثل الأوجيبواس والأوماهاس كانت القاعدة هى انتساب الفروع للأب .

وقد وجد مورجان لدى كثير من القبائل الهندية المقسمة إلى خمسة أو ست فروع ، وجد أن ثلاثة أو أربعة من هذه الفروع موحدة فى مجموعة خاصة داخل القبيلة سماها مورجان الأخوّة . وقد وجد مورجان لدى السينيكاس أخوّتان تضم الأولى الفروع الأربع الأولى السابق ذكرها [وهى الذئب والدب والسلحفاة وكلب البحر] وتضم الثانية الفروع الأربع الثانية [وهى الغزال وطائر البكاش ومالك الحزين والصقر] وتظهر التحريات الدقيقة أن هذه الأخوّات هى الفروع الأصلية التى تكونت منها القبيلة فى البداية ، فنظرا لمنع الزواج داخل السلالة كانت كل قبيلة تتكون حتما من فرعين الأقل لكى تستطيع الاستقلال فى وجودها بالتزاوج بين هذين الفرعين . ولما زاد عدد أفراد القبيلة انقسمت كل سلالة إلى فرعين أو أكثر يظهر كل منهما كسلالة مستقلة بينما تعيش السلالة الأصلية التى تضم كل الفروع على هيئة أخوّة . وتعبر الفروع المنضمة لإحدى الأخوّات لدى السينيكاس إخوة فيما بينهم بينما تعتبر الفروع الأخرى أبناء عمومة ، وهى تفرقة ذات معنى حقيقى معبر فى نظام علاقات الدم الأمريكى كما رأينا .

ولم يكن أى فرد لدى السينيكاس يستطيع فى الأصل أن يتزوج من

داخل الأخوة التابع لها ثم اقتصر المنع على سلالة الشخص وحدها . وقد كان لدى السينيكاس تقليد يعتبر « الدب » و « الغزال » هما الفرعين الأصليين تفرعت منهما الفروع الأخرى . وعندما استقر هذا التنظيم الجديد كان يعدل حسب الحاجة للمحافظة على التوازن فكانوا ينقلون فروعا بأكملها من إحدى الأخوات إلى الأخوة الأخرى التى انقرضت فروعها ، وهذا يفسر لنا السبب فى وجود فروع تحمل أسماء مشتركة فى القبائل الهندية المختلفة .

وكانت الأخوة لدى الإيروكيوس ذات وظائف دينية واجتماعية وهى :

(١) كانت مباريات الكرة تنظم بين الأخوات المختلفة وتقدم كل منها أحسن لاعبيها بينما يظل باقى الأفراد متفرجين يجرون المراهنات على الفائز .

(٢) كان زعيم كل أخوة وقائدها الحربى يجتمعون فى مجلس القبيلة ويجلس الزعماء فى صف والقادة الحربيون فى صف مواجه لهم . ويعتبر ممثلو كل أخوة ذوو كيان مستقل .

(٣) إذا ارتكبت جريمة قتل فى القبيلة ولم يكن القتيل والقاتل ينتميان لنفس الأخوة ، كانت سلالة المجنى عليه تنادى الفروع المشتركة معها فى الأخوة ويعقدون مجلسا ويطلبون إلى الأخوة الأخرى عقد مجلس لتسوية الموضوع ، وتعتبر كل الأخوة يدا واحدة فى النزاع .

(٤) عند وفاة الأشخاص ذوى الأهمية فى أخوة معينة كانت الأخوة الأخرى هى التى تقوم بترتيبات الجنائز والبكاء وغيره ،

بينما تكتفى أخوّة الميت بالبكاء ، وإذا مات زعيم إحدى الآخوات تقوم الأخرى بإخطار المجلس الإتحادى للإيروكيوس بخلو منصبه .

(٥) وعند انتخاب زعماء الفروع لابد من موافقة مجلس الأخوة على هذا الإنتخاب فإذا اعترض أصبح الإنتخاب لاغياً ، ولا تهم موافقة الأخوات الأخرى فى القبيلة .

(٦) وفيما مضى كان الإيروكيوس طقوس دينية خاصة كان البيض يسمونها « بيوت الطب » وكان لدى السينيكاس جماعتين دينيتين تمثل كل منهما إحدى إخوتيهما وتتوليان الاحتفال بهذه الطقوس وكان يجرى دوريا تعميد أعضاء جدد فى هاتين الجماعتين .

(٧) وعند إكتشاف أمريكا كانت هناك أربع أخوّات تشغل أركان تلاسكالا الأربعة ، ومن المؤكد أن هذه الأخوات الأربع كانت كل منهما وحدة عسكرية مستقلة كما كان الحال عند الاغريق والألمان ، فقد اشتركت هذه الوحدات الأربع فى المعركة ضد البيض كل منها كوحدة منفصلة لها زيها الخاص وعلمها وقائدها .وكما كانت عدة فروع تكون أخوة فكذلك كانت عـــدة أخوات تكون قبيلة فى الشكل الكلاسيكى . وفى حالات كثيرة لا توجد الحلقة الوسطى أى الأخوة عند القبائل التى تزداد ضعفا .

أما الخصائص المميزة للقبيلة الهندية فى أمريكا فهى : —

(١) إقليم خاص بالقبيلة واسم خاص بها . وبالاضافة إلى الاقليم الذى كانت تستقر عليه القبيلة كانت تسيطر على إقليم واسع للصيد البرى وصيد الأسماك وبجانب ذلك كانت هناك مساحة محايدة بين كل قبيلتين

وكانت هذه المساحة صغيرة إذا كانت لغتا القبيلتين متقاربتان وكبيرة إذا لم تكونا كذلك . (وتشبه هذه الأرض المحايدة «غابة الحدود» التى كانت عند الألمان وهى الأرض المحايدة التى عينها ممثل القيصر بينهم وبين السلاف) . وكانت القبيلة تدافع عن إقليمها ضد أى عدوان ولم تكن هناك علامات دقيقة للحدود مما كان سبب المنازعات المستمرة خاصة عندما يزداد عدد السكان . ويظهر أن الأسماء القبلية كانت نتيجة المصادفة أكثر من الاختيار ، وكان يحدث أحيانا أن تنادى القبائل المجاورة إحدى القبائل بغير أسمها الحقيقى ، مثال ذلك فى التاريخ ما حدث للألمان فقد كان إسمهم الأول فى التاريخ « die deutscher » ثم أطلق عليهم السلتس إسم « germani » .

(٢) كان لكل قبيلة لهجة كلامية خاصة بها . وكان انقسام القبيلة إلى قبائل جديدة ولهجات جديدة يسير قدما فى أمريكا حتى وقت قريب ولم ينته إلى الآن[1] . وكان يحدث أحيانا أن تندمج قبيلتان ضعيفتان معا فى قبيلة واحدة فيكون فى القبيلة فى هذه الحالة لهجتان بصفة استثنائية .

ويقل عدد القبيلة فى أمريكا عن ألفين فى المتوسط . ويعتبر الشيروكيس ويبلغ عددهم ستة وعشرون ألفا ، أكبر عدد من الهنود يتكلم نفس اللهجة فى الولايات المتحدة .

(٣) كان لكل قبيلة الحق فى الموافقة على الزعيم أو القائد العسكرى الذى تنتخبه الفروع .

---

(١) أواخر القرن التاسع عشر (المترجم)

(٤) وكان لها أيضا حق عزل الزعيم أو القائد حتى رغم إرادة الفروع ؛ فحيث أن هؤلاء الزعماء والقادة أعضاء فى مجلس القبيلة فيعتبر ذلك سبب هذا الحق للقبيلة عليهم . وعندما كان يوجد إتحاد للقبائل تمثل فيه كل قبيلة فى المجلس الإتحادى إنتقلت هذه الحقوق إلى المجلس الاتحادى .

(٥) لكل قبيلة أفكارها الدينية المشتركة وطقوسها . . « وقد أصبح الهنود الأمريكيون شعبا متدينا بناء على الموضة التى سادت الشعوب فى عصر البربرية » . ولم يقم أحد بدراسة أفكارهم الدينية دراسة دقيقة إلى الآن ، وكل معلوماتنا عن هذه الأفكار هى إيمانهم بالأرواح من كل نوع ولم تكن تماثيل الآلهة أو الأصنام قد عرفت عندهم بعد إذ كانوا لا يزالون فى المرحلة الدنيا للبربرية ، وكانوا يؤمنون بتعدد الآلهة . وقد كان لكل قبيلة احتفالاتها الدينية الخاصة بها وخصوصا حفلات الرقص والمباريات. وقد كان الرقص بصفة خاصة جزءا أساسيا فى كل الحفلات الدينية لدى الهنود .

(٦) كان هناك مجلس قبلى للشئون العامة يتكون من زعماء الفروع المختلفة وقوادها الحربيين . وكان المجلس يعقد علنا ويحيط به باقى أعضاء القبيلة الذين كان لهم حق الإشتراك فى المناقشات وعرض آرائهم على أن يتخذ المجلس القرار . وكان من حق أى شخص من الموجودين مخاطبة المجلس وحتى النساء كنّ يستطعن عرض آرائهنّ عن طريق رجل يتكلم بإسمهنّ يقمن باختياره . وكان على كل فرد من الإيروكيوس أن يقبل قرار المجلس دون اعتراض [كما كان الحال فى وحدات

المارك الألمانية] وكان تنظيم العلاقات مع القبائل الأخرى من أهم واجبات المجلس ، وكان يرسل السفارات إلى القبائل الأخرى ويستقبل سفاراتها ويعلن الحرب ويعقد الصلح . وعندما كانت الحرب تشتعل كان المحاربون من المتطوعين . وكانت كل قبيلة تعتبر من حيث المبدأ فى حالة حرب مع القبائل الأخرى التى لم يعقد معها ميثاق سلام. وكانت الحملات الحربية ضد مثل هؤلاء الأعداء تنظم فى معظمها عن طريق عدد قليل من المحاربين الممتازين وكان التنظيم يتم بأن تقام رقصة الحرب ومن يشترك فى هذه الرقصة يعتبر متطوعا فى الحملة ، ثم تنظم على الفور حملة عسكرية وترحل الحملة دون تأخير ، وعندما كان عدو يهاجم إقليم القبيلة كان الدفاع عنه ينظم بنفس الطريق بواسطة المتطوعين. وكان رحيل الحملات العسكرية وعودتها من مناسبات الحفلات العامة . ولم يكن إذن المجلس القبلى ضروريا لتنظيم الحملات الحربية فقد كانت مثل الحملات الحربية الخاصة للنبلاء الألمان كما وصفها تاسيتس مع وجود فارق واحد هو أنه عند الألمان كانت مجموعة النبلاء قد اتخذت طابعا دائما وكونت وحدة منظمة فى أوقات السلم التفت حولها فرق المتطوعين لتكون معدة وقت الحرب . وكان يندر أن تكون الحملات الحربية كبيرة العدد أو قوية . وعندما كانت عدة فرق من هذه الحملات تتجمع لغرض هام كانت كل فرقة تطيع قائدها الخاص وحده ، وكان توحيد خطة المجتمعين يتم عن طريق مجلس من القادة . وكانت هذه هى نفس طريقة الحرب التى اتبعها الألمان فى حوض الرين الأعلا فى القرن الرابع الميلادى كما وصفها أميانس مارسيلينس .

(٧) ولبعض القبائل رئيس عام ذو اختصاصات قليلة وهو فى الوقت نفسه أحد زعماء الفروع . ولهذا الرئيس فى الحالات التى تستدعى قرار سريع أن يتخذ قرار لحين اجتماع مجلس القبيلة واتخاذه لقرار نهائى . ولم يتطور هذا الاختصاص لدى الهنود حتى يصبح منصباً رسمياً فى ظل سلطة تنفيذية ، وسنرى فيما بعد أن منصب القائد العسكرى هو الذى تطور حتى أصبح رئيس دولة فى معظم الحالات .

ولم تتعدى الأغلبية العظمى للهنود الأمريكيين المرحلة القبلية الكاملة التى يتكون المجتمع فيها من قبائل عديدة تفصل بينها الحدود ، وتستمر هذه القبائل فى الضعف نتيجة الحروب المستمرة بينها . ورغم أن القبائل الهندية كانت تشغل مساحة فسيحة جداً فى أمريكا إلا أن عددها كان قليلا وكانت الأحلاف التى تضطرهم إليها الظروف الوقتية تعقد بين القبائل المرتبطة بروابط الدم ثم تنحل هذه الأحلاف بانقضاء الضرورة. وفى بعض المناطق توصلت القبائل المرتبطة بروابط الدم (والتى كانت فى الأصل قبيلة واحدة ثم انقسمت) ، توصلت هذه القبائل إلى عقد اتحاد عام دائم فخطت بذلك الخطوة الأولى نحو تكوين أمة . وفى الولايات المتحدة نجد أكثر أشكال هذا الاتحاد تقدما هو اتحاد القبائل الإيروكيوسية ، فقد هاجر الإيروكيوس من أرضهم الأصلية غرب نهر المسيسبى حيث يحتمل أنهم كانوا فرعاً من سلالة داكوتا الكبرى ، واستقمروا بعد كثير من التنقل فى ولاية نيورك الحالية . وكانوا منقسمين إلى خمس قبائل هى السينيكاس والكايوجاس والأونونداجاس والأونيداس والموهاوكس وكانوا يعيشون على صيد الأسماك وإنتاج الغابات ، وكانوا يسكنون قرى محاطة فى الغالب بأسوار خشبية .

ولم يكن عددهم يزيد عن عشرين ألفا . وكان لديهم عدد من الفروع المشتركة بين كل القبائل الخمسة . ولما بدأ البيض فى غزو هذه الأراضى كان من الطبيعى أن تتعاون هذه القبائل لمقاومتهم . وعند بداية القرن الخامس عشر الميلادى على الأكثر تطور هذا التعاون إلى عصبة دائمة منظمة واتحاد شعر بقوته الجديدة فبدأ فورا العمل العدوانى بكل قوته التى بلغت ألفا وستمائة وخمسة وسبعون مقاتلا فقهر مساحات واسعة من الأرض المحيطة به وطرد بعض المقيمين بها وأرغم الآخرين على دفع الجزية . وقد كان الاتحاد الإيروكيوس أكثر التنظيمات الاجتماعية تقدما لدى الهنود الذين لم يخرجوا من المرحلة الدنيا للبربرية (مع استثناء المكسيكيين والمكسيكيين الجدد وأهل بيرو) . وكانت الخواص الرئيسية للاتحاد هى : —

(١) حلف دائم من القبائل الخمس المرتبطة بروابط الدم على أساس من المساواة التامة والاستقلال فى كل الشئون الداخلية لكل قبيلة . وقد كانت القرابة فى الدم هى الأساس الحقيقى للاتحاد . وبين القبائل الخمس كانت ثلاثة منها تسمى القبائل الآباء وتعتبر إخوة فيما بينها . وكانت القبيلتين الأخريين يسميان القبائل الأبناء وتعتبران أخوين فيما بينهما . ويوجد ممثلون دائمون لأقدم ثلاثة فروع فى هذه القبائل لدى كل القبائل الخمسة ولثلاثة فروع أخرى ممثلين لدى ثلاثة قبائل . وكانت اللغة المشتركة (مع اختلاف اللهجات) هى التعبير عن وحدة الأصل والدليل عليه .

(٢) كان جهاز الإتحاد هو مجلس إتحادى مكون من خمسين زعيما متساوين فى المرتبة ، وكان هذا المجلس يبت فى كل الأمور الخاصة بالاتحاد .

(٣) وعند تأسيس الاتحاد وزع هؤلاء الخمسين زعيما بين القبائل والفروع ليشغلوا مناصب جديدة أنشئت خصيصا لخدمة أغراض الاتحاد . وكانت الفروع تعيد انتخاب هؤلاء الزعماء من جديد كلما خلا منصب كما كان يمكن عزلهم . وكان الحق فى إقرار إنتخابهم من إختصاص المجلس الإتحادى .

(٤) وكان هؤلاء الزعماء الإتحاديين زعماء فى قبائلهم أيضا وكان لكل منهم مقعدا وصوتا فى المجلس القبلى .

(٥) وكان يجب أن تصدر قرارات المجلس الإتحادى بالإجماع .

(٦) وكان التصويت يتم بطريقة تجعل من الضرورى موافقة كل قبيلة وكل أعضاء المجلس الإتحادى فى كل قبيلة على أى قرار قبل صدوره .

(٧) وكان فى إستطاعة كل مجلس من مجالس القبائل الخمسة أن يطلب عقد المجلس الإتحادى ، ولم يكن المجلس الإتحادى يستطيع عقد مجالس القبائل .

(٨) كانت اجتماعات المجلس الإتحادى تعقد علنا أمام الجمهور المجتمع وكان من حق كل فرد أن يتكلم ولكن إصدار القرارات كان من حق المجلس وحده .

(٩) لم يكن للإتحاد رئيس أو مدير تنفيذى .

(١٠) وكان للإتحاد قائدين عسكريين أعليين يتمتعان بسلطات متساوية [مثل الملكين فى إسبرطة والقنصلين فى روما] .

كان هذا هو كل البناء الإجتماعى الذى عاش الإيروكيوس فى ظله

أكثر من أربع قرون وما زالوا يعيشون فى ظله . وقد نقلت هنا كلام مورجان عنه بشيء من التفصيل لأنه يعطينا فرص دراسة تنظيم المجتمع الذى لم يتحول بعد إلى دولة . فالدولة تفترض وجود سلطة عامة معينة منفصلة عن المجموعة . ويعتبر مورجان بحق أن نظام وحدات المارك الألمانية هو نظام إجتماعى محض مختلف تماما عن الدولة مع أنه كان أساسها فيما بعد ،وقد كان مورار فى كل كتاباته يبحث عن ارتفاع السلطة العامة التدريجى من وحدات المارك التى كانت تشمل القرى والإقطاعيات والمدن . ويظهر لنا نظام الهنود الأمريكيين كيف تنتشر قبائل متحدة الأصل فوق سطح قارة ضخمة وكيف أصبحت هذه القبائل عن طريق إنقسامها إلى فروع شعوبا ومجموعات كاملة من القبائل ، كما يظهر لنا كيف تغيرت اللغة الأصلية إلى حد أن أصبح التفاهم مستحيلا بينهم كما اختفى كل أثر للوحدة الأصلية . كما يظهر لنا هذا النظام كيف انقسمت الفروع فى القبائل إلى عدة أقسام وكيف أن الفروع الأصلية الأم ظلت قائمة على هيئة أخوات وأن أسماء هذه الفروع الأصلية ظلت كما هى بين القبائل على اتساع المساحة الفاصلة بينها وقدم إنفصالها ، فإن اسم « الذئب » و « الدب » ما زالا أسماءا شائعة بين أغلبية القبائل الهندية . وبصفة عامة ينطبق هذا التنظيم على جميع القبائل الهندية باستثناء تلك القبائل التى لا تربطها بهم وحدة الدم .

ونرى أنه منذ أصبحت السلالة هى الوحدة الاجتماعية فإن النظام الكامل للفروع أى الأخوات والقبائل نما نموا حتميا من هذه الوحدة، فهذه الأشكال الثلاثة ، الفروع والأخوات والقبائل ، هى مجموعات لدرجات مختلفة من قرابة الدم كل منها كاملة بنفسها وتتصرف فى شئونها

الخاصة ولكن تكمل كل منها الأخرى فى نفس الوقت . ومجموع الشئون الخاصة لكل منها يكون مجموع الشئون العامة للمرحلة الدنيا للبربرية .

وعلى ذلك فأينما نكتشف السلاله كوحدة إجتماعية لشعب معين فإننا نكون أمام تنظيم للقبيلة مشابه لذلك الذى سبق لنا وصفه ، وعندما تكون المصادر الكافية موجودة لدينا كما هو الحال عن الإغريق والرومان فإننا نكون أمام نفس النظام ، وعندما لا تسعفنا المصادر فإن المقارنة مع النظام الإجتماعى الأمريكى تساعدنا على قطع الشك باليقين .

والنظر البسيط لهذا التنظيم يرينا كم هو رائع فى بساطته يجرى فيه كل شيء بسهولة دون جيش أو بوليس ودون نبلاء أو ملوك أو حكام أو سجون . فكل المنازعات تحسم عن طريق كل أطرافها فيما بينها داخليا . ويعتبر الإنتقام للدم وسيلة تهديدية نادرة التطبيق بينما نجد أنها العقوبة الرئيسية فى مجتمعنا المتمدن . ورغم أن هناك شئون مشتركة أكثر من الآن [فإدارة المنزل تجرى بطريقة مشتركة بين عدد من الأسر والأرض مملوكه للقبيلة ، والحدائق الصغيرة هى وحدها المملوكة للأسر بصفة مؤقته] رغم ذلك فليست لديهم حاجة إلى جهازنا الإدارى المعقد . وفى أغلب الحالات تنظم العادات المتوارثة كل شيء ، ولايمكن أن يوجد بينهم فقير أو محتاج فالسلالة تعرف التزاماتها تجاه الشيوخ والمرضى ومشوهى الحرب . والكل أحرار متساوون حتى النساء وليس هناك مكان للعبيد أو للسيطرة الأجنبية . وعندما قهر الإيروكيوس « الأمم المحايدة » حوالى سنة ١٦٥١ دعوهم إلى المشاركة فى الإتحاد على قدم المساواة مع باقى أعضاء إتحاد الإيروكيوس ، ولم يطرد المنهزمون من أراضيهم إلا

عندما رفضوا الإنضمام للإتحاد . إن نوع الرجال والنساء الذى ينشأ فى مثل هذا المجتمع قد استحوذ على إعجاب كل الرجال البيض الذين اتصلوا بالهنود فقد أبدوا إعجابهم بكرامة الشخصية والاعتزاز بالنفس والاستقامة والشجاعة التى يتحلى بها هؤلاء المتبربرون .

وقد شاهدنا منذ وقت قصير أمثلة لهذه الشجاعة فى إفريقيا . فقد فعلت قبائل الزولو منذ بضعة سنين والنوبيين [1] منذ بضعة أشهر [وكليهما لم يختفى لديهما النظام القبلى] ، فعلوا ما لم يستطيع أى جيش أوربى أن يفعله . ومع أنهم كانوا مسلحين بالرماح والدروع وحدها فقد تقدموا تحت سيل من طلقات المدافع الرشاشه إلى تحصينات القوات الانجليزيه [المعروف أنها أحسن قوات مقاتلة من وراء الحواجز فى العالم] مفرقين صفوفها وأعادوا الكرة أكثر من مرة رغم الفرق الرهيب فى التسليح ورغم أنه لم يكن لدى الإفريقيين أى تدريب عسكرى ، ويقول الانجليز أن الإفريقى كان يقطع على قدميه فى اليوم أكثر مما يقطعه الحصان . وقد كان هذا هو حال المجتمع الإنسانى قبل انقسامه إلى طبقات . وإذا قارنا حالته بحالة الأغلبية الساحقة من العمال والفلاحين اليوم لوجدنا الهوة السحقية بينهم وبين أعضاء السلالة الأحرار .

وقد كان الفناء مصير النظام القبلى الذى لم يتطور إلى أكثر من اتحاد القبائل الذى كان بدء سقوطها كما سنرى . وقد كان كل شىء خارج نطاق القبيلة يعتبر خارج نطاق القانون . وكانت الحرب تجرى بين القبائل التى ليس

---

(١) يشير المؤلف إلى الحرب بين الإنجليز والزولو سنة ١٨٧٩ والحرب بين الإنجليز والنوبيين سنة ١٨٨٣ .

بينها ميثاق سلام بقسوة ميزت الآدميين عن سائر الحيوانات . ويفترض هذا التنظيم كما رأينا وجود نظام إقتصادى فى غاية التأخر أى عدد قليل جداً من السكان موزعين فى مساحة شاسعة من الأرض . وقد انعكس تسلط الطبيعة على الإنسان فى أفكاره الدينية الطفولية . وقد ظلت القبيلة هى حدود الإنسان وكانت مقدسة لا تخالف . وقدكان ضروريا تحطيم قوة هذه الجماعة نتيجة التطور وقد تحطمت فعلا . ولكنها تحطمت نتيجة النفوذ الذى يبدو لنا من بدايته إنحطاطا وسقوطا من المرتبة الخلقية العليا للمجتمع القديم ، وأصبحت القسوة والنهم والأنانية والمصلحة الشخصية هى باعث المجتمع المتمدن الطبق . وأصبحت كل الوسائل غير المشروعة كالسرقة والخيانة مدنية . وباختصار فلم يكن المجتمع الجديد خلال الألفين وخمسمائة عام من المدنية سوى نمو للأقلية على حساب الأغلبية المحكومة .

الفصل الرابع

السلالة الإغريقية

كان الإغريق مثلهم فى ذلك مثل البلاسجيانز والشعوب الأخرى ذات الأصل القبلى ، كانوا منتظمين منذ ما قبل التاريخ فى نفس المجموعات القبلية التى لدى الهنود الأمريكيين ، أى فى سلالات وأخوّات وقبائل وإتحادات قبائل . وأحيانا لم تظهر الأخوّات عندهم كما كان الحال عند الدوريانيين ، كما لم تظهر أحيانا إتحادات القبائل ، ولكن السلالة كانت فى كل مكان هى الوحدة الإجتماعية .

وفى الوقت الذى دخل فيه الإغريق التاريخ كانوا على أبواب عصر المدنية ، وعلى ذلك فهناك فترتان تاريخيتان كبيرتان بين الإغريق والهنود الأمريكيين . فإغريق العصر[1] البطولى كانوا متقدمين جداً عن الإيروكيوس ولهذا فإن السلالة الإغريقية لم تكن تحمل الطابع القديم للسلالة الإيروكيوسية إذ لم يعد طابع الزواج الجماعى موجودا وحل الإنتساب للأب محل الإنتساب للأم وظهرت إلى جانب ذلك الثروة الخاصة التى كانت أول إضطراب فى النظام . وكان هناك اضطراب ثان تلى ذلك بالضرورة ، فبعد تطبيق الإنتساب للأب كان

---

(١) عصر ماقبل الإسكندر الأكبر والفتوحات العسكرية . (المترجم)

نصيب الوارثة الغنية ينتقل بفضل زواجها إلى زوجها أى إلى سلالة أخرى وهكذا يتحطم قانون القرابة القديم كله . ولذلك فقد كانت الفتاة الغنية تجبر على الزواج من سلالتها — استثناء من القاعدة — لكى تظل ثروتها فى السلالة .

وقد كتب جروت فى كتابه « تاريخ اليونان » أن روابط السلالة الأثينية كانت مايأتى : —

(١) احتفالات دينية عامة وامتياز خاص للكهنة تمجيدا لإله يعتقدون أنه أصل السلالة ويطلقون عليه لقباً معيناً .

(٢) مقبرة عامة مشتركة .

(٣) حقوق ميراث متبادلة .

(٤) التزام متبادل بتقديم كل منهم المساعدة للآخر وحمايته ضد أى أجنبي .

(٥) التزام بالزواج من داخل السلالة فى حالات معينة مثل حالة الفتيات اليتامى أو الوارثات .

(٦) ملكية مشتركة فى بعض الحالات مع وجود رئيس مشترك وخازن مشترك من السلالة . أما الأخوة التى تربط بين عدة فروع فكانت أقل تماسكا مع وجود نفس الروابط المتبادلة مثل الاشتراك فى الطقوس الدينية والانتقام للدم ، وكان أعضاء الأخوة فى كل قبيلة يقيمون دوريا حفلات دينية مشتركة تحت رئاسة الحاكم المسمى « Phylobacileus » أى الحاكم القبلي وكان ينتخب من بين النبلاء المسمين eupatrides

ومما تقدم يتضح إمكان التمييز بين السلالة الإغريقية والسلالة الإيروكيوسية .

وقد كان ما سبق هو مميزات السلالة فى أثينا بصفة خاصة ، أما السلالة الإغريقية عامة فتشترك فى الصفات التالية : —

(٧) الإنتساب للأب .

(٨) منع الزواج فى داخل السلالة ماعدا حالات الفتيات الوارثات كما سبق ، وقد كانت القاعدة أن المرأة عندما تتزوج تهجر الطقوس الدينية الخاصة بسلالتها وتمارس معتقدات سلالة زوجها وتندمج فى أخوته ، ويقول بيكار فى كتابه « charicles » أنه مامن شخص كان مسموحا له بالزواج داخل السلالة .

(٩) كان التبنى فى السلالة يتم عن طريق التبنى فى إحدى عائلاتها بإجراءات شكلية وفى حالات استثنائية فقط .

(١٠) حق انتخاب وعزل الرئيس ، وقد سبق للقول أن كل سلالة كان لها حاكمها ولكن كان هذا المنصب وراثياً فى عائلات معينة . ونرجح أنه إلى نهاية عصر البربرية لم تكن الوراثة فى المناصب مطلقة لأنها تتنافى مع الظروف التى كان للغنى والفقير فى ظلها حقوقا متساوية فى السلالة .

وقد فشل جروت ونيبور ومومسن وكل مؤرخى الآثار الكلاسيكية السابقين فى حل مسألة السلالة . ومع أنهم قد ذكروا بدقة كل صفاتها المميزة فقد كانوا دائما يعتبرونها مجموعة من العائلات فكان مستحيلا عليهم بذلك أن يفهموا طبيعتها .

وفى ظل هذا التنظيم لم تكن العائلة أبدا هى وحدة التنظيم ولم يكن ممكنا أن تكون لأن الرجل وزوجته كانا ينتميان لفرعين مختلفين وكانت السلالة ككل تنتمى للأخوّة والأخوّة تنتمى للقبيلة وبذلك كانت العائلة تنتمى نصفياً إلى سلالة الزوج ونصفياً إلى سلالة الزوجة . ومع ذلك فكل التاريخ المكتوب يعتبر نقطة البدء هى العائلة الزوجية وأنها كانت النواة التى تبلور حولها المجتمع والدولة مع أن هذه العائلة لم تظهر إلا قبل المدنية بقليل جداً ، والغريب أن هذا الخطأ كان هو الرأى السائد فى القرن الثامن عشر .

ويضيف ماركس أن « جروت كان يجب أن يلاحظ أنه رغم أن الإغريق كانوا يعتبرون سلالاتهم أثرا من علم الخرافات (بدليل نسبتها إلى أحد الآلهة الذى يعتبرونه أصلا لها) ، فإن السلالات كانت أقدم من علم الخرافات بآلهته وأنصاف آلهته التى خلقوها هم بأنفسهم » .

ويعتبر مورجان أفضل من جروت فى تفسيره للسلالة ، فقد قال أن كل سلالة أثينية كان لها اسم مشتق من سلفها وأن القاعدة قبل أيام سولون وبعده كانت أن الرجل إذا مات بدون وصية كان أعضاء فرعه يرثون ثروته ، وإذا قتل رجل كان لأقاربه أولا ثم لأعضاء فرعه وأخيرا لأعضاء أخوّته الحق فى مقاضاة القاتل فى المحاكم ، وكل مانسمعه اليوم عن أقدم قوانين أثينا مبنى على التقسيمات إلى فروع وأخوّات .

ويقول ماركس « أن المنحدرين من أصول مشتركة للفروع يسببون حيرة تعذب الذهن « لخريجى المدارس الجهلة » ، وحيث أن هؤلاء يدعون أن تلك الأصول خرافية [لنسبتها لأحد الآلهة] فلا يستطيعون

أن يشرحوا كيف تطورت الفروع من عائلات ليس بينها فى الأصل أى صلة ، ولكن لابد من معالجة ذلك بوسيلة ما لشرح وجود فروع على الأقل ، ولذلك نجدهم يدورون فى حلقة مفرغة ولا يتعدون الجملة القائلة أن علم الفروع خرافى ولكن السلالة حقيقة .

وأخيرا يقول جروت « نحن نسمع عن علم الفروع هذا نادرا لأنه لايوضع أمام الجمهور إلا فى حالات معينة محترمة ، ولكن الفروع الأحقر شأنا كان لها طقوسها المشتركة [عجيب حقا يا سيد جروت — ماركس] وأصل مشترك أعلا من الإنسان وعلم فروع ورئيس معظم [ما أشد غرابة ذلك ياسيد جروت فى الفروع الأحط شانا — ماركس] كما كانت لها أسسها المثالية [بل المادية ياسيد جروت — ماركس] وكان كل ذلك متماثلا فيها جميعا » .

ويستخلص ماركس من إجابة مورجان على ذلك مايأتى — « إن نظام قرابة الدم الخاص بالسلالة فى شكله الأصلى [وقد عرفه الإغريق يوما كغيرهم من البشر] حفظ العلاقات المتبادلة لكل أعضاء السلالة وجعلهم على علم بها . وقد تعلموا هذه الحقيقة بالتمرين منذ الطفولة . ومع ظهور العائلة الزوجية سقط ذلك فى طى النسيان . وقد خلق إسم الفرع علما للفروع ، ويؤكد هذا الإسم لحامليه حقيقة أصلهم المشترك ، وبتقادم العهد لم يعد فى استطاعة أعضاء السلالة إثبات أصلهم المشترك ماعدا فى حالات قليلة وكان الإسم نفسه هو الدليل على وجود أصل مشترك عدا فى حالات التبنى . وإن الإنكار الحالى لأى قرابة بين أعضاء الفروع على طريقة جروت وينبور خليق

بأى عالم « مثالى » وبديدان الكتب المدرسية ، فلأن الرابطة بين الأجيال وخاصة منذ بدء الزواج قد أهملت ، ولأن حقيقة الماضى تبدو منعكسة فى أوهام علم الخرافات ، يبدو للجهلة الطيبين من العلماء المثاليين ، أن علم الفروع الوهمى هو الذى خلق فروعا حقيقية .

وكما هو الحال عند الهنود الأمريكيين كانت الأخوّة بمثابة السلالة الأم وتنقسم إلى عدة فروع بمثابة بنات لها وتوحدهم فى نفس الوقت نتيجة الأصل المشترك . ويقول جروت أن أعضاء كل أخوّة كان لهم إله مشترك بإعتباره أصلا لهم من الدرجة السادسة عشر [أى تعتبر الأخوة هى الجيل السادس عشر من سلالته] .وكان كل فروع الأخوّة يعتبرون لذلك إخوة فيما بينهم .

وقد ذكر هوميروس الأخوّة باعتبارها وحدة عسكرية فى ذلك الجزء الشهير من قصيدته حيث ينصح نستور أغاممنون بقوله « جهز القوات عن طريق القبائل والأخوّات بحيث تساعد كل أخوّة الأخرى وكل قبيلة الأخرى » . وحيث أنه كان من حق الأخوّة مقاضاة قاتل أحد أفرادها فقد كان لها فيما مضى واجب الإنتقام للدم ولاشك . كما كان للأخوّة مقدساتها وأعيادها المشتركة لأن تطور علم الخرافات الإغريقى من النظام الدينى الآرى القديم ، هذا التطور أخذ مكانه أساسا فى داخل الفروع والأخوّات . وكان لكل أخوة رئيس ، ويرى ديكولانجس أنه كان لها جمعيات لإصدار القرارات ومحكمة

وسلطة إدارية. وقد اعترف جهاز الدولة التي ظهرت فيما بعد بالأخوّة وترك لها بعض الإختصاصات رغم أنه تجاهل تماما أمر السلالة كما سيأتي.

وكان عدد من الأخوّات المرتبطة برابطة القرابة يكون القبيلة. وكانت في أتيكا أربع قبائل تتكون كل منها من ثلاث أخوّات وتتكون كل أخوّة من ثلاث فروع، ويدل هذا التقسيم الدقيق على تدخل مرسوم في التنظيم، أما كيف ومتى ولماذا حدث ذلك فهو مالا يبينه التاريخ الإغريقي، لأن الإغريق أنفسهم كان يحفظون ذكريات لاتتعدى العصر البطولي.

وقد كان إختلاف اللهجات لدى الإغريق أقل من إختلافها في أمريكا لأن الإغريق كانوا متجمعين في إقليم صغير المساحة نسبيا: ورغم ذلك كان إتحاد القبائل يضم القبائل التي تتكلم نفس اللهجة وحدها. وقد كانت لأتيكا لهجتها الخاصة التي أصبحت فيما بعد اللغة السائدة في النثر الإغريقي. وفي ملاحم هوميروس نجد القبائل الإغريقية عموما قد توحدت على هيئة شعوب صغيرة تحتفظ فيها الفروع والأخوّات والقبائل باستقلالها. وكانت هذه الشعوب تعيش في مدن محاطة بأسوار. وقد إزداد تعداد السكان مع إزدياد عدد القطعان الحيوانية وزراعة الحقول وبدء الحرف اليدوية. ومع وجود هذه الظروف بدأ الإختلاف المتزايد في الثروات مما سبب ظهور إتجاه أرستقراطي في الديموقراطية القديمة التي نمت نموا طبيعيا. وقد إشتبكت

هذه الشعوب المتعددة الصغيرة فى حروب مستمرة فى سبيل إمتلاك الأراضى والسلب والغنائم وكان إستعباد أسرى الحرب قد أصبح نظاما معترفا به .

وكان النظـــام الأساسى لهذه القبـائل والشعوب يتلخص فيما يأتى :—

(١) كانت السلطة الدائمة هى المجلس « boulè » وكان يتكون فى الأصل حسب المرجح من زعماء الفروع ، ولما زاد عددهم فيما بعد كان يتكون من أشخاص مختارين مما خلق الفرصة لنمو وتقوية الإتجاه الأرستقراطى . ويقول ديونيسيوس أن المجلس فى العصر البطولى كان يتكون من الأشخاص الممتازين « cratistoi » . وكانت للمجلس الكلمة النهائية فى الأمور الهامة ، وقد إنعكس ذلك فى آداب تلك الفترة إذ نقرأ فى إحدى روايات « aeschyus »[1] أن مجلس طيبة[2] إتخذ قرارا بدفن جسد إيتوكلس وسط مظاهر التكريم وإلقاء جسد بوليينيسس للكلاب .وبعد ظهور جهاز الدولة لدى الإغريق تحول هذا المجلس إلى مجلس الشيوخ .

(٢) الجمعية الشعبية « agora » . وقد رأينا عند الإيروكيوس أن الشعب رجالا ونساء كانوا يلتفون حول إجتماع المجلس ويشتركون فى المناقشـات . وعند إغريق عصر هوميروس كان هؤلاء «الملتفون حول

---

(١) أول كاتب مسرحى إغريقى . (المترجم)

(٢) مدينة طيبة اليونانية . (المترجم)

المجلس » قد تطوروا حتى أصبحوا جمعية شعبية كاملة كما كان الحال عند الألمان القدماء .

وكان المجلس يعقد الجمعية لتقرر الأمور الهامةوكان لكل رجل حق الكلام وكان التصويت على القرار يجرى برفع الأيدى أو الهتاف . وكان نفوذ هذه الجمعية نهائيا ، ويقول شومان فى كتاب آثار اليونان أنه لم تكن هناك طريقة لإرغام الشعب على شيء ضد إرادته ولذلك كانت الجمعية هى السلطة العليا . فى ذلك الوقت كان كل رجل بالغ فى القبيلة محاربا ولم تكن قد ظهرت بعد أى سلطة عامة منفصلة عن الشعب يمكن إستخدامها ضده فقد كانت الديموقراطية البدائية لا تزال فى أوجها .

(٣) القائد العسكرى « bacileus » . لم يكن هذا القائد ملكا أو أميرا كما يزعم البعض ، ويقول ماركس تعليقا على هذا الزعم « إن العلماء الأوربيين الذين يولد معظمهم خدما للأمراء يمثلون القائد العسكرى كملك بالمعنى الحديث . ويعترض مورجان على ذلك بحق ويقول عن جلادستون وكتابه [١] أن جلادستون يمثل لقرائه زعماء الإغريق فى العصر البطولى كملوك وأمراء مع تحليهم بأخلاق السادة المهذبين ، فنضطر للإعتراف بأننا توصلنا إلى معرفة قانون الأجداد الأول بطريقة كافية ولكن ليس مقطوعا بها » .ولكن ما دامت المعلومات ليست مقطوعا بها فإنها تكون فى حكم العدم .

(١) W. E. Gladstone ، كتاب [طفولة العالم ـ آلهة ورجال العصر البطولى] — لندن سنة ١٨٦٩ .

وقد سبق لنا رؤية الوضع فيما يختص بحالات الوراثة فى مناصب الزعماء عند الهنود الأمريكيين . فقد كان كل الزعماء ينتخبون من السلالة وبذلك كان المنصب وراثيا فى السلالة . ثم حدث بالتدريج أن أصبح أقرب الأقارب للزعيم المتوفى وهم الأخ وإبن الأخت يرشحون لملء منصب الزعامة مالم توجد أسباب تحول دون ذلك . وعند الإغريق فى ظل الإنتساب للأب كان منصب القائد العسكرى ينتقل فى العادة إلى أحد الأبناء ، رغم أن الانتخاب كان ضروريا لتحقيق ذلك الانتقال ولم يكن أبناء القائد السابق يفرضون على المنصب دون إنتخاب . وكانت هذه هى الخطوط الأولى نحو وجود عائلات أرستقراطية فى الفروع عند الاغريق والهنود على السواء ، وكانت هذه الخطوط الأولى هى نواة الزعامة الوراثية التى أصبحت فيما بعد ملكية . وعلى ذلك فعند الاغريق كان القائد العسكرى إما منتخبا من الشعب أو على الأقل كان يجب أن يقر الشعب إنتخابه بواسطة المجلس أو الجمعية الشعبية ، كما كان الحال بالنسبة للملك « rex » فى روما .

وقد انعكست هذه الصورة فى آداب تلك الفترة . فنجد فى الإلياذة أن حاكم الرجال أغاممنون يظهر ليس بصفته ملكا للإغريق ولكن قائدا أعلا لجيش إتحادى أمام مدينة محاصرة ، وعندما دب الخلاف بين الإغريق أشار أوديسيوس إلى هذه الصفة فى القائد بالعبارة الشهيرة « إن عددا كبيراً من القواد ليس أمراً سليما فليكن لنا قائدا واحد... إلخ » وجاء فى جزء آخر من الإلياذة فى نفس الموقف « إن أوديسيوس لا يحاضر هنا عن شكل الحكومة ولكنه يطلب الطاعة للقائد الأعلا للجيش فى ساحة القتال ، ويكفى الإغريق الذين يقفون الآن أمام طرواده كجيش

موحد ، يكفيهم المرافعة فى المجلس كعمل ديموقراطى ولا داعى لها فى ساحة القتال » .

وعندما تكلمت الإلياذة عن تقسيم الغنائم ، نجد أن أثيلس لاتجعل أغاممنون أو غيره من القادة يقومون بالقسمة بل يتولى ذلك أبناء الشعب « Achaeans » ، ولا تدل المزايا التى يمنحها الإله زيوس إله الزعماء على شىء فإن كل سلالة متفرعة فى اعتقادهم من أحد الآلهة ، وسلالة الزعيم متفرعة من إله ممتاز هو زيوس . وكل فرد ينتمى للآلهة حتى الجنود العاديون أمثال راعى الخنازير إيومايوس . وإذا قرأنا الأودسا ، وهى تمثل عصرا بعد الإلياذة ، نجد أسماء الأبطال تطلق على العامة كما تطلق على الخاصة . « وعلى ذلك فكلمة « baciieus » التى يطلقها الكتاب الإغريق على مايسمونه الملكية العسكرية [لأن القيادة العسكرية هى صفتها المميزة] لاتعنى فى الواقع ملكية وإنما ديموقراطية عسكرية مع المجلس والجمعية الشعبية — ماركس » .

وبجانب الوظائف العسكرية كانت للقائد العسكرى وظائف دينية وقضائية ، ولم تكن الوظائف القضائية محددة بوضوح أما الدينية فكان يمارسها بإعتباره الممثل الأعلا للقبيلة أو إتحاد القبائل . وليس هناك أى مرجع بالنسبة للوظائف المدنية والإدارية ولكن يظهر أن القائد كان عضوا بالمجلس . وكما سبق القول لم يكن القائد العسكرى ملكا بالمعنى الحديث على الإطلاق بل كان زعيما عسكريا ورجل دين ولم تكن له سلطة حكومية بالمعنى الحالى[1]

(١) كما أسىء فهم القائد العسكرى الإغريقى (baciieus) على أنه ملك ، أساء الإسبان فهم القائد العسكرى لدى الأزتكس فى المكسيك على أنه أمير بالمعنى =

وعلى ذلك فما زلنا نجد النظام القديم للفروع والأخوات والقبائل فى عنفوانه لدى إغريق العصر البطولى ، ولكنه كان فى بداية زواله . فإن الانتساب للأب وجمع الثروات الطائلة بقصد توريثها للأبناء ، والاختلاف فى الثروة الذى خلق الخطوط الأولى للأرستقراطية الوراثية والملكية ، والرق الذى كان أول أمره محددا بأسرى الحرب ثم مهد الطريق لإستعباد الزملاء فى القبيلة وفى السلالة نفسها ، وتحول الحروب القديمة بين القبائل إلى غارات منتظمة فى البر والبحر ، من أجل الإستيلاء على الحيوانات والعبيد والنفائس كوسيلة عادية لكسب العيش ، كل ذلك كان سببا فى تمجيد الثروة ، وتمرد الناس على التنظيمات القبلية القديمة لكى يحللوا لأنفسهم سرقة الثروات بالاكراه ، وأصبح المجتمع فى حاجة قصوى إلى نظام يحمى الملكية الجديدة للأفراد ضد التقاليد الجماعية القبلية ويجعل هذه الملكية مقدسة باعتبارها الهدف الأعلا للمجتمع الإنسانى . ويديم التقسيم الطبقى للمجتمع . ويحمى حق الطبقة المالكة فى استغلال الطبقة التى لا تملك . ومعنى ذلك أن المجتمع الجديد كان فى حاجة إلى ظهور سلطة الدولة . وهكذا اخترعت الدولة .

= الحديث . وكان مورجان أول من انتقد كتابات الإسبان فى هذا الشأن وأظهر ان المكسيكيين كانوا فى المرحلة الوسطى للبربرية ، ولكن فى حالة أعلا من الهنود المكسيكيين الجدد البويبلو وأن نظامهم بقدر مانعرف يتلخص فى الآتى : إتحاد من ثلاث قبائل يحكمه مجلس إتحادى وقائد حربى إتحادى اعتقد الإسبان أنه إمبراطور . [المؤلف] .

الفصل الخامس

قيام الدولة فى أثينا

قامت الدولة بتحول طرأ على بعض أجهزة التنظيم وإزاحة بعضها الآخر عن طريق قيام أجهزة جديدة ، وأخيراً ألغى الكل عن طريق سلطة حكومية حقيقية . واستبدل الرجال المسلحون فى كل قبيلة وأخوة وفرع بقوة مسلحة عامة فى خدمة السلطة الحكومية ، ولذلك كان يمكن استخدام هذه القوة المسلحة ضد الشعب نفسه . وهكذا أقامت الدولة فى أثينا القديمة .

وقد وصف مورجان المحتوى الإقتصادى الذى نتجت عند هذه التغيرات . ففى العصر البطولى كانت القبائل الأثينية الأربعة مازالت مستقرة فى أجزاء متفرقة من أتيكا ، ويبدو أن الأخوات الإثنى عشر المكونة لهذه القبائل كانت لها مقاعد منفصلة فى مدن سيكروبس الإثنى عشر . وكان الدستور الأساسى هو دستور العصر البطولى ، أى جمعية شعبية ومجلس وقائد عسكرى . وحسبما يخبرنا التاريخ المكتوب ، كانت الأرض قد قسمت وتحولت إلى الملكية الفردية التى تناسب حالة إنتاج السلع وتجارتها حوالى نهاية المرحلة العليا من البربرية . وكانوا ينتجون الحبوب ويصنعون النبيذ والزيت وتحولت تجارة بحر إيجة تدريجيا من أيدى الفينيقيين إلى أيدى أهل أتيكا . ونتيجة شراء وبيع الأراضى والتقسيم المستمر للعمل بين الزراعة والحرف اليدوية والتجارة سرعان ما اندمج

أعضاء القبائل المختلفة فى بعضهم ، ووفد على مناطق القبائل سكان جدد لم يكونوا ينتمون لهـذه القبائل ولذلك كانوا يعتبرون أجانب فى مناطق إقامتهم . وفى وقت السلم كانت كل أخوة وكل قبيلة تدير شئونها بنفسها دون الرجوع للمجلس أو القائد العسكرى فى أثينا « ولم يكن المتوطنون بالإقليم من غير أعضاء القبائل يشتركون فى إدارة هذه الشئون لإعتبارهم أجانب كما سبق . وقد أحدث هـذا الوضع إضطرابا فى أجهزة التنظيم القبلى وظهرت الحاجة للعلاج فى العصر البطولى . فظهر دستور منسوب إلى ثيسيوس . وكانت الصفة الأساسية لهذا التغيير تكوين إدارة مركزية فى أثينـا أى أن بعض الأعمال التى كانت القبائل تتولاها فى إستقلال أصبحت أعمالا عامة ونقلت إلى المجلس العـام فى أثينا . وبجانب ذلك خطا الأثينيون خطوة لم يخطها أى شعب فى أمريكا فقد إستبدلوا الإتحاد البسيط بين القبائل باندماج كل هذه القبائل على هيئة شعب واحد فكان ذلك سببا فى قيام نظام قانونى أثينى شعبى أعلا من النظام القانونى للقبائل والفروع . وأضفى هـذا القانون على مواطنى أثينا حقوقا معينة وحماية قانونية إضافية حتى فى غير أقاليم قبائلهم . وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تحطيم الدستور القبلى لأنهـا كانت الخطوة الأولى نحو الإعتراف [الذى تلا ذلك] بالمواطنين الذين كانوا أجانب بالنسبة لـكل قبائل أتيكا وظلوا خارجين كلية عن نطاق الدستور القبلى الأثينى . ظهـر هناك نظام آخر منسوب إلى ثيسيوس هو تقسيم الشعب كله بصرف النظر عن الفروع والأخوات والقبائل إلى ثلاث طبقات هى النبلاء « eupatrides » وملاك الأرض « geomorpi » وأصحاب الحرف « demiurgi » مع منح النبلاء حق الإنفراد بتولى المناصب العـــامة . وبخلاف منح النبلاء حق الإنفراد بالوظائف العامة ظل هـذا التقسيم غير مطبق لأنه لم يوجد أى تفرقة قانونية أخرى بين الطبقات . وقد كان هذا التقسيم غاية فى الأهمية

لأنه يفسر لنا العناصر الإجتماعية الجديدة التى نمت فى هدوء. ويظهر أن شغل المناصب فى السلالة من عائلات معينة كان قد تم نموه فى صورة إمتيازات لهذه العائلات الى كانت قوية بثروتها فبدأت تتحد خارج نطاق فروعها فى صورة طبقة ممتازة، وحمت الدولة الحديثة النشأة هذا الإغتصاب. كما يظهر هذا النظام أن تقسيم العمل بين المزارعين والحرفيين أصبح من القوة بحيث يستطيع منافسة التقسيم القديم إلى فروع وقبائل منافسة إجتماعية. وأخيرا فقد أظهر هذا التقسيم الصراع القوى بين المجتمع القبلي والدولة. وكانت المحاولة الأولى لتكوين دولة تتلخص فى تحطيم الفروع عن طريق تقسيم أعضاء كل فرع إلى طبقة ممتازة وطبقة دنيا وتقسيم الطبقة الدنيا إلى طبقتين تابعتين بحيث تستخدم إحداهما ضد الأخرى.

ولانعرف على وجه الدقة تاريخ أثينا الذى حدث بعد ذلك حتى وقت سولون[1] فقد ظل منصب القائد العسكرى شاغرا. وأصبح الزعماء المنتخبون من بين النبلاء رؤساء الدولة. وظل حكم النبلاء يزداد رسوخا حتى حوالى سنة ٦٠٠ ق. م حيث أصبح غير محتمل. وأصبحت الطرق الرئيسية للسيطرة على الشعب هى المال والربا. وكان النبلاء يعيشون فى الغالب فى أثينا أوضواحيها حيث التجارة البحرية والقرصنة بجانبها تغذيهم وتركز الثروة النقدية فى أيديهم. ومن هذه النقطة سار نظام النقود كالنار إلى الحياة التقليدية للجماعات البدائية القائمة على الإقتصاد الطبيعى. فلا يمكن للنظام القبلى أن ينافس النظام النقدى، فتحطم لذلك

---

(١) كاتب إغريقى كبير عاش أيام إزدهار أثينا. (المترجم)

صغار الملاك فى أتيكا وتفككت الروابط القبلية التى كانت تحميهم ، ولم تعد سندات الديون وقيود الرهن [وكان الأثينيون قد إخترعوا نظام الرهن] تحترم السلالة أو الأخوّة . ولم يكن الدستور القبلى القديم يعرف شيئا عن النقود أو القروض أو الديون النقدية ، ولذلك فقد أقام حكم النبلاء المالى قانونا جديدا لحماية الدائنين ضد المدينين ولإشتغال الفلاحين لحساب ملاك النقود . وغرقت كل أحياء أتيكا الريفية فى الرهونات لدرجة أن الأرض التى كانوا يقفون عليها كانت مرهونة . وبيعت أغلب الأراضى الزراعية لحساب الرهون عند عدم دفع الفوائد وإنتقلت ملكيتها إلى المرابى النبيل المولد . وكان الفلاح يعتبر نفسه سعيدا إذا سمح له بالبقاء فى الأرض كمستأجر نظير خمسة أسداس إنتاج الأرصدة يأخذها السيد الجديد ويحصل الفلاح على سدس واحد . وزيادة على ذلك فى الحالات التى لم يكن ثمن بيع الأرض فيها يغطى قيمة الدين غير المضمون برهن كان على المدين أن يبيع أولاده فى الخارج كعبيد لكى يجيب مطالب الدائن . وقد كان بيع الأب لأولاده الثمرة الأولى لنظام الإنتساب للأب والزواج الحديث .

كما كان فى استطاعة الدائن بيع المدين نفسه كعبد ، وقد كان هذا النظام هو فجر المدنية السعيد فى أثينا .

وقد كان مستحيلا قيام مثل هذه الثورة فيما سبق أيام الدستور القبلى ، ولكنها ظهرت هنا ولا يدرى أحد كيف .

ولنعد الآن لحظة إلى الإيروكيوس ، فلا يمكن تصور قيام مثل هذه الحالة لديهم ، فقد كانت طريقة إنتاج وسائل المعيشة عندهم لا تزال دون تغير ولذلك لم يكن فى إستطاعة ظروفهم إظهار مثل هذه المنازعات

والصراع بين الغنى والفقير ، وكانوا الإيروكيوس لا يزالون بعيدين عن السيطرة على قوى الطبيعة ولكنهم كانوا سادة إنتاجهم فى داخل الحدود التى وضعتها لهم الطبيعة . ولم يكن ممكنا لنظامهم الإنتاجى أن يؤدى إلى إنقلابات إجتماعية غير مدبرة وخدمة النبلاء وإنقسام أعضاء الفروع والقبائل إلى طبقات متعادية متصارعة فقد كان الإنتاج يجرى فى أضيق الحدود ولكن المنتجين كانوا سادة إنتاجهم وكانت هذه هى الميزة الكبرى لإنتاج العصر البربرى الذى زال بقدوم المدنية . ولا شك أن إستعادة هذه الميزة على أساس السيطرة الكبرى التى يمارسها الإنسان الآن على الطبيعة ، والوصول إلى الإتحاد الحر الذى يمكن تحقيقه الآن سيكون عمل الأجيال المقبلة .

وقد سبب ظهور الملكية الخاصة فى القطعان الحيوانية لدى الإغريق ، سبب قيام عملية التبادل بين الأفراد وتحويل المنتجات إلى سلع تجارية ، وهنا نجد الطريق الموصل إلى الثورة الكاملة التى حدثت بعد ذلك . فعندما أصبح المنتجون لا يستهلكون إنتاجهم مباشرة ولكن يبادلون به إنتاج غيرهم فقدوا السيطرة على إنتاجهم ولم يعودوا يعرفون مصيره وأصبح محتملا أن يستخدم الإنتاج يوما ضد المنتج ويتخذ وسيلة للسيطرة عليه وإستئجاره . وليس هناك مجتمع يستطيع أن يظل سيد إنتاجه مالم يلغى عملية التبادل بين الأفراد

وتعلم الأثينيون سريعا كيف تحكم الإنتاج فى المنتج بسرعة بعد تطبيق التبادل بين الأفراد وتحويل المنتجات إلى سلع . ومع إنتاج السلع ظهرت زراعة الأرض عن طريق أفراد يزرعون لحسابهم ثم تلتها سريعا الملكية الفردية فى الأرض . ثم جاءت النقود ، تلك السلعة العالمية

التي يمكن مبادلتها بأى سلعة أخرى . ولم يكن الرجال يعرفون حينما اخترعوا النقود أنهم يخلقون بذلك قوة إجتماعية جديدة ، قوة عالمية يجب أن تخضع لها كل القوى . لقد كانت هذه القوة الجديدة التي ظهرت فجأة إلى الوجود دون إرادة خالقيها هي القوة التي سقط الأثينيون بكل وحشية في برائنها .

فما الذي كان ممكنا عمله ؟ كان التنظيم القبلى القديم عاجزا عن مواجهة السطوة المنتصرة للنقود بل عاجزا حتى عن الإحتفاظ بكيانه في ظلها. ولكن قوة النقود الجديدة كانت موجودة ولم تكن الرغبات الدينية أو الأمنيات بعودة الأيام الجميلة الماضية لتستطيع طرد النقود والربا خارج دائرة الوجود . كما أصابت النظام القبلى ضربات أخرى أقل أهمية فقد زاد الإختلاط بين أعضاء الفروع والأخوّات المختلفة في كل أتيكا وخاصة في مدينة أثينا من جيل إلى جيل ورغم أنه كان محظورا على الأثيني أن يبيع مسكنه لأحد خارج سلالته فقد سمح له ببيع أرض لغير أعضاء السلالة .

وكان تقسيم العمل بين مختلف فروع الإنتاج من زراعة إلى حرف يدوية إلى تجارة وملاحة وغيرها ، قد ازداد نموا مع تقدم الصناعة والتجارة . وكان الشعب حينئذ مقسما إلى مجموعات محددة إلى درجة واضحة ، وكان لكل مجموعة عدد من المصالح العامة الجديدة لم يكن لها مكان في السلالة أو الأخوّة ولذلك اضطرتهم هذه المصالح إلى خلق مناصب جديدة ترعاها . وازداد عدد العبيد زيادة ملحوظة حتى فاق عدد الأثينيين الأحرار في هذه المرحلة المبكرة . ولم يكن النظام القبلى في الأصل يعرف الرق ولذلك فقد كان جاهلا بأى وسيلة من وسائل

السيطرة على تلك الكتلة من العبيد . وأخيرا اجتذبت التجارة عددا كبيرا من الأجانب الذين توطنوا فى أثينا لسهولة كسب النقود بها . وطبقا للنظام القديم لم يكن لهؤلاء الأجانب أى حقوق أو حماية من القانون فظلوا مصدرا أجنبياً للقلق بين الشعب .

وباختصار كان النظام القبلى يقترب من نهايته وكان المجتمع يزداد خروجا عن نطاقه كل يوم فقد كان نظاماً أعجز من أن يواجه حتى أبشع الشرور التى ترتفع أمام عينيه . وكانت الدولة قد نمت فى نفس الوقت فى هدوء وخلقت المجموعات الجديدة التى تكونت نتيجة تقسيم العمل بين المدن والريف أولا ثم بين مختلف فروع الصناعة ، خلقت هذه المجموعات أجهزة جديدة لحمايتها . وأنشئت مناصب عامة من كل نوع ، وعندئذ إحتاجت الدولة الجديدة قبل كل شىء إلى قوات مسلحة خاصة بها وكانت هذه القوات أول الأمر قوات بحرية لأن الأثينيين كانوا ملاحين ، وكان الغرض من هذه القوات استخدامها من وقت لآخر فى الحروب الصغيرة والدفاع عن السفن التجارية . فى وقت غير معين بالضبط قبل أيام سولون أنشئت الـ naucraries وهى أحياء إقليمية صغيرة عددها إثنا عشر فى كل قبيلة ، وكان على كل حى منها أن يجهز سفينة حربية وفارسين . وكان هذا التنظيم عدوانا مزدوجا على النظام القبلى، فمن ناحية خلق قوة عامة مستقلة عن الرجال المسلحين فى القبائل، ومن ناحية أخرى فقد كان ذلك هو أول تقسيم إقليمى للشعب تحقيقا للأغراض العامة دون نظر لتقسيمات المجموعات المتصلة بصلة القرابة ، وسنرى ما يعنى ذلك فيما بعد .

وحيث أن النظام القبلى لم يستطع مساعدة الشعب المستغل فقد أصبح الشعب ينظر للدولة الصاعدة وحدها وأعطته الدولة هذه المساعدة

فى شكل دستور سولون بينما أخذت تقوى نفسها على حساب النظام القبلى . وقد بدأ سولون [ولا تعنينا هنا الطريقة التى تم بها اصلاحه سنة ٥٩٤ ق.م] المجموعة المسماة بالثورات السياسية بالتدخل فى نظام الملكية . وقد كانت الثورات حتى الآن عبارة عن حماية نوع من الملكية ضد النوع الآخر منها ، ولم تكن تحمى نوعا من الملكية إلا بالاعتداء على النوع الآخر ففى الثورة الفرنسية مثل ضحى بالملكية الإقطاعية فى سبيل الملكية البورجوازية . ولكن ثورة سولون كانت عبارة عن تضحية ملكية الدائنين فى سبيل ملكية المدينين فقد ألغيت الديون ببساطة

ولسنا نهتم هنا بالتفاصيل الدقيقة ، ويقول سولون فى أشعاره أنه ألغى حقوق الرهن من الأرض المرهونة ومكن كل الذين بيعوا فى الخارج كعبيد وفاء لديونهم من العودة إلى بلادهم . ولم يكن ممكنا أن يتم ذلك إلا بانتهاك صريح لحق الملكية . ولما كان موضوع كل الثورات السياسية هو حماية نوع من الملكية ضد النوع الآخر فإن حماية الملكية الخاصة طوال الألفين وخمسمائة عام من تاريخها كانت عبارة عن انتهاك لحقوق الملكية .

وكان لابد من إيجاد طريق لمنع إعادة إستعباد الأثينيين الأحرار . وقد تحقق ذلك أولا بوسائل عامة مثل إلغاء العقود التى تنص على رهن شخص المدين للدائن . كما حدد حد أقصى لما يستطيع الشخص امتلاكه من الأرض وكان الغرض من ذلك هو الحد من استيلاء النبلاء على أراضى الفلاحين. ثم تلا ذلك إصلاح دستورى تعتبر أهم تفصيلاته بالنسبة لنا هى ما يأتى :

زاد عدد أعضاء المجلس إلى ربعمائة عضو يمثل كل قبيلة مائة ، ويلاحظ أن القبيلة هنا مازالت معتبرة هى الأساس ولكن ذلك كان الجانب الوحيد

الذى أخذ من النظام القبلى القديم . ثم قسم سولون المواطنين إلى أربع طبقات طبقا لمساحة الأرض التى يملكونها ومحصولها . وقد كان الحد الأدنى للمحصول بالنسبة للطبقات الأولى هو خمسمائة وثلاثمائة ومائة وخمسين medimni من الحبوب على التوالى [ال medimni يساوى ٤١ لترا] . وكان من يملك أرضاً يقل محصولها عن ذلك أو لا يملك أرضاً على الإطلاق ينتمى للطبقة الرابعة . وكان أعضاء الطبقات الثلاث الأولى هم أصحاب الحق وحدهم فى شغل المناصب وكانت المناصب العليا قاصرة على الطبقة الأولى . ولم يكن للطبقات الأربع إلا حق التكلم والتصويت فى الجمعية الشعبية . وكانت كل المناصب تملأ بالإنتخاب وعلى شاغليها تقديم حساب عن أعمالهم . وكانت الطبقة الرابعة هى الأغلبية العددية ، وتجـــددت الأرستقراطية جزئياً فى شكل إمتيازات بسبب الثروة ولكن الشعب استرد القوة الفعالة . كما كونت الطبقات الأربع أسس إعادة تنظيم القوات المحاربة ، وكانت الطبقتين الأولتين تكونان الفرسان والطبقة الثالثة تقوم بإعداد الفرق الحربية الثقيلة والرابعة تقوم بإعداد الفرق الحربية الخفيفة بدون سلاح أو تعمل فى البحرية ويحتمل أن أفرادها كانوا يتناولون مرتبات . وعلى ذلك فإن الدستور قد قدم نظاماً جديدا تماما هو الملكية الخاصة . وكانت حقوق وواجبات المواطنين تتدرج طبقا لمساحة الأرض المملوكة لهم . وحيث أن الطبقات المالكة قد كسبت النفوذ فقد دفنت علاقات الدم القديمـــة فى التراب وعانى النظام القبلى هزيمة أخرى .

وإن تدرج الحقوق السياسية طبقا للملكية لم يكن نظاما لاغنى للدولة عنه ، ربما كان ذلك النظام مهما فى التاريخ الدستورى للدولة ، ولكن ، دولا عظيمة ونامية نموا كاملا قامت دون أن تلجأ لمثل هذا النظام ،

وفى أثينا نفسها قام هذا النظام بدور إنتقالى فقط ، فمنذ وقت أرستيدس كانت كل المناصب مفتوحة أمام جميع المواطنين .

وفى خلال الثمانين سنة التالية سار المجتمع الأثينى تدريجيا فى الطريق الذى تطور فيه فى القرون التالية . فقد أوقفت عمليات الربا فى الأراضى وهى العمليات التى كانت موجودة قبل سولون ، كما حددت ملكية الأراضى ، وأصبحت التجارة والحرف اليدوية والفنون هى الفروع المسيطرة فى الحياة العملية خاصة بعد أن اتسع نطاقها مع نمو عمل العبيد ، كما تقدم التعليم .

وبدلا من إستغلال الأثينيين لمواطنيهم بالطرق الوحشية السابقة قاموا باستغلال العبيد وغير الأثينيين ، وازدادت الثروة المنقولة والنقود والعبيد والسفن زيادة كبيرة ، وبدلا من أن تتخذ هذه الثروات وسيلة لشراء الأراضى كما كان الحال فى الفترة الأولى مع وجود حدود الملكية أصبحت هذه الثروات غاية فى حد ذاتها . وقد كان ذلك سببا فى ظهور منافسة الطبقة الصناعية والتجارية الجديدة لطبق النبلاء القديمة . كما كان سببا فى حرمان النظام القبلى القديم من آخر نقط إرتكازه ، فقد أصبح أعضاء الفروع والأخوات والقبائل مبعثرين فى كل أنحاء أتيكا وأصبحوا يعيشون مختلطين مع بعضهم كلية ولذلك أصبحت هذه الفروع والأخوات عديمة الفائدة كأجهزة سياسية ، كما أن عددا كبيرا من المواطنين الأثينيين لم يكونوا ينتمون لأى سلالة فقد كانوا مهاجرين وتبنتهم صفه المواطن ، وبجانب ذلك كان هناك عدد مضطرد الزيادة من المهاجرين الأجانب الذين يتمتعون بالحماية .

وفى هذه الأثناء ظهر الصراع بين الجماعات ، فقد حاول النبلاء

إستعادة إمتيازاتهم السابقة وإستعادوا سيادتهم لوقت قصير حتى ثورة كليستينس سنة ٥٠٩ ق.م التى أسقطتهم نهائيا وبسقوطهم سقطت البقية الباقية من النظام القبلى .

وقد تجاهل كليستينس فى دستوره الجديد القبائل الأربعة القديمة المكونة من الفروع والاخوات . وشغل مكانهم بتنظيم جديد كلية مؤسس على تقسيم المواطنين طبقاً لمكان الإقامة الذى حددته الأحياء الإقليمية الصغيرة «naucrArios» . وأصبح العامل الحاسم هو مكان الإقامة وليس عضوية إحدى القبائل . ولم يقسم الشعب بل قسم الإقليم وأصبح السكان من الناحية السياسية من ملحقات الإقليم .

وقسم كل إقليم أتيكا إلى مائة منطقة « deme » تحكم كل منها نفسها بنفسها . وكان مواطنو كل منطقة ينتخبون رئيسهم الرسمى « demarch» وخازن أموال وثلاثين قاضيا مع إدارة للعدالة فى حالات قليلة ، وكان لهم معبدهم الخاص وإلههم الذى يحميهم [ويسمى heros] وكانوا ينتخبون كهنة هذه الآلهة . وكانت السلطة العليا فى الإقليم هى جمعية المواطنين ، ويقول موجان بحق أن هذا النظام نسخه طبق الأصل من نظام الأقاليم الأمريكية التى تحكم نفسها بنفسها . وإن الدولة الحديثة لتنتهى فى أعلا نمو لها إلى الوحدة التى بدأت بها الدولة فى أثينا .

وتكونت من كل عشرة من هذه الأقاليم قبيلة تختلف عن الشكل القبلى القديم وأصبحت تسمى قبيلة محلية «ortostamm» . ولم تكن القبيلة المحلية جهازا يحكم نفسه بنفسه فقط بل كانت أيضا جهازا عسكريا ، وكانت تنتخب رئيسا لها يسمى « phylarch » يقود الفرسان وتنتخب آخر يسمى« taxiarch »يقود الفرق العسكرية وآخر يسمى «strategos»

يقود كل الفرق الموجودة بإقليم القبيلة . وكانت القبيلة تجهز خمس سفن حربية بملاحيها وقائدها ، وتعبد أحد آلهـة أتيكا ، وكانت تعرف باسم هذا الإله باعتبارها حارسة قديسيه . كما كانت كل قبيلة تنتخب خمسين عضوا لمجلس أثينا .

وكان إتمام هذه الأعمال هو الدولة الأثينية التى يحكمهـا مجلس من خمسمائة عضو منتخبين من القبائل العشرة ، وفى الفترة الأخيرة كانت الجمعية الشعبية تنتخبهـم وكان لـكل أثينى أن يحضر هذه الجمعية الشعبية ويدلى بصوته فيها . وكان الرؤساء وغيرهم من الرسميين يشغلون مختلف فروع الجهاز الإدارى والمحاكم . ولم يكن فى أثينا أى شخص رسمى يملك سلطة تنفيذية عليا .

وبهذا الدستور الجديد ، وبانضمام عدد كبير من التابعين الذين كان بعضهم مهـاجرين وبعضهم عبيدا معتقين ، أصبحت أجهزة التنظيم القبلى القديم محرومة من الأعمال العامة وصارت بمثابة اتحادات خاصة وجمعيات دينية ، ولـكن نفوذها الأدبى استمر مدة طويلة ثم اختفى تدريجيا . وكان ذلك واضحا فى دستور الدولة الذى جاء فيما بعد .

وقد رأينـا أن وجود سلطة عامة منفصلة عن الشعب هى خاصية أساسية للدولة . وفى ذلك الوقت لم تـكن أثينـا تملك إلا قوة مسلحة وبحرية مزودة بالرجال من الشعب رأسا . وكان ذلك يضمن لهـا الحماية ضد الأعداء الخارجيين ويحتفظ بالعبيد تحت السيطرة وقد كان العبيد فى ذلك الوقت يكونون الأغلبية الـكبرى من السكان . وبالنسبة للمواطنين وجدت هذه القوة العامة أولا فى شكل قوة بوليسية كانت قديمة بقـدم الدولة ، فى نفس الوقت الذى أنشأ فيه الأثينيون دولتهم أنشئوا قوة

بوليسية ، بوليس حقيقي من المشاه والخيالة المسلحين . وكانت هذه القوة البوليسية مكونة من العبيد . وكان الأثيني يعتبر الخدمة في البوليس عملا مهينا ولذلك كان يفضل أن يقبض العبد المسلح عليه من أن يقوم بهذا العمل المخزى بنفسه ، وكان ذلك تعبيرا عن العقلية القبلية القديمة ولم تكن الدولة تستطيع أن توجد دون قوة بوليسية ، ولكنها كانت دولة لاتزال فتية فلم تستطع أن تضمن لنفسها بعد الإحترام الكافي الذى يأخذ مكانه فى وضع كان كريها بالنسبة للحياة القبلية القديمة .

أما تلاؤم هذه الدولة التى اكتمل الآن شكلها الخارجى الأساسى مع الظروف الإجتماعية الجديدة للإثينيين فيتضح من النمو السريع للثروة والتجارة والصناعة . أما الصراع الطبقى الذى كان يرتكز عليه النظام الإجتماعى والسياسى فلم يعد بين النبلاء والعامة وإنما بين العبيد والأحرار وبين التابعين والمواطنين . وعندما كانت أثينا فى قمة ازدهارها كان العدد الكلى للمواطنين الأحرار بما فى ذلك النساء والأطفال حوالى تسعين ألفاً ، وكان عدد العبيد من الجنسين حوالى ثلاثمائة وخمسة وستين ألفا ، وكان عدد التابعين أى المهاجرين والعبيد المعتقين خمسة وأربعين ألفا وعلى ذلك فقد كان هناك ثمانية عشر عبدا على الأقل فى المتوسط لكل مواطن بالغ من الذكور وإثنين من التابعين . وقد كان هذا العدد الكبير من العبيد يعمل فى المصانع الواسعة تحت رقابة المديرين . ومع نمو التجارة والصناعة إزداد تركيز الثروة فى أيدى قليلة وافتقرت كتلة المواطنين الأحرار وكان عليها أن تختار بين الإشتغال بالحرف اليدوية ومنافسة عمل العبيد [الذى كان يعتبر مهينا كما كان قليل الربح] أو أن تختار الفقر المدقع . وفى ظل الظروف الموجوده اختارت المحل الثانى ، وحيث

أن هذه الجماهير كانت الأغلبية فقد جرت معها كل الدولة الأثينية إلى الحضيض. ولم تكن الديمقراطية هى سبب إنهيار أثينا كما يحاول المدرسون الأوربيون الراكعون أمام الملوك أن يوهمونا، ولكن السبب كان الرق الذى حط من شأن عمل المواطنين الأحرار.

ويعتبر قيام الدولة عند الأثينيين المثل الحى لجهاز الدولة على العموم لأنه أخذ مكانه بشكل خالص دون تدخل العنف الداخلى أو الخارجى [مع استثناء فترة الإغتصاب القصيرة التى قام بها بيسيسراتس ولم تترك وراءها أثرا]، ومن ناحية أخرى كانت الدولة الأثينية تمثل قيام شكل مكتمل النمو للدولة هو الجمهورية الديموقراطية التى نبعت مباشرة من المجتمع القبلى، كما تعود أهمية هذا الشكل من الدولة إلى أننا مزودين بالتفصيلات الكافية عنه.

الفصل السادس

السلالة والدولة فى روما

طبقا لما جاء بالأسطورة الخاصة بتأسيس روما ، تم الاستقرار الأول عن طريق عدد من الفروع اللاتينية (وعددها مائة كما تقول الأسطورة) توحدت فى قبيلة واحدة . وتقول الأسطورة أيضا أن قبيلة sabellibn المكونة بدورها من مائة فرع أعقبتها ، وأخيرا أعقبتهما قبيلة ثالثة من عناصر مختلفة عددها أيضا مائة . ويظهر من الأسطورة لأول وهلة أن السلالة وحدها هى التى كانت مكونة تكوينا طبيعيا ، وأن السلالة نفسها فى حالات كثيرة كانت مجرد فرع من سلالة أُم موجودة فى موطنها الأصلى . وكانت القبائل مكونة بطريقة صناعية ورغم ذلك كانت فى معظمها مكونة من عناصر متصلة بصلة القرابة ، وليس من المستبعد أن قبيلة قديمة كانت نواة هذه القبائل الثلاث . وكانت الأخوة لدى الرومان تشمل عشر فروع فى كل قبيلة وكانت تسمى Curia . وعلى ذلك كان هناك ثلاثون أخوة .

ومن الحقائق المسلم بها أن السلالة الرومانية كانت نظاما مماثلا للسلالة الإغريقية ، وحيث أن السلالة الإغريقية كانت تنظيما أساسيا للوحدة الإجتماعية التى كان شكلها البدائى هو السائد لدى الهنود الحمر بأمريكا ، فكذلك كانت السلالة الرومانية ، ويمكن لذلك أن نتناولها باختصار .

وفى الأوقات الأولى لتأسيس روما على الأقل كان نظام السلالة الرومانية كما يأتى :

(١) حقوق متبادلة فى الميراث من الأقارب المتوفين حتى تبقى الأملاك فى السلالة . وحيث أن الإنتساب للأب كان القاعدة فى السلالة الرومانية كما كان الحال لدى الإغريق ، فإن ذرية الإناث كانت مستبعدة من السلالة . وطبقا لقانون الألواح الإثنى عشر وهو أقدم قانون مكتوب فى روما كان للأبناء الطبيعيين الحق الأول فى الميراث ، وفى حالة عدم وجودهم كان لأقارب ذرية الرجل « agnates » حق الميراث وعند عدم وجودهم يكون الحق للسلالة . وفى جميع الحالات كانت الملكية تبقى فى السلالة ، وهنا نلاحظ التطبيق التدريجى للحقوق القانونية فى السلالة والتى سببتها الثروة المتزايدة والزواج الحديث ، فالحقوق التى كانت متساوية فى الأصل بين كل أعضاء السلالة اقتصرت على أقارب ذرية الرجل أولا ثم إقتصر الحق بعد ذلك على الأولاد وذريتهم من ناحية الأب . ويظهر ذلك فى قانون الألواح الإثنى عشر .

(٢) مقبرة عامة ، فالسلالة المنتسبة للأب فى هجرتها إلى روما أعطيت قطعة أرض ومقبرة فى المدينة . ونقرأ فى قصص روما أيام حكم أوجستس أن رأس فاروس الذى سقط فى غابة تيوتوبرج أحضر إلى روما وأدخل فى منطقة السلالة ، ومعنى ذلك أن سلالته كانت لا تزال تملك مقبرتها الخاصة .

(٣) حفلات دينية مشتركة ، وهى معروفة جيدا وكانت تسمى sacra gentilitia .

(٤) إلتزام بعدم الزواج من السلالة ، ولم يكن هذا الإلتزام مكتوبا

فى قانون فى روما ولكنه كان عادة سائدة ، وقد وصلت إلينا ألقاب لا حصر لها للأزواج والزوجات فى روما ليس بينها إطلاقا لقب زوج وزوجة مشترك ، ويثبت قانون الميراث نفسه هذه القاعدة .

وقد كانت المرأة تفقد بزواجها حقوقها الموروثة وتترك سلالتها ولم يكن فى استطاعتها أو أولادها وراثة ممتلكات أبيها أو سلالته وإلا فقدت سلالة الأب ملكيتها . وتؤكد هذه القاعدة أن المرأة لم يكن يسمح لها بالزواج من سلالتها .

(٥) ملكية مشتركة فى الأرض ، وقد كان ذلك يحدث دائما فى الأوقات البدائية عندما قسمت ملكية القبيلة لأول مرة ، وقد كان جزء من الأرض لدى القبائل اللاتينية فى حيازة القبيلة وجزء فى حيازة السلالة وجزء مملوك للأسرة التى كانت تشبه العائلة الزوجية بالمعنى الحديث . وقد كان رومولوس أول من قسم الأرض بين الأفراد بمعدل هكتار لكل منهم [الهكتار = ٢ gugera رومانية] . وفيما بعد كانت هناك أراضى لا تزال فى حيازة الفروع غير الأراضى المملوكة للدولة والتى يدور كل التاريخ الداخلى للجمهورية عليها .

(٦) إلتزامات متبادلة بين أعضاء السلالة بتبادل المساعدة ، ولا يسجل التاريخ المكتوب إلا الفضلات البسيطة فى هذا الشأن ، فمنذ نشأة الدولة الرومانية إنتقل هذا الواجب إليها ، ويخبرنا التاريخ المكتوب أنه عندما اعتقل أبييوس كلوديوس أعلنت سلالته كلها بما فيها أعداؤه الشخصيون الحداد . وفى أثناء حرب اليونيك الثانية اتحدت الفروع لنجدة إخوانها الذين كانوا فى الأسر مع أن مجلس الشيوخ منعهم من ذلك .

(٧) الحق فى حمل إسم السلالة ، وقد ظل هذا الحق مطبقا حتى عهد الأباطرة . وكان يسمح للعبيد المعتقين بحمل إسم سلالة سادتهم السابقين دون أن تكون لهم حقوق السلالة .

(٨) الحق فى تبنى الأجانب فى السلالة ، وكان ذلك يتم بالتبنى فى إحدى عائلاتها (كما هو الحال عند الهنود الحمر) .

(٩) الحق فى إنتخاب وعزل الرؤساء . وفى أثناء الفترة الأولى لوجود روما كانت كل المناصب من الملك إلى أصغر منصب تملأ بالانتخاب أو التعيين . كما كانت الأخوة تنتخب كهنتها ونعتقد أن نفس الوضع كان سائدا بالنسبة للرؤساء القبليين« principes » ؛ ولا نعرف إن كانت القاعدة الخاصة باختيار المرشحين للرئاسة من نفس عائلة الرئيس السابق تطبق أم لا .

كان ذلك هو نظام السلالة فى روما . ومع إستثناء الإنتساب للأب كانت هذه السلالة نسخة طبق الأصل من السلالة الايروكيوسية، ونستطيع هنا أيضا تمييز السلالة الإيروكيوسية بوضوح . ويظهر الإضطراب الذى يسود معظم مؤرخينا بشأن مسألة النظام القبلى الرومانى من المثال التالى : يقول مومسن فى بحوثه الخاصة بالأسماء الرومانية الصحيحة فى عهدى الجمهورية وأوجستس [كتاب بحوث رومانية الصادر فى برلين سنة ١٨٦٤ جزء١] . يقول مومسن« الإسم فى السلالة لا يوجد فقط عن طريق الذكور بما فيهم الأشخاص المتبنين والقصر مع إستثناء العبيد طبعا ، ولكن يوجد الإسم أيضا عن طريق النساء . فالقبيلة [ال stamm كما يترجم مومسن كلمه gens] هى وحدة مشتقة من مجموعة حقيقية أو مختلقة من الأصول ومتحدة عن طريق طقوس دينية مشتركة ومقبره عامة ووراثة .

وكل الأفراد الأحرار بما فيهم النساء يعتبرون ضمن أفرادها . ولكن تحديد إسم السلالة الخاص بإمرأة متزوجة يسبب بعض الصعوبات .

ولم تكن هذه الصعوبات موجودة طالما ظلت النساء ملزمة بالزواج من سلالتها . وقد وجدت النساء لوقت طويل أن الزواج داخل السلالة أسهل من الزواج خارجها . وقد كان حق الزواج من خارج السلالة « gentis enuptio » يمنح كامتياز شخصى وليس كقاعدة عامة خلال القرن السادس لنشأة روما . ولكن حيثما وجد هناك مثل هذا الزواج من خارج السلالة فلا بد أن النساء فى العصور البدائية كانت تنتقل بسببه إلى سلالة الزوج . وليس هناك شيئا مؤكدا أكثر من أنه عن طريق الزواج الدينى القديم كانت المرأة تنضم تماما للوحدة القانونية والدينية الخاصة بزوجها وتترك قبيلتها هى وليس هناك من لا يعلم أن المرأة المتزوجة تفقد حقوقها الإيجابية والسلبية فى الميراث من سلالتها وتدخل فى نطاق سلالة زوجها وأولادها » . وإذا تبناها زوجها كإبنة له فكيف تظل منفصلة عن سلالته ؟

هذا ما قاله مومسن . وعلى ذلك فهو يدعى أن النساء الرومانيات المنتميات إلى سلالة معينة كن فى الأصل أحرارا فى الزواج داخل السلالة فقط ، وبناء على مايزعم فإن السلالة الرومانية كانت تسير على قاعدة الزواج داخل حدودها فقط وليس خارجها ، وهذه الفكرة التى تتعارض مع تجارب كل الشعوب الأخرى مؤسسة على نص فردى مختلف عليه ورد فى الـ livy [الكتاب رقم ٣٩ الفصل ١٩] الذى نص عليه مجلس الشيوخ سنة ٥٦٨ لنشأة روما أى سنة ١٨٦ ق. م. وتقول الفقرة المختلف عليها :

(uti feceniae hispalae datio, deminutio, gentis enuptio tutoris optio item esset quasi ei vir testamento dedisset, utique ei ing-

neuo nubere liceret, neu quid ei qui eam duxisset, ob id fraudi ignominiaeve esset) .

ومعنى الفقرة أن فسنيا هسبلا سيكون لها الحق فى التصرف فى ممتلكاتها وتقليل قيمتها والزواج خارج سلالتها واختيار حارس لها ، كما لو كان زوجها المتوفى قد منحها هذا الحق بوصية . وأنها سيسمح لها بالزواج من رجل حر ولن يكون ذلك شيئا شائنا بالنسبة للرجل الذى سيتزوجها .

ومما لاشك فيه أن فسنيا التى كانت أمه وأعتقت قد حصلت بمقتضى هذه الفقرة على إذن بالزواج من خارج السلالة ، ومما لا شك فيه أيضا أن الزوج كما يظهر من هذه الفقرة كان له حق منح زوجته هذا الحق بوصية ، ولكن خارج أى سلالة كان الزوج يستطيع منح زوجته حق الزواج ؟ سلالته أم سلالتها .

إذا كان للمرأة أن تتزوج من سلالتها كما يزعم مومسن فإنها كانت تبقى فى السلالة بعد الزواج ما دامت السلالة خاضعة لقاعدة الزواج من داخلها ومعنى ذلك أنه كان على الرجل أيضا أن يتزوج من داخل سلالته وإلا فلن يجد زوجة . وإذ سلمنا بذلك نصل إلى حاله فى الفقرة السابقة يكون للزوج فيها أن يمنح زوجته بوصية حقا لا يملكه هو نفسه مما يجعلنا أمام وضع قانونى غير معقول . وقد أدرك مومسن نفسه ذلك ولذا نراه يقول : « من المرجح أن الزواج من خارج السلالة كان يتطلب قانونا موافقة الزوج وموافقة كل أعضاء السلالة » . ونعتقد أن هذا الزعم فى منتهى الجرأة كما أنه يتعارض مع صريح نص الفقرة فمجلس الشيوخ يعطيها الحق كما لو كان نائبا عن زوجها فهو لا يعطيها أكثر أو أقل مما كان

الزوج يستطيع إعطاؤه ، ويوصى مجلس الشيوخ القناصل [1] الحاليين والمستقبلين والبريتورات [2] بأن يراعوا ألا تعانى أية متاعب من جراء إستعمال هـــذا الحق ولذلك فلا يمكن التسليم بإفتراض مومسن . وإذا إفترضنا أن إمرأة تزوجت رجلا من سلالة أخرى ولكنها بقيت فى سلالتها ، فطبقا للنص السابق كان لزوجها الحق فى السماح لها بالزواج من خارج سلالتها هى أى كان له الحق فى وضع شروط تتعلق بالشئون الخاصة بسلالة لا ينتمى هو إليها وهو وضع غير معقول ولا نحتاج لأدلة لإنكاره . وعلى ذلك فالتفسير الوحيد الصحيح للنص فى نظرنا أن المرأة فى زواجها الأول تزوجت رجلا خارج سلالتها فإنتقلت بالزواج إلى سلالة زوجها وهو ما يعترف به مومسن نفسه فى مثل هذه الحالات ، وبذلك يصبح النص واضحا إذ يعنى أن المرأة إنفصلت عن سلالتها بالزواج وتبنتها سلالة زوجها ولكنها تشغل وضعا خاصا فى سلالة الزوج لا يجعلها تستوى بأعضاء السلالة الأصليين ، وعندما يموت زوجها كانت ترث جزءا من ممتلكاته أى ممتلكات زميل لها فى السلالة ، ولما كان يجب على الممتلكات أن تبقى فى السلالة وأن المرأة لذلك يجب أن تضطر إلى الزواج من أحد أعضاء سلالة زوجها الأول حتى يتحقق ذلك ، فإذا وضع لذلك إستثناء فإن أكثر الناس إختصاصا بالسماح بذلك هو الرجل الذى أدخل المرأة فى السلالة بزواجه منها ونقل إليها هذا الجزء من أملاكه أى الزوج الأول فكان عندما يوصى لها بالزواج من خارج سلالته التى أصبحت سلالتها يعطيها الحق فى نقل الممتلكات التى ورثتها

---

(١) حكام روما فى ذلك الوقت . (المترجم)

(٢) مشرعى روما فى ذلك الوقت . (المترجم)

عنه إلى سلالة أخرى بالزواج من أحد أعضائها . أما بالنسبة للمرأة وعلاقتها بسلالة زوجها الأول فإن الزوج هو الذى أدخلها السلالة بزواجه منها ، فمن الطبيعى أن يكون هو صاحب الحق فى إخراجها من السلالة عن طريق السماح لها بالزواج من آخر . وعلى ذلك فتفسير النص يبدو واضحا ومعقولا إذا نظرنا للأمر كما فعل مورجان على أن السلالة كانت فى الأصل تسير على قاعدة الزواج من خارجها .

وهناك رأى آخر ربما وجد أكبر عدد من المؤيدين وهو أن النص السابق يعنى « أن الفتيات الإماء المعتقات (libertae) لا يستطعن دون إذن خاص أن يتزوجن من خارج السلالة أو أن يتخذن أى خطوة تؤدى لتركهن للسلالة مما قد يسبب أبسط خسارة لحقوق العائلة[1] .

وإذا كان هذا الرأى الأخير صحيحا فإن النص يثبت أقل من المعقول إذا راعينا حالة النساء الرومانيات الأحرار ، وما زال هناك مكان للكلام عن إلتزامهن بالزواج داخل السلالة .

وإن تعبير « enuptiogentis » أى الزواج من خارج السلالة ، لا يوجد إلا فى هذه الفترة المنفردة ولا يوجد فى أى مكان آخر من الأدب الرومانى كله . وتوجد كلمة enubere أى الزواج من الخارج، ثلاث مرات فقط فى الـ livy ولا تعود على السلالة . وإن الفكرة الوهمية التى تقول أن النساء الرومانيات كن ملزمات بالزواج داخل حدود السلالة فقط ، هذه الفكرة تدين بوجودها لهذه الفقرة وحدها ولكنها لا تجد ما يؤيدها ، لأنه إما أن تكون الفقرة خاصة بالموانع الخاصة

---

(١) لانج فى كتاب الرومان القدماء الصادر فى برلين سنة ١٨٥٦ جزء ــ ١ .

بالإماء المعتقات ولاعلاقة لها بالنساء الأحرار ، وإما أن الفقرة تنطبق على النساء الأحرار أيضا وذلك يثبت أن النساء عموما كانت تتزوج خارج السلالة وكانت تنتقل بالزواج إلى سلالة الزوج وعلى ذلك فالفقرة تعتبر حجة ضد مومسن فى صف مورجان .

وبعد حوالى ثلاثمائة عام من تأسيس روما كانت روابط السلالة لاتزال قوية لدرجة أن سلالة تسمى الفابيانز قامت بنفسها وبتصريح من مجلس الشيوخ بحملة ضد المدينة المجاورة « veu » ، ويقال أن ثلاثمائة وستة من الفابيانز ساروا وقتلوا فى كمين . وتركوا وراءهم ولدا واحدا ليحفظ السلالة .

وكما قلنا قبلا كانت كل عشرة فروع تكون أخوة وكانت الأخوة تسمى « Curia » وكانت لها وظائف أكثر أهمية من وظائف الأخوة لدى الإغريق . فكان لكل أخوة طقوسها الدينية الخاصة ومقدساتها وكهنتها .

وقد كون الكهنة كلهم إحدى جامعات روما للكهنة . وكانت كل عشرة أخوات تكون قبيلة ، ومن المحتمل أنه كان لكل قبيلة فى الأصل رئيس منتخب وقائد حربى وكبير كهنة مثل بقية القبائل اللاتينية . وكان الشعب الرومانى يتكون من القبائل الثلاثة السابق الإشارة إليها مجتمعة .

وعلى ذلك فهؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى الشعب الرومانى كانوا أعضاء السلالات والأخوات والقبائل فقط . وكان الدستور الأول لهذا الشعب كما يلى : —

شئون عامة يديرها مجلس الشيوخ المكون من رؤساء الثلاثمائة فرع (وكان نيبور أول من ذكر ذلك بدقة) وقد كان أكبر أعضاء الفروع سنا يسمونهم آباء «ratres» ، وقد كان مجلس الشيوخ «senato» (والكلمة مشتقة من senex أى الأكبر سنا) مكونا من رجال أسرة معينة فى كل سلالة جرت العادة باختيار أفرادها، وكانت هذه الأسر نواة الأرستقراطية الوراثية . وكانت هذه الأسر التى يختار منها الرؤساء بالوراثة تعتبر أبا للسلالة وتدعى الحق المطلق فى مقاعد مجلس الشيوخ وكل المناصب الأخرى . وبمرور الوقت أصبح الشعب يساهم فى هذه المناصب ، وقد جاء بالأسطورة الخاصة بتأسيس روما أن رومولوس منح مرتبة الآباء ومميزاتها لأول أعضاء ، فى مجلس الشيوخ ولورثتهم . وكانت لمجلس الشيوخ (مثل المجلس اللاتينى) سلطة البت فى شئون كثيرة والقيام بالمناقشة الافتتاحية للأمور الهامة وخاصة سن القوانين . وقد قررت الجمعية الشعبية (المسماة Comitia curiata أى جمعية الأخوّات) هذا النظام . وكان الشعب المجتمع فى الجمعية تجمعه الأخوّات وفى كل أخوّة تجمعه الفروع . وعند البت فى المسائل العامة كان لكل من الأخوّات الثلاثين صوت واحد . وكانت الجمعية الشعبية تقرأ وترفض القوانين وتنتخب كل شاغلى المناصب الرسمية بمـــا فى ذلك الـ rex الذى يعتبر بمثابة الملك . وكانت لها سلطة إعلان الحرب أما عقد السلم فمن حق مجلس الشيوخ . كما كان لها أن تنظر بصفتها محكمة عليا بناء على طلب الخصوم كل الحالات التى تصدر فيها عقوبة الإعدام ضد المواطنين الرومانيين . وبجانب مجلس الشيوخ والجمعية الشعبية كان هناك الـ rex الذى يماثل منصبه تماما منصب القائد العسكرى الإغريقى ولم يكن ملكا مطلقا كما حاول مومسن أن يصوره .

وكان الـ rex قائدا عسكريا وكبير الكهنة ورئيسا لمحاكم معينة . ولم تكن له وظائف مدنية أو أى سلطة على الحياة أو الحرية أو الأملاك الخاصة بالمواطنين إلا ما يترتب على سلطته الإدارية كقائد عسكرى أو سلطته فى تنفيذ الأحكام باعتباره الرئيس الأعلا للقضاء . ولم يكن منصب الـ rex وراثيا فقد كان أول الأمر ينتخب ربما بناء على تزكية من سلفه أو من جمعية الأخوّات ثم تقر انتخابه جمعية أخرى . وكان يمكن عزله ، يؤكد ذلك المصير الذى انتهى إليه تراكوينيوس سوبربوس .

وكما كان الإغريق فى العصر البطولى ، كان الرومان فى العصر المسمى بعصر الملوك يعيشون فى ديموقراطـــية عسكرية مؤسسة على الفروع والأخوّات والقبائل التى نمت فيها هذه الديموقراطية ومع أنه من المحتمل أن الأخوّات والقبائل كانت مكونة تكوينا صناعيا [أى غير مرتبطة بروابط الدم] فقد صبت فى قوالب تماثل القوالب الطبيعية الصحيحة للمجتمع التى نشأت فيه وما زال يحيط بها من كل جانب . ومع أن النبلاء الآباء كانوا قد ثبتوا مراكزهم فعلا ، ومع أن الـ reges [جمع rex][1] قد حاولوا تدريجيا توسيع نطاق سلطتهم فإن ذلك لا يغير الطابع الأصلى الأساسى للدستور .

وفى هذه الأثناء زاد تعداد السكان فى روما والأراضى الرومانية

---

(١) كلمة rex فى اللاتينية تساوى righ لدى السلتس والإيرلنديين أى زعيم قبلى وتساوى rīiks لدى الغال . وكان ذلك يعنى فى الأصل الرئيس القبلى أو السلالى وتثبت ذلك الحقيقة التى مؤداها أن الغال فى القرن الرابع كان لديهم تعبير خاص عن الملك فى الأوقات التالية وكان اسم القائد العسكرى لشعب بأكمله هو thiudans . وفى ترجمة ألفلا للانجيل نجد أن أرتكسركسس وهيرودوت لم يذكرا كلمة rliks بل thiudans ، كما كان لقب الامبراطور تيبريوس هو thiudinassus وليس reiki

التى اتسعت بالفتح ، وكانت هذه الزيادة ناتجة من الهجرة ومن المقيمين بالأقاليم التى أخضعت والتى كان معظمها لاتينيا . وكان كل سكان الأقاليم التابعة خارج نطاق الفروع و"الأخوات" والقبائل القديمة وعلى ذلك فلم يكونوا جزءا من الشعب الرومانى الخالص . وقد كانوا كأشخاص أحرار يستطيعون امتلاك الأراضى ودفع الضرائب والخدمة العسكريه . ولكن لم يكن لهم حق تولى المناصب العامة أو حق الاشتراك فى الجمعية الشعبية أو الاشتراك فى توزيع أراضى الدول المهزومة ، فقد كانوا يكونون الطبقة الدنيا المحرومة من كل الحقوق العامة . ونتيجة للزيادة المستمرة فى عددهم وتدريبهم العسكرى وتسليحهم أصبحوا تهديدا للشعب الرومانى الذى سد منافذه تماما فى وجه أى زيادة . ويبدو أن الأرض كانت توزع بالتساوى بين الشعب الرومانى وبين هذه الطبقة الدنيا بينما يبدو أن الثروة التجارية والصناعية كانت مركزه أساسا فى أيدى هذه الطبقة الدنيا مع أن هذه الثروة لم تكن قد تضخمت بعد .

ونظرا للظلام الدامس الذى يحيط بأصل أسطورة تأسيس روما — وقد زادت من هذا الظلام تفسيرات المؤلفين القانونيين — فمن المستحيل وضع تقرير دقيق عن وقت وسير وأسباب الثورة التى وضعت حدا للدستور القبلى القديم . والشىء الوحيد المؤكد هو أن أسباب الثورة تكمن فى الصراع بين الطبقة الدنيا سالفة الذكر والشعب الرومانى .

وقد أنشأ الدستور الجديد المنسوب إلى الـ rex المسمى سرفيوس توليوس [ويشابه الأنظمة الإغريقية وخاصة نظام سولون] ، أنشأ هذا الدستور جمعية شعبية جديدة تضم أو تستبعد كل أشباه الشعب الرومانى والطبقة الدنيا بناءا على إذا ما كانوا قد أدوا الخدمة العسكرية من عدمه . فكل الذكور القادرين على أداء الخدمة العسكرية كانوا

مقسمين إلى ست طبقات طبقا لثروتهم ، وكان الحد الأدنى للثروة فى الطبقات الخمس الأولى هو على التوالى ، مائة ألف آس وخمسة وسبعون ألف آس وخمسون ألفاً وخمسة وعشرون ألفا وأحد عشر ألف [وهى كما ذكر ديرود ولا مال تساوى حوالى ١٤ ألف ، ١٠٥٠٠ ، ٧ آلاف ، ٣٥٠٠ ، ١٥٧٠ ماركا ألمانيا على التوالى] . أما الطبقه السادسة وهى الطبقة العاملة المكونة ممن كانوا يملكون أقل من ذلك فكانت معفاة من الخدمه العسكرية والضرائب . وفى الجمعية الجديدة [أسمها Comitia Centuriata] كان المواطنون مقسمون إلى درجات على طريقة الجنود وإلى مجموعات « Contnrea » عدد كل منها مائة وكل مجموعة لها صوت واحد . وكان للطبقة الأولى ثمانون مجموعة والثانية إثنان وعشرون والثالثة عشرون وللرابعة إثنان وعشرون وللخامسة ثلاثون أما الطبقة السادسة فلم يكن لها إلا مجموعة واحدة . ويضاف إلى هذه المجموعات ثمانية عشر مجموعة للفرسان المكونين من أغنى الأغنياء . وعلى ذلك يكون العدد كله مائة وثلاثة وتسعون مجموعة ، وكانت الأغلبية المطلوبة سبعة وتسعون صوتا، وبذلك كان للفرسان والطبقة الأولى ثمانيةوتسعون صوتا أى الأغلبية ، وعندما كان الفرسان والطبقة الأولى يتحدون كانت القرارات الصحيحة تصدر حتى دون سؤال الطبقات الأخرى

وقد إنتقلت كل الحقوق السياسية إلى الجمعية الجديدة هذه . وكانت الأخوات والفروع المكونة لها لا تزال موجودة كما كان الحال فى أثينا ، ولكن إنحط شأنها حتى أصبحت بمثابة جمعيات خاصة ودينية وظلت بهذه الصفة مدة طويلة بينما سقطت جمعية الأخوات القديمة فى طى النسيان . ولكى تلغى القبائل الثلاثة القديمة من الدولة أنشئت أربع قبائل إقليمية تسكن كل قبيلة منها فى ربع المدينة ولها حقوق سياسية معينة .

وعلى ذلك ففى روما أيضا تحطم النظام الإجتماعى القديم المبنى على روابط الدم الشخصية حتى قبل إلغاء الملكية المزعومة ، وحل محله دستور جديد مبنى على التقسيم الإقليمى والإختلاف فى الثروة ، وقد كان دستور دولة بالمعنى الحقيقى . وكانت السلطة العامة تتكون من المواطنين الصالحين للخدمة العسكرية ، وكانت هذه السلطة العامة موجهة ضد العبيد والطبقة المسماه بالطبقة العاملة التى كانت محرومة من الخدمة العسكرية والحق فى حمل السلاح . وقد جاء الدستور الجديد بعد طرد آخر rex المسمى تراكوينيوس سوبربوس الذى كانت له سـلطة ملكية حقيقية إغتصبها . وقد وضع الدستور الجديد مكان الـ rex قائدين عسكريين يسميان قنصلين متساويين فى سلطتهما كما كان الحال عند الإيروكيوس) . وفى خلال تطبيق هذا الدستور تحرك كل تاريخ الجمهورية الرومانية بكل صراعة بين الرؤساء المسميين آباء (السابق ذكرهم) وبين الطبقة الدنيا ، تحرك هذا الصراع من أجل الإعتراف للطبقة الدنيا بحق تولى المناصب والمشاركة فى أراضى الدولة . وكان آخر إنحلال لطبقة النبلاء الآباء هو تحولها إلى الطبقة الجديدة المكونه من أصحاب الأراضى الواسـعة وملاك النقود الذين إبتلعوا تدريجيا كل أراضى الفلاحين الذين حطمتهم الخدمة العسكرية ، وكانوا يزرعون أرضهم بواسطة العبيد الذين جمعوا من أقاليم شاسعة مجاورة مما أقفر إيطاليا من السكان وركزهم فى روما ومما فتح الباب على مصراعية للحكم الإستعمارى وخلفائه من المتبربرين الألمان .

الفصل السابع

السلالة عند السلتس والألمان

يمنعنا بعد المسافة من الدخول فى شرح تنظيمات السلالة التى لا تزال موجودة فى شكلها الأصلى بدرجات متفاوتة عند معظم الشعوب التى لاتزال حتى اليوم فى مرحلتى الوحشية والبربرية ، كما يمنعنا من الدخول فى آثار هذه التنظيمات التى كانت موجوده فى التاريخ القديم للأمم المتمدنة فى آسيا : وحيث أن أشكالا مختلفة من هذه التنظيمات تقابلنا فى كل مكان فسنكتفى ببعض الشرح فى هذا الشأن :ـ

قبل الإعتراف بالسلالة ، قام بالإشارة إليها وشرح خطوطها الرئيسية الرجل الذى كان السبب الأكبر فى إساءة فهمها ، وهذا الرجل هو ميكلنان الذى كتب عن هـذا التنظيم عند الكالموس والسيركاس والساموبدز والشعوب الهندية الثلاثة ، الوارالين والماجارز والمونيبوريز . كما قام ماكسيم كوفالفسكى بوصف هـذا التنظيم الذى إكتشفه عند البشافز والفيفرز والفانيانز وغيرها من القبائل القوقازية . وسنقتصر هنا على كلمات موجزة عن السلالة لدى السلتس والالمان .

تظهر السلالة فى كامل حيويتها فى أقدم قانون للسلتس وصل إلينا ، وما زالت السلالة حية فى عقول العامة فى أيرلندا بعد أن حطمها الإنجليز بالقوة . وكانت السلالة فى قمة إزدهارها فى أواسط القرن الثامن عشر فى إسكتلندا ولم تستسلم إلا لأسلحة وقوانين ومحاكم الإنجليز . وما زلنا نجد

فى قوانين ويلز القديمة التى كتبت قبل الفتح الإنجليزى ببضعة قرون (قبل القرن الحادى عشر)، ما زلنا نجدها تتكلم عن حقول زراعية مشتركة فى قرى بأكملها ولكن فى حالات إستثنائية كبقايا لعادة سابقة. كان لكل عائلة خمسة آكرات (acres) لزراعتها الخاصة وفى نفس الوقت كانت قطعة أخرى من الأرض تزرع زراعة مشتركة ويقسم محصولها . وإذا حكمنا على الأمور بناء على الأمثلة الموجودة فى إيرلندا وإسكتلندا فلا يكون لدينا شك أن هذه الوحدات القروية كانت تمثل الفروع وتقسيمات الفروع، مع أن ابحاثا أجريت بشأن قوانين ويلز لا تؤيد ذلك مباشرة، ولكنى لا أستطيع التسليم بهذه الأبحاث لقدمها إذ تعود لسنة ١٨٦٩. وعلى كل فإن الشىء الذى تثبته المصادر الإيرلندية ومصادر ويلز هو أن العائلة المكونة من إثنين لم تكن قد أخلت مكانها تماما للزواج الحديث لدى السلتس فى القرن الحادى عشر ، ففى ويلز كان الزواج يعتبر قابلا للحل مالم تمض عليه سبع سنين، وحتى إذا لم يكن قد بقى على السبع سنوات سوى ثلاث ليالى كان فى إستطاعة أى من الزوجين حله وكانت أملاكهما فى هذه الحالة تقسم بينهما، وكانت المرأة هى التى تجرى القسمة والرجل هو الذى يختار. وكان أثاث المنزل يقسم طبقا لعادات فى منتهى الغرابة، فإذا كان الرجل هو الذى حل الزواج كان عليه أن يعيد أثاث الزوجة وأشياء قليلة أخرى وإذا كانت المرأة هى الراغبة فى الإفتراق تأخذ أقل من ذلك، وكان الرجل يأخذ إثنين من الأطفال وتأخذ المرأة واحدا هو الطفل الأوسط. وإذا تزوجت المرأة ثانية بعد الطلاق ثم أعادها زوجها الأول كانت ملزمة بأن تتبعه حتى ولو كانت قد وضعت قدمها فى فراش الزوج الثانى، ولكن إذا كان الرجل والمرأة قد عاشا معا سبع سنوات فكانا يعتبران زوجا وزوجة ولو لم يستوفيا شروط الزواج الشكلية. ولم تكن عفة الفتيات قبل الزواج تراعى ولم تكن حتى مطلوبة فالقواعد

التى تحكم هذا الموضوع غاية فى العبث ، متعارضة مع كل المعايير الأخلاقية البورجوازية . وإذا زنت المرأة كان من حق زوجها أن يضربها ، وكانت هذه هى إحدى الحالات الثلاث التى يحق الزوج ضرب زوجته بسببها دون أن يعاقب ، وإن ضربها فليس من حقه طلب توقيع أى عقوبة أخرى عليها حتى لا تعاقب عن نفس العمل مرتين .

أما الأسباب التى يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق بسببها دون أن تخسر حقوقها عند الإتفاق على الطلاق فتختلف عن ذلك ، فقد كانت رائحة الرجل الكريهه سببا كافيا للطلاق . وكانت الفدية النقدية التى تدفع للرئيس القبلى أو الملك لقاء تنازله عن الحق فى الليلة الأولى مع العروس منصوص عليها فى قوانينهم . وكان للمرأة حق التصويت فى الجمعية الشعبية وكانت ظروف مماثلة لذلك يحتمل أنها وجدت فى إيرلندا ، وقد كان الزواج الحديث هو السائد فيها فى ذلك الوقت ؛ كما كان للنساء إمتيازات سخية عند الطلاق لدرجة إعطائها مكافأة عن الخدمات المنزلية التى أدتها .

وكان للرجل « زوجة أولى » إلى جانب زوجات أخريات ، وعند تقسم ممتلكات المتوفى لم تكن هناك تفرقه بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين ، فالنظام القائم إذن هو صورة من العائلة المكونة من إثنين مطابقة لشكل الزواج السائد لدى هنود شمال أمريكا . ولا يعتبر ذلك شيئا غريبا على شعب كان أيام سيزار يعيش فى ظل الزواج الجماعى .

وقد جاء ذكر السلالة الأيرلندية ووصفها [وكانت القبيلة تسمى clainne أو clan] فى كتب القانون القديمة : كما وصفها فى القرن السابع

عشر الفقهاء الإنجليز الذين أرسلوا إلى إيرلندا لنقل أراضى القبائل إلى ملكية ملك إنجلترا . فإلى هذا الوقت كانت الأراضى مملوكه ملكية مشتركة للقبائل أو السلالات عدا الأراضى التى حولها الرؤساء القبليون إلى ملكيتهم الخاصة . وحينما كان أحد أعضاء السلالة يموت وتتفكك عائلته كان الرئيس القبلى [وكان الفقهاء الإنجليز يسمونه caput cognationis] يعيد توزيع كل أرض القبيلة من جديد بين باقى العائلات الموجودة .

ولابد أن هذا التوزيع كان يجرى طبقا لقواعد مماثلة للقواعد التى كانت سائدة فى ألمانيا . وما زلنا نجد للآن [1] قرى قليلة [وقد كان عددها كبيراً جداً منذ حوالى خمسين سنة] حقوقها مشتركة وكل الفلاحين مستأجرين للأرض التى كانت فيما مضى ملكية مشتركة للسلالة وإستولى عليها المستعمرون الإنجليز ، ويدفع الفلاحون إيجارا كل منهم عن قطعة، ولكن كل الأرض الصالحة للزراعة والمراعى مشتركة ومقسمة حسب حالتها إلى قطع مستطيلة « gewanne » ويمنح كل فرد جزءا من القطعة .

أما المخازن والحظائر ونحوها فمشتركة ، ومنذ حوالى خمسين سنة كانت إعادة تقسيم الأرض لا تزال تجرى بصفة سنوية أحيانا . وتشبه الخريطة الخاصة بمثل هذه القرى خرائط الوحدات الزراعية العائلية الألمانية « gehoferschaft » ، وكانت السلالة لا تزال حية فى روحها الطائفيه ، ومازال أغلب الفلاحين الإيرلنديين منضمون إلى طوائف مؤسسة على عوامل تبدو سخيفة وغير مفهومة للإنجليز . والغرض الوحيد لهذه الطوائف هو التجمع لممارسة الرياضة العامة وهى أن يتبادلوا الضرب القاسى .

---

(١) أواخر القرن التاسع عشر . (المترجم)

وفى المدة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٩ كانت الأغلبية العظمى من السكان فى إقليم موفاغان يحملون أسماء أربع أسرات إ ى أنهم ينحدرون من أربع فروع أو قبائل [١] .

ويبدأ إنهيار النظام القبلى فى إسكتلندا من تاريخ إخضاع ثوار سنة ١٧٤٥ ، أما أى حلقة فى سلسلة النظام القبلى تمثلها القبيلة الإسكتلندية فذلك مايحتاج لمزيد من التحريات . وتوضح قصص والترسكوت القبيلة الإيرلندية أمام أعيننا ، فهى كما يقول مورجان « مثل رائع للسلالة فى تنظيمها وفى روحها وشرح دقيق لسلطة الحياه القبلية على أعضاء القبيلة ، فنحن نجد لديهم العداء المتبادل بين القبائل والإنتقام للدم وإنفراد كل فرع بإقليم خاص به وزراعة الأرض بطريقة جماعية وإخلاص عضو القبيلة لرئيسه والإخلاص المتبادل بين الأعضاء ، وكان النظام السائد لديهم هو الإنتساب للأب وبذلك يظل أبناء الرجل فى القبيلة وينتقل أبناء المرأة لقبيلة أخرى .

---

(١) خلال أيام قليلة قضيتها فى إيرلنـدا تحققت إلى أى حد ما زال سكان الريف يعيشون فى ظل الاعتبارات القبليـة . فمالك الأرض الذى يعمل الفلاح أجيرا لديه ما زال الفلاح يعتبره كرئيس قبلى يشرف على الزراعة لمصلحة الجميع ويحصل على نصيبه من الفلاح فى شكل إيجار وعليه أن يساعد الفلاح عند الحاجة ، ويعتبر كل شخص فى ظروف حسنة ملزما بمساعده جيرانه الفقراء حينما يكونون فى حاجة إليه .

ومثل هذه المسـاعدة لا يعتبرونها صدقة فهى حق عضو القبيلة الفقير على العضـو الغنى أو الرئيس ، ولذلك كان الفقهاء والاقتصاديون السياسيون يشكون من إستحالة إدخال أفـكار الملـكية البورجوازيه الحديثة فى عقول الفلاحين الايرلنديين لخروجها عن نطاق تصورهم . ولذلك فلا عجب فى أن نرى أن كثيرا من الايرلنديين (بمثل هذه العقليـة) كانوا مضـطربين جدا حينما هاجروا إلى المدن الانجليزية والأمريكيـة وسط أناس مختلفون تماما فى عقليتهم ومعاييرهم الأخلاقية . (المؤلف)

وتثبت عائله الـ picts الملكية أن الإنتساب للأم كان سائدا فيما مضى فى إسكتلندا ، فقد كتب بد أن الوراثة لذرية الأنثى كانت هى المطبقة . وهناك من الدلائل مايشير إلى أن العائلة البونالوانية كانت موجودة لدى الإسكتلنديين وسكان ويلز حتى العصور الوسطى ، يؤيد ذلك حق الزعيم القبلى فى الليلة الأولى مع العروس بإعتباره الممثل الأخير للأزواج الجماعيين ، وكان الزعيم يستطيع ممارسة هذا الحق مع كل عروس ما لم تكن قد دفعت فدية عن ذلك .

... ...

ومن الحقائق الثابتة أن الألمان كانوا منتظمين فى فروع حتى وقت هجرة الشعوب إلى ألمانيا . ومن المؤكد أنهم إستقروا فى المنطقة الواقعة بين أنهار الدانوب والرين والفستولا وبحر الشمال قبل وقتنا الحالى بقرون قليلة، فالسمبريين والتيوتونيين كانوا لايزالون فى دور الهجرة ولم يستقر السويفيين حتى أيام سيزار وقد قرر سيزار أنهم كانوا منتظمين فى فروع وقرابات « gentibus Cognationibusque » ، ويقول رومانى من سلالة جوليا أن كلمة gentibus تعنى معنى محددا لا إلتباس فيه . وينطبق هذا الحكم على كل الألمان بما فيهم الذين استقروا فى الأقاليم الرومانية المقهورة إذ يظهر أنهم كانوا لايزالون يعيشون فى ظل نظام الفروع ، ويؤكد القانون الألمانى أن القوم المستقرين فى الأراضى التى فتحت جنوب نهر الدانوب كانوا منتظمين فى فروع « genealogia » وهى كلمة تستعمل بنفس المعنى الذى استعملت به كلمة mark أو «dorfgenossenschaft» فيما بعد أى مجتمع قروى . ومنذ وقت قريب قال كوفالفسكى أن هذه الـ genealogia كانت وحدات عائلية كبيرة كانت الأرض مقسمة بينها

وأدت إلى نمو المجتمعات القروية فيما بعد . وقد كان لدى اللانجوباردز [قبائل شمال ألمانيا] نفس النظام الذى استعمل القانون الألمانى فى وصفه كلمة genealogia . وكون أن ذلك يمثل السلالة أو الوحدة العائلية حقيقة أم لا فهى مسألة مازالت محتاجة لتحريات أكثر .

وإن عبارات اللغة لتجعلنا فى شك فيما إذا كان لدى الألمان تعريف عام للسلالة ، وإذا كان لديهم فأى تعريف ، هل هو كلمة genos الإغريقية أم كلمة gens اللاتينية أم هو مشتق من كلمة kuni بلغة الغال أم كلمة künne المستعملة فى وسط ألمانيا ، وهل يعنى نفس المعنى أم لا . وإن الألفاظ المستعملة للدلالة على المرأة « wonan » تقودنا وقت الانتساب للأم ، لأنها مشتقة من نفس الأصل أى كلمة gyrê الإغريقية وكلمة zena السلافية وكلمة guina بلغة الغال وكلمة kona ، kuna النرويجية القديمة . ونجد عند اللانجوباردز والبورجونديين أن المستعمل هو لفظة fara المشتقة من الأصل الإفتراضى fisan أى الولادة أو الإنتاج ، وأفضل ردها إلى كلمة farna وهى الأصل الأكثر وضوحا وتعنى التوهان أو الضلال وهو تعبير يعين قسما محددا من الأقسام القبلية المكونة من الأقارب ، وهو تعبير كان ينطبق تدريجيا على المجتمع القبلى نفسه طوال القرون التى كان العلم فيها تائها وضالا ، وقد استعمل هذا التعبير فى الشرق أولا ثم فى الغرب .

وهناك كلمة sibja بلغة الغال ، وكلمة sib فى اللغة الأنجلوسكسونية ، وكلمه sippia أو sippa أى القريب بلغة شمال ألمانيا القديمة . أما اللغة النرويجية القديمة فكان بها لفظ Sifjar أى أقارب وهى تدل على الجمع أما مفردها وهو Sib فيعنى إله . وأخيرا فهناك تعبير آخر موجود فى

أغنية هيلد براند . فإذا كان هناك اصطلاح ألمانى عام للسلالة فنرجح أنه Kuni بلغة الغال .

وقد كان الفرسان والمشاة حاملى الرماح عند الألمان تجمعهم فى أرض المعركة فروعهم العائلية كما كان الحال عند المكسيكيين والإغريق ويقول تاسيتس « أنهم يجمعون عن طريق العائلات والقرابات » وفى أيام تاسيتس كانت السلالة قد انتهت ولم تعد منذ وقت طويل أساس المجتمع فى روما .

وهناك فقرة قالها تاسيتس فى غاية الأهمية إذ قال « إن الخال يعتبر إبن أخته ابنا له » ويقول البعض أن رابطة الخال بإبن أخته كانت أقوى من رابطة الأب بإبنه لدرجة أنه حينما كانت تطلب رهائن كان ابن الأخت يعتبر ضمانا أكثر من الإبن ، ولاشك أن ذلك أثر قوى للإنتساب للأم الذى كان أصل السلالة[1]

وعندما كان أحد أعضاء السلالة يقدم ابنه كرهينة لإلتزام عليه ثم يصبح الإبن ضحية إخلال أبيه بإلتزامه فقد كان ذلك يعتبر من شأن الأب وحده ، ولكن إذا كان الخال مكان الأب فى هذه الحالة فإنه يكون قد إنتهك أقدس قانون قبلى . فأقرب قريب هو الخال الذى كان ملزما قبل أى شخص بحماية إبن أخته . وإذا لم يكن لدينا أى أثر عن التنظيم

(١) يعرف الإغريق فى علم الخرافات الخاص بالعصر البطولى فقط قوة الرابطة بين الخال وابن أخته وهى أثر من آثار الإنتساب للأم موجود لدى شعوب كثيرة . وفى رواية لديودورس نقرأ « أن الأرجونيين بقيادة هرقل نزلوا فى ثراسيا وهناك وجدوا أن فينيوس يسىء معاملة أبنائه من زوجته الأولى كليوباترة بإيعاز من زوجته الثانية ، وكان بين الأرجونيين بعض البورباد إخوة كليوباترا وأخوال أولادها الذين أسيئت معاملتهم ، فهبوا لبنوة أبناء أختهم وأطلقوا سراحهم وقتلوا حرسهم » (المؤلف)

السلالى لدى الألمان فإن هذه الفقرة السابقة وحدها تكفى دليلا على نظامهم

وهناك دليل أكثر قوة لأنه جاء بعد الفترة السابقة بحوالى ثمانية قرون ، وهذا الدليل هو فقرة فى الأغنية النرويجية القديمة völuspa عن شفق الآلهة ونهاية العالم ، ففى هذه الأغنية تتماوج عناصر مسيحية مع فترة الفساد العالمى والشر الذى سبق الطوفان ، أما فقرة الأغنية فهى :

broedhr munu beujask ok at bönum verdask
munu systrungar sifjum spilla

ومعنى الفقرة « سيشعل الأشقاء الحرب ضـــد بعضهم البعض ، وسيحطم أبناء الأخوات روابط القرابة » .

وكلمة systrungar تعنى إبن الخالة ، ويقصد الشاعر أن التنكر لعلاقات الدم يكسو جرائم الإخوة ، وعلى ذلك فإن ذكرى الانتساب للأم لم تكن قد محيت تماما فى القرن الثامن عشر عند تأليف هذه الأغنية völuspa .

وفى أيام تاسيتس كان الانتساب للأب قد حل محل الإنتساب للأم فى أغلب الشعوب ومنها الألمان ، وكان الأولاد يرثون الأب ، وفى حالة عدم وجود أولاد كان الإخوة والأعمام والأخوال هم الورثة . وإن الاحتفاظ للخال بحق الوراثة ليثبت أن الانتساب للأب كان حديث الظهور ، ونجد آثار الإنتساب للأم بعد ذلك فى العصور الوسطى ، ففى هذه الفترة كانت الأبوة لاتزال موضع شك وخاصة بين رقيق الأرض ، وعندما كان السيد الإقطاعى يطلب عودة الرقيق الهارب كان يشترط فى أوجسبرج وبازل وكيسر سلوتر مثلا أن تثبت تبعية الرقيق للأرض

بشهادة ستة من أقربائه المباشرين فى الدم وخاصة من ناحية الأم .

وهناك أثر آخر من آثار الانتساب الأم بدأ يسقط فى دائرة الفناء هو إحترام الألمان للجنس المؤنث. وقد كانت فتيات العائلات الأرستقراطية تعتبر أحسن رهائن لضمان تنفيذ الإلتزامات لدى الألمان. ولم يكن أى شيء يستثير شجاعة الألمان فى الحرب قدر خوفهم من أسر زوجاتهم وبناتهم وأخذهن كعبيد ، وقد كانوا يعتبرون المرأة مقدسة وكان يطلبون نصحها فى أكثر الأمور . وقد كانت الراهبة فلدا فى نهر لب هى الروح المحركة لثورة اللاتافيان التى هز فيها الألمان والبلجيكيين أركان الحكم الرومانى فى بلاد الغال . ويبدو أنه كانت للنساء السلطة العليا من المنزل ، ويقول تاسيتس أن النساء والشيوخ والأطفال كانوا يقومون بكل عمل لأن الرجال كانوا يذهبون للصيد والسكر وقضاء الوقت ، ولم يخبرنا تاسيتس من الذى كان يزرع الأرض ويقول أن العبيد كانوا يدفعون أتاوات فقط ولا يجبرون على أداء أى عمل وعلى ذلك يبدو أن الرجال كانوا يقومون بالزراعة .

وكما ذكرنا فيما سبق ، كان شكل العائلة السائد هو العائلة المكونة من فردين ثم تحولت بالتدريج إلى الزواج الحديث ، ولم يكن الزواج الحديث مطبقا بدقة فقد كان مسموحا للنبلاء بتعدد الزوجات . وعلى عكس السلتس كان الألمان يتمسكون بالعفة المطلقة للفتيات . ويتكلم تاسيتس بإعجاب عن الاحترام المطلق لروابط الأمومة لدى الألمان ، ويقول أن زنا المرأة كان السبب الوحيد للطلاق ، ولكن توجد ثغرات كثيرة فى تقرير تاسيتس مثل نسبة الفضيلة للرومان المنحلين .

ومن المؤكد أنه إن كان الألمان فى غاباتهم مثالا إستثائيا للفضيلة

فإن إتصالا بسيطا بالعالم الخارجى كان كفيلا بأن ينزل بهم إلى مستوى الأوربيين الآخرين . وفى دورة الحياة الرومانية إختفى آخر أثر للفضيلة أسرع من اللغة الألمانية ، ويكفى أن نقرأ فى هذا الشأن ما كتبه الرحالة جر يجورى . ومما لاشك فيه أن الرفاهية الزائدة كان لايمكن وجودها فى الغابات الألمانية البدائية كما كانت موجودة فى روما ، ولذلك كان الألمان متفوقين خلقيا على العالم الرومانى وليس لأنهم من جنس أرقى كما يزعم البعض .

ومن نظام السلالة نشأ إلتزام الشخص بوراثة عداوات وصداقات أبيه وأقاربه ، كما ظهر نظام الفدية « wergild » التى تدفع ككفارة عن القتل والضرر بدلا من الانتقام للدم ، ومنذ جيل واحد كان يظن أن هذه الفدية نظام خاص بالألمان ولكن ثبت أن مئات الشعوب كانت تمارس هذا النوع المخفف من الإنتقام للدم الذى كان نظام السلالة أصله . كما كانت السلالة سببا فى ظهور نظام الإستضافة الذى كان يظن أيضا أنه خاص بالألمان مع أنه وجد مثلا عند الهنود الحمر . ويطابق وصف تاسيتس لكرم الضيافة عند الألمان لوصف مورجان لكرم الضيافة عند الهنود الحمر .

وقد إنتهى الآن النزاع الحاد بين المؤرخين حول مسألة ما إذا كان الألمان أيام تاسيتس قد أتموا تقسيم الأرض الزراعية من عدمه . فقد ثبت أن الأرض الزراعية لدى كل الشعوب تقريبا كانت تزرع أولا زراعة جماعية عن طريق المجموعات العائلية المشاعية ، وهو نظام وجده سيزار لدى السويفى ، وبعد ذلك كانت الأرض تمنح بصفة دورية للعائلات الفردية ، وظل هذا التوزيع الدورى للأرض ساريا فى بعض أنحاء ألمانيا

إلى يومنا هذا[1] . وإذا كان الألمان فى مدى مائة وخمسين عاما مضت على الزراعة الجماعية لم يكن لديهم زراعة خاصة أو أرض مقسمة [كما ينسب سيزار إلى السويفى على أيام تاسيتس] ، فمن المؤكد أن التطور من الزراعة الفردية والتوزيع السنوى للأرض [الذى كان سائدا] إلى الملكية الخاصة الكاملة فى الأرض فى مثل هذه الفترة القصيرة وبدون أى تدخل خارجى كان مستحيلا . وعلى ذلك فإننى أفسر ما جاء فى كلام تاسيتس فى هذا الشأن بالطريقة الآتية : كانوا يعيدون تقسيم الأرض الزراعية كل سنة وكان كثير من الأرض يترك مشتركا ، وهذه المرحلة من الزراعة تتمشى مع الدستور القبلى للألمان فى ذلك الوقت .

وسأترك الفقرة السابقة (أى ماقاله تاسيتس فى هذا الشأن) دون تغيير كما كانت فى الطبعات السابقة ، ولكنى أريد أن أقول أن المسألة تحتمل تفسيرا آخر . فحيث أن كوفالفسكى قد أكد أن مجتمع العائلة المنتسبة للأب كان واسع الانتشار إن لم يكن عاما بإعتباره الحلقة التى تربط بين مرحلة الانتساب للأم وبين العائلة الزوجية الحديثة ، فإن المسألة تكون مسألة البحث عن شكل الملكية العامة الذى كان مطبقا ، ولا يمكن أن نجارى مورر ، ويتزفى مناقشاتهما بشأن ما إذا كانت الأرض مشتركة أم مملوكة ملكية خاصة ، وليس هناك شك فى أن السويفى أيام سيزار كانوا يملكون الأرض ملكية مشتركة ويزرعونها زراعة جماعية لحساب المجموع . وستظل مسألة الوحدة الاقتصادية لديهم (هل هى السلالة أم المجموعة العائلية أم مجموعة مشاعية من الأقارب تتوسط الإثنين أم الأنواع الثلاثة) ستظل هذه المسألة موضوع خلاف إلى وقت طويل .

---

(١) أواخر القرن التاسع عشر (المترجم)

ويصر كوفا لفسكى على أن الظروف التى وصفها تاسيتس لم تكن خاصة بمجموعات المارك أو المجموعات القروية بل خاصة بالمجموعة العائلية التى تطورت فيما بعد إلى مجموعات قروية نظرا لزيادة السكان .

وعلى ذلك فإن استقرار الألمان فى الأراضى التى سكنوها أيام الرومان والأراضى التى أخذوها فيما بعد من الرومان ، هذا الاستقرار لم يكن فى شكل قرى ولكن وحدات عائلية كبيرة تتكون من عدة أجيال فى كل وحدة ، وكانوا يزرعون قطع متسعة من الأرض ويستعملون الأرض المحيطة كحدود مشتركة مع جيرانهم . أما الفقرة التى قالها تاسيتس فيما يتعلق بإعادة توزيع الأرض الزراعية فتعنى أساسا أن الوحدة العائلية كانت تزرع كل سنة قطعة مختلفة من الأرض وأن القطعة التى كانت تزرع فى عام سابق كانت تترك بلا زراعة أو تهجر فى العام التالى. وكانت قلة عدد السكان سببا فى وجود أرض فضاء كافية سببت منازعات كثيرة على حيازتها . وبعد مرور قرون حينما ازداد أعضاء الوحدة العائلية إلى حد أن أصبحت الزراعة الجماعية مستحيلة فى ظل ظروف الإنتاج القائمة تفككت الوحدة العائلية أما الحقول والمراعى المشتركة فقد قسمت بالطريقة المعروفة بين مختلف العائلات الفردية التى كانت قد تكونت حينئذ ، وكان التقسيم دوريا أول الأمر ثم استقرت كل عائلة فى ملكية قطعة بينما ظلت الغابات والمراعى ومصادر المياه مشتركة .

وقد ثبتت عملية النمو هذه فى روسيا ثبوتا قاطعا . أما عن ألمانيا وباقى البلاد الألمانية فلا يمكن إنكار أن هذا الرأى السابق ذكره يعتبر تفسيرا أصح من القول بأن المجموعات القروية وجدت أيام تاسيتس . وإذا

شرحنا الوثائق التاريخية مثل Codex laureshamensis [1] على أنها تتكلم عن المجموعات العائلية لوجد هذا الشرح أدق من شرحها على أنها تتناول مجموعات المارك القروية . وما زلنا فى حاجة إلى تحريات كثيرة لحل هذه النقطة . ولا أستطيع أن أنكر أن المجموعة العائلية يحتمل أنها كانت المرحلة المتوسطة فى ألمانيا واسكندناوه وإنجلترا.

وبينما نرى فى أيام سيزار أن الألمان كانو مستقرين بصفة جزئية فى مواطن ثابتة وكان جزء منهم مازال ينشد الاستقرار ، فقد كانوا مستقرين استقرارا كاملا قبل أيام تاسيتس بقرن كامل ، وكانوا قد أصابوا تقدما ملحوظا فى إنتاج وسائل المعيشة نتيجة هذا الاستقرار فقد كانوا يعيشون فى مساكن خشبية وكان ملبسهم لا يزال بشكل الغابة البدائى وكان يتكون من أغطية صوفية خشنة ومن جلود الحيوانات . وكانت النساء والنبلاء يرتدون ملابس داخلية من الكتان ، وكانوا يعيشون على اللبن واللحوم والفواكه والعصيدة المصنوعة من دقيق الشوفان (وهى الطبق القومى لدى السلتس فى إيرلندا واسكتلندا إلى اليوم) . وكانت ثروتهم عبارة عن قطعان حيوانية ذات مرتبة منخفضة ، فقد كانت الحيوانات صغيرة غير أليفة لاقرون لها وكانت الخيول صغيرة وليست سريعة الجرى . وكانت النقود المستعملة هى العملة الرومانية فقط وكانت قليلة نادرة الاستعمال . ولم يكونوا يصنعون أى حلى فضية أو ذهبية ولم يكونوا حتى يعتبرون هذه المعادن ذات قيمة ، وكان الحديد نادرا وكانت قبائل نهرى الرين والدانوب تستورده ولا تستخرجه بنفسها . وكانت الكتابة اليدوية (وكانت بحروف مقتبسة من الحروف الأغريقية واللاتينية) تستعمل كشىء سرى

---

(١) سجل الأراضى بمدينة لورش .

خاص بالسحر الكنهوتى. وباختصار فقد كانوا شعبا خرج لتوه من المرحلة الوسطى للبربرية إلى المرحلة العليا . وبينما كانت القبائل المتصلة بالرومان مباشرة تستورد المنتجات الصناعية الرومانية فى حين كانت ممنوعة من استخراج المعادن وصناعة المنسوجات لنفسها، نجد أن قبائل الشمال الشرقى على بحر البلطيق تطورت لديها هذه الصناعات ، فقد وجدت قطع من السلاح (سيف حديدى طويل ومعطف رجل وخوذة فضية مع عملة رومانية من نهاية القرن الثانى الميلادى) فى مستنقعات ستشلونج ، كما انتشرت السلع الألمانية بهجرة الشعوب وكانت هذه السلع دقيقة الصناعة رغم أنها مقتبسة من الأصل الرومانى وكل ذلك وغيره من الأمثلة التى وجدت فى بورجونديا ورومانيا وحول بحر آزوف وكانت مصنوعة بنفس الطريقة التى كانت تصنع بها فى بريطانيا والسويد مما يقطع بأنها ألمانية الأصل .

وكان نظامهم أيضا متمشيا مع المرحلة العليا للبربرية ، فقد ذكر تاسيتس أنه كان لديهم مجلس عام للرؤساء « Principes » يقرر الأمور القليلة الأهمية ويعد الأمور الهامة لإصدار قرار بشأنها من الجمعية الشعبية . وكما سبق وعلمنا فإن هذه الجمعية كانت فى المرحلة الدنيا من البربرية [مثل الهنود الأمريكيين] تعقد فى السلالات فقط ولم تكن تعقد بعد فى القبيلة أو إتحاد القبائل فى هذه المرحلة من البربرية . وكان الرؤساء الأعضاء بالمجلس مختلفين عن قواد الحرب « duces » كما هو الحال عند الإيروكيوس . وكان هؤلاء الرؤساء يعيشون على الهدايا والهبات مثل الماشية والحبوب وغيرها مما يقدمه لهم أفراد القبيلة ، وكانوا بصفة عامة ينتخبون من عائلة معينة وقد دعم الإنتساب للأب تحويل هذه المناصب تدريجيا من إنتخابية إلى وراثية كما كان الحال عند الإغريق والرومان ،

وكان ذلك سببا فى قيام عائلة أرستقراطية فى كل سلالة . وقد إختفت معظم هذه الأسر الأرستقراطية القبلية خلال هجرة الشعوب أو بعدها بفترة قصيرة . وكان القواد العسكريون ينتخبون بناء على كفاءتهم وحدها بصرف النظر عن الأصل العائلى وكانت سلطتهم قليلة ومستمدة من السوابق والتقاليد .

ويقول تاسيتس أن السلطة التأديبية فى الجيش كانت فى يد الكهنة . وكانت الجمعية الشعبية هى السلطة الحقيقية . وكان هناك الملك أو الرئيس القبلى . وكان قرار الشعب يصدر بإحدى صورتين إما زمجرة تعنى « لا » وإما هتافا ورنين أسلحة يعنى « نعم — aye » . وكانت الجمعية الشعبية هى ساحة العدالة أيضا . وكانت الشكاوى تقدم إليها ويصدر فيها القرار ، وكان الحكم بالموت يصدر فى حالات الجبن والخيانة والأخطاء الجسيمة فقط . وكانت الفروع وغيرها من التنظيمات القبلية تتولى القضاء ويرأسها زعيمها الذى كان يتولى إدارة المناقشات كما هو الحال فى كل المحاكم الأصلية الألمانية . وكانت الأحكام عند الألمان تصدر من الجماعة كلها .

وقد ظهرت إتحادات القبائل منذ وقت سيزار وكان لبعض هذه الإتحادات ملك . وقد بدأ القائد العسكرى الأعلا يتطلع إلى السلطة كما كان الحال عند الإغريق والرومان وكان ينجح فى الحصول عليها أحيانا . ولم يكن هؤلاء القواد المغتصبون حكاما مطلقين ومع ذلك فقد بدؤوا يحطمون النظام القبلى . وبينما كان العبيد المعتقون بصفة عامة يشغلون مركزا منحطا لأنه لم يكن فى إستطاعتهم أن يكونوا أعضاء فى أى سلالة ، فقد كانوا يحصلون على المراكز والثروات بتقربهم من الملوك الجدد . وقد حدث نفس الشىء بعد هزيمة الإمبراطورية الرومانية ، فيما

يتعلق بالقواد العسكريين الذين أصبحوا ملوكا لبلاد واسعة ، وعند الفرانكس (الفرنسيين) كان عبيد الملك وعتقاؤه يلعبون دورا كبيرا فى المحاكم أولا ثم فى الدولة . وكان جزء كبير من الأرستقراطية الجديدة ينحدر منهم .

وكان هناك نظام واحد كان السبب الأساسى الذى مكن الملكية من الظهور هو الحاشية أو التابعين .

وقد سبق لنا أن رأينا كيف تكونت الإتحادات الخاصة عند الهنود الحمر بجانب السلالات لكسب الحرب . وكانت هذه الإتحادات الخاصة لدى الألمان قد نمت حتى أصبحت تنظيمات قائمة . فقد كان القائد العسكرى الذى يكسب شهرة يجمع حوله مجموعة من المحاربين الشبان يدينون بالولاء له شخصيا ، وكان يطعمهم ويقدم لهم الهدايا وينظمهم فى درجات كحرس وكفرقة مستعدة للعمل المباشر فى وقت قصير . ومع أن هؤلاء التابعين كانوا ضعفاء كما ثبت ذلك فيما بعد، فقد قاموا بدور جراثيم الفناء للحريات العامة القديمة ، وأثبتوا هذا الدور خلال وبعد هجرة الشعوب وذلك لأنهم خلقوا تربة صالحة لقيام سلطة الملكية ولأن الطريق الوحيد لإستمرار جمعهم كان الأعمال الحربية المستمرة وحملات السلب . وأصبح السلب هو الموضوع الرئيسى ، وكان الرئيس إذا لم يجد شيئا يفعله مع جيرانه يحرك قواته إلى بلاد أخرى حيث تكون هناك حروب وأمل فى الغنائم . وكان المساعدون الألمان (الذين حاربوا الألمان أنفسهم تحت الراية الرومانية) يتكونون من هؤلاء التابعين بصفة جزئية ، وكانوا النواة الأولى لنظام الجنود المرتزقة الذى كان عار الألمان ولعنتهم . وبعد هزيمة الامبراطورية الرومانية كون تابعو

الملك هؤلاء مع الأرقاء والحاشية الرومانية الجزء الرئيسى الثانى من الارستقراطية التى ظهرت بعد ذلك .

وإذن فقد إتحدت القبائل الألمانية فى هيئة شعوب ، وكان نظامها الأساسى هو نفس النظام الذى نما عند الإغريق فى العصر البطولى والرومان أيام الملوك المزعومين (rex) ، فقد كانت هناك الجمعيات الشعبية ومجالس الرؤساء القبليين والقواد العسكريين الذين كانوا يتطلعون إلى سلطة ملكية حقيقية . وكان هذا النظام هو أكثر النظم التى يستطيع النظام القبلى أن ينتجها تطورا ، فقد كان النظام الممثل للمرحلة العليا للبربرية .

وبمجرد أن تخطى المجتمع الحدود التى كان هذا النظام يلائمها ، إنتهى النظام القبلى وتحطم وأخذت الدولة مكانه .

الفصل الثامن

تكوين الدولة عند الألمان

طبقا لما ذكر تاسيتس كان عدد الشعب الألمانى كبيراً جداً ، ويعطينا سيزار فكرة واضحة عن قوة مختلف الشعوب الألمانية ، فهو يقول أن عدد اليوسيبيتانز والتنكترانز الذين ظهروا على الضفه اليسرى لنهر الرين حوالى مائة وثمانون ألفا بما فيهم النساء والأطفال . وإن مائة ألف [1] . فى شعب واحد لعدد كبير جداً بالنسبة للإيروكيوس الذين لم يزد عددهم فى قمة إزدهارهم عن عشرين ألف وكانوا مع ذلك مصدر رعب للإقليم الممتد من البحيرات الكبرى إلى أوهايو وبوتوماك . وإذا حاولنا أن نجمع على خريطة شعوب نهر الرين المعروفة لنا لوجدنا أن كل شعب منها يستطيع أن يشغل فى المتوسط أرضا تساوى مساحة بروسيا أى حوالى عشرة آلاف كيلومتر مربع [١٨٢ ميل جغرافى مربع] . وقد وصلت ألمانيا العظمى الرومانية « germania magna » إلى نهر الفستولا وكانت تشغل مساحة حوالى نصف مليون كيلومتر مربع . وإذا ما عددنا متوسطا يبلغ مائة ألف لكل شعب فإن التعداد الكلى « لألمانيا العظمى » كان يبلغ حوالى خمسة ملايين وهو رقم مرتفع بالنسبة لمجموعة من الشعوب

---

(١) الرقم الموضح هنا تؤيدة فقرة كتبها ديودورس عن السلتس فى بلاد الغال إذ قال « فى الغال تعيش شعوب عديدة وأكبر هذه الشعوب عدده مائتا ألف وأصغرها خمسين ألف » . وهذا يعطينا رقما متوسطا يبلغ مائه وخمسة وعشرون ألف . ولابد أن شعوب الغال كانت أكبر عددا من الألمان لأنها كانت أعلا تطورا منهم. (المؤلف)

البربرية ولو أن كثافة السكان كانت بمعدل عشرة فى كل كيلومتر مربع وهى كثافة قليلة جدا بالنسبة للظروف الحالية . وهذا الحصر لا يشمل كل الألمان الذين كانوا يعيشون حينئذ. فنحن نعلم أن الشعوب الألمانية المنحدرة من الغال مثل الباستارنيانز والبيوكيتيانز وغيرهم كانت تعيش بجوار المنطقة الواقعة بين جبال الكارپامثيان ومصب نهر الدانوب وكان عددهم كبيرا جدا لدرجة أن يلينى كان يعتبرهم خامس قبيلة رئيسية ألمانية سنة ١٨٠ ق . م، وكانوا يعملون كجنود مرتزقه لپرسيوس ملك مقدونيا . وفى أوائل حكم أو جستس كانوا لايزالون منتشرين فى كل منطقة الأدرياتيك المجاورة . فإذا إفترضنا أن عددهم كان مليونا واحداً فقط يكون الشعب الألمانى كله لا يقل عن ستة ملايين فى بداية المسيحية .

وبعد الإستقرار فى ألمانيا لابد أن التعداد قد إزداد بسرعة متزايدة. ويعتبر التقدم الصناعى السابق ذكره دليلا كافيا على ذلك . وترجع الأشياء التى وجدت فى مستنقعات ستشلويج إلى القرن الثالث الميلادى لأن العملة الرومانية التى وجدت معها تعود إلى ذلك الوقت . وعلى ذلك ففى ذلك الوقت كانت صناعة المعادن والنسيج متطورة عند بحر البلطيق وكانت هناك تجارة نشطة مع الإمبراطورية الرومانية ، وكانت الطبقة الغنية تنعم بالرفاهية ، وكل ذلك يدل على كثافة السكان . وفى هذا الوقت بدأ الألمان هجومهم على طول خط نهر الرين والحدود الرومانية ونهر الدنواب وهو خط يمتد من بحر الشمال إلى البحر الأسود ويعتبر دليلا مباشرا على الزيادة المستمرة فى عدد السكان . وفى خلال القرون الثلاثة للصراع كانت كل شعوب الغال الرئيسية (مع إستثناء الغال الإسكندنافيين والبورجونديين) تتحرك تجاه الجنوب الشرقى مكونة

الجناح الشمالى لخط الهجوم الطويل واندفع سكان ألمانيا العليـــا (الهر مينونيانز) إلى منتصف هذا الخط فى منطقة الدانوب الأعلا وإندفع الإستايفونفون الذين أصبحوا يسمون الفرانك إلى الجناح الأيمن على طول نهر الرين . وفتح الإنجايفونيون بريطانيا . وفى نهاية القرن الخامس رقدت الامبراطورية الرومانيـــة مرهقة عاجزة مفتوحة الأبواب أمام الألمان .

وقد وقفنا فى الفصول السابقة عند مهد المدنية الإغريقية والرومانية القديمة ، ونقف الآن عند قبرها . فإن السطح المستوى لسلطة العالم الرومانى إمتد لمدة قرون على كل بلاد البحر الأبيض المتوسط . ولم تبدى اللغة الإغريقيـة أى مقاومة وحلت اللغة اللاتينية العامة محل كل اللغات القومية ، ولم يعد هناك أى تمييز بين القوميات ، فلم يعد هناك غال وأيبيريين وليجوريين ونوريكان فقد أصبح الكل رومانيين . وقد حلت القوانين الرومانية والحكم الرومانى فى كل مكان تنظيمات روابط الدم القديمة فسحقت بذلك آخر آثار القومية الإقليمية .

ولم يستطيع هؤلاء المندمجون الجدد فى روما تعويض هذه الخسارة لأنها لم تعبر عن أى قومية بل عن نقص القومية . وكانت عناصر تكوين أمم جديدة موجودة فى كل مكان . وإزداد الاختلاف بين اللهجات اللاتينية فى الأقاليم المختلفة . وكانت الحدود الطبيعية التى جعلت من إيطاليا والغال وإسبانيا وأفريقية بلادا مستقلة فيما مضى لاتزال موجودة ومحسوسة . ومع ذلك فلم تكن هناك قوة قادرة على جمع هذه العناصر فى أمم جديدة ولم يكن هناك كذلك أى أثر لأى مقدرة للنمو أو أى

قوة المقاومة، وأقل من ذلك بالنسبة للقوة الخالقة . وكانت الكتلة البشرية الضخمة فى هذه الأقاليم الفسيحة مرتبطة مع بعضها برباط واحد هو الدولة الرومانية التى أصبحت بمرور الوقت أسوأ أعداءها المستبدين . وقد حطمت هذه الأقاليم روما وأصبحت روما نفسها مدينة إقليمية مثل غيرها من المدن الممتازة ولكن لم تعد حاكمة ولم تعد قلب إمبراطورية العالم ولم تعد حتى مقر الأباطرة ونوابهم الذين عاشوا فى القسطنطينية وتورنتو وميلانو . لقد أصبحت الدولة الرومانية آلة ضخمة معقدة قائمة لاستغلال أعضائها فقط وزادت الضرائب والخدمات المقدمة للدولة والمصادرات فى إثقال كاهل الجماهير وكان الاستبداد الصارخ من جامعى الضرائب والجنود وممثلى الدولة سببا فى أن الضغط لم يعد محتملا .

هذه هى النهاية التى وصلت إليها الدولة الرومانية وسيطرتها العالمية، فقد أقامت حقها فى البقـــاء على المحافظة على النظام فى الداخل وحماية الإمبراطورية ضد المتبربرين فى الخارج . ولكن نظامها كان أسوأ من أسوأ فوضى وأسوأ من البرابرة الذين تعمدت الدولة حماية مواطنيها منهم ، ونظر المواطنون إلى البرابرة على أنهم منقذوهم من روما .

ولم تكن الظروف الإجتماعية أقل سوءا من الظروف السياسية ، ففى أواخر سنوات الجمهورية قام الحكم الرومانى على الإستغلال القاسى للولايات الخاضعة ، ولم يلغ الأباطرة هذا الإستغلال بل جعلوه شيئا عاديا . وكلما كانت الإمبراطورية تزداد إقترابا من الفناء كانت الضرائب والخدمات الإجبارية تزداد وكان الرسميون يسرقون الشعب فى غير حياء . ولم يشتغل الرومان أبدا بالتجارة والصناعة ، بل كانتا عمل الشعوب التابعة . ولكن الرومان فاقوا فى الربا كل من سبقهم ومن جاء بعدهم .

وقضى إرهاق الحكومة على التجارة التى وجدت وعملت المحافظة على نفسها لفترة من الوقت ، وما بقى منها كان فى الشرق فى القسم الإغريقى من الإمبراطورية . وساد الفقر كل أرجاء الإمبراطورية وإنحطت الزراعة ، وكان كل ذلك هو نتيجة السيادة الرومانية للعالم .

وازدادت رقعة الزراعة التى تعتبر الفرع الرئيسى للإنتاج فى كل الشعوب القديمة . فى إيطاليا كان العدد الضخم من الإقطاعيات « latifundia » التى غطت تقريبا كل هذا الإقليم منذ نهاية الجمهورية ، كان هذا العدد من الإقطاعيات يدار بطريقتين : إما كمراعى حيث حلت الماشية محل السكان وكانت العناية بالماشية تحتاج لعدد قليل من العبيد فقط ، وإما كأراضى ريفية حيث زرعت الحدائق على نطاق واسع بأعداد كبيرة من العبيد وكان إنتاج هذه الحدائق يستخدم لإشباع حاجات الملاك ولبيعه فى أسواق المدن . وظلت المراعى الكبيرة كما هى واتسعت مساحتها أحيانا ، ولكن الأراضى الريفية بحدائقها انحطت نظرا لافتقار ملاكها وانحطاط شأن المدن . ولم يعد الإقتصاد المبنى على عمل العبيد مربحا ، ولكنه كان فى ذلك الوقت الشكل الوحيد الممكن للزراعة الواسعة النطاق .

وأصبحت الزراعة الصغيرة النطاق مرة ثانية الشكل المربح الوحيد . وأخذت الإقطاعيات الواحدة بعد الأخرى تقسم وتؤجر فى قطع صغيرة إلى مستأجرين يتوارثون هذا الحق وكانوا يدفعون حصة ثابتة ، وكانوا أقرب إلى كونهم مديرى مزارع من كونهم مستأجرين ، وكانوا يحصلون على سدس أو تسع المحصول السنوى نظير عملهم . وكانت هذه القطع توزع أساسا على مزارعين «coloni» يدفعون مبلغا ثابتا سنويا وكانوا مرتبطين بالأرض يمكن بيعهم معها ، ولكنهم لم يكونوا عبيداً ولم يكونوا أحرارا كذلك فلم يكن فى إستطاعتهم الزواج من المواطنين الأحرار ، وكان

الزواج فيما بينهم لا يعتبر زواجا صحيحا وإنما معاشرة جنسية فقط « contudernium » كما فى حالة العبيد ، وبإختصار كانوا نواة نظام رقيق الأرض فى العصور الوسطى .

وأصبح نظام العبيد القديم غير مستعمل لا فى الزراعة الواسعة النطاق فى الريف ولا فى المصانع فى المدن إذ لم يعد ذلك مربحا بينما اختفى سوق الرقيق . ولم يعد هناك مكان للعبيد الكثيرو العدد فى ظل الزراعة الضيقة النطاق والحرف الصغيرة التى إنتهى إليها أمر الإنتاج العظيم فى العصور المزدهرة للإمبراطورية . ولم يعد فى المجتمع مكان إلا لعبيد المنازل ومتاع الأغنياء . ولكن نظام العبيد المحتضر كان لايزال من القوة لدرجة ظهر معها العمل الإنتاجى كله على أنه من عمل العبيد الذى لا يليق بكرامة الرومان الأحرار وكان كل شخص حينئذ رومانيا حرا . وكانت هناك زيادة فى عدد العبيد الذين أعتقوا لأنهم أصبحوا عبئا على ملاكهم ، ومن ناحية أخرى كانت هناك زيادة فى عدد المزارعين «coloni» وعدد الفقراء الأحرار [ويشبهون الفقراء البيض فى ولايات الرقيق الأمريكية السابقة] . وإن المسيحية لبريئة تماما من مسئولية هذا الفناء التدريجى لنظام الرقيق القديم فلم تكن المسيحية سبب فنائه فقد اشتركت فى ثمار الرق فى الإمبراطورية الرومانية لمدة قرون ولم تفعل فيما بعد شيئا لمنع تجارة الرقيق لدى المسيحيين سواء الألمان فى الشمال أو أهل البندقية فى الجنوب على البحر الأبيض . كما لم تفعل المسيحية شيئاً لمنع تجارة الرقيق السود فى السنوات التالية[1] .

(١) يقول بيشوب ليوتيراند من أهل كريمونا أن الصناعة الرئيسية فى فردن فى القرن العاشر أى فى ظل الإمبراطورية الألمانية المقدسة كانت صناعة الخصيان الذين كانوا يجلبون بربح كبير الى اسبانيا من أجل حريم المسلمين . (المؤلف)

ولم تعد تجارة الرقيق مربحة ولذلك ماتت . ولكن الرق الذى انتهى ترك خلف لذغاته السامة عمل الأحرار الإنتاجى . وكان هذاهو الطريق الأعمى الذى إندفع فيه العالم الرمانى ، فقد أصبح الرق مستحيلا من الناحية الإقتصادية بينما كان عمل الأحرار عارا من الناحية الأدبية ، أى لم يستطع عمل العبيد أن يستمر ولم يستطع عمل الأحرار أن يصبح بعد الشكل الأساسى للإنتاج فى المجتمع . ولم تكن تنفع فى هذا المجال سوى ثورة كاملة .

ولم تكن الأحوال أفضل من ذلك فى الأقاليم . [ومعظم المعلومات التى لدينا تخص الغال] . فبجانب المزارعين « coloni » كان صغار الفلاحين الأحرار لا يزالون موجودين ، ولكى يحموا أنفسهم ضد تعسف موظفى الحكومة الوحشى والقضاه المرابين كانوا كثيرا ما يضعون أنفسهم تحت حماية ذوى السلطان ، ولم يكونوا يفعلون ذلك بصفة فردية فقط بل فى مجموعات بأكملها ، وتكرر ذلك بكثرة شديدة لدرجة أن أباطرة القرن الرابع أصدروا أوامر بمنع هذه الأوضاع ، فكيف أفادت هذه الحماية الفلاحين ؟ كان ذو السلطان يضع للفلاحين شروط بنقل ملكية أرضهم إليه وفى مقابل ذلك يمنحهم حق إستغلال هذه الأرض مدى حياتهم ، وهى حيلة تذكرتها الكنيسة المقدسة وطبقتها فى القرنين التاسع والعاشر فى سبيل عظمة الإله وتوسيع رقعة ملكيتها . وفى ذلك الوقت حوالى سنة ٤٧٥ إستنكر الأسقف سلفيانوس أسقف مرسيليا بشدة هذه السرقة وأعلن أن إستبداد الرسميين الرومان وكبار ملاك الأرض أصبح غير محتمل لدرجة أن كثيرا من الرومان هربوا إلى المناطق التى يقطنها المتبربرين، وأن المواطنين الرومان لم يكونوا يخافون شيئا أكثر من وقوعهم ثانية فى قبضة الحكم

الروماني . وكان كثير من الآباء المساكين يبيعون أطفالهم كرقيق فى ذلك الوقت ويؤيد ذلك صدور قانون يمنع هذا البيع .

ولكي يمكن تحرير الرومان من دولتهم نفسها إستولى المتبربرون الألمان على ثلثى الأرض كلها وقسموها فيما بينهم . وقد تم التقسيم طبقا للنظام القبلى القديم ، ولما كان عدد الألمان المنتصرين صغيرا نسبيا فقد بقيت أراضى واسعة دون تقسيم ودخل جزء منها فى ملكية الشعب كله وجزء آخر فى ملكية القبائل والفروع .

وفى كل سلالة قسمت الأراضى والمراعى بين العائلات إلى أقسام متساوية المساحة ، ولا نعلم إذا كانت إعادة التقسيم دوريا كانت تجرى فى ذلك الوقت أم لا ، وعلى أى حال فقد أوقف هذا التقسيم على وجه السرعة فى الأقاليم الرومانية وأصبحت هذه الاقسام ملكية خاصة مطلقة . وظلت الغابات والمراعى دون تقسيم لاستعمال الكافة ، ونظمت هذا الإستعمال مع طريقه زراعة الأرض عادات قديمة مع رغبة المجتمع كله . وبقدر ما ظلت السلالات موجودة فى القرى ، وبقدر ما هاجر الألمان والرومان بمرور الوقت ، بقدر ما تراجعت روابط الدم أمام الروابط الإقليمية .

واختفت السلالة فى مجتمعات المارك التى كانت فيها آثار واضحة للقرابة الأصلية بين الأعضاء . وعلى ذلك فقد تحول النظام القبلى إلى نظام إقليمى (على الأقل فى بلاد إتحادات المارك وفى شمال فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإسكندناوة) وأصبح لذلك صالحا للبقاء فى الدولة . ومع ذلك فقد تحطم الطابع الديموقراطى الطبيعى الذى يميز النظام القبلى

كله واحتفظت الدولة بجزء من النظام القبلى فى إنحطاطه ، وقام النظام الإقليمى على أنقاضه فيما بعد تاركا سلاحا فى أيدى الخاضعين ، سلاح معد للإستعمال فى العصر الحديث .

وكان الإختفاء السريع لروابط الدم فى السلالة راجعا إلى أن تنظيماتها فى القبيلة وفى الشعب كله قد انحطت بدورها نتيجة الغزو - ونحن نعلم أن حكم الشعوب الخاضعة لا يتفق مع النظام القبلى . ونرى هنا هذه الحقيقة على نطاق واسع . وقد كان على الشعوب الألمانية التى أصبحت سيدة الأقاليم الرومانية أن تنظم غزواتها ، ولما لم يكن ممكنا إدماج الكتل الرومانية فى التنظيمات القبلية أو حكمها بمساعدة هذه التنظيمات كان من الضرورى إحلال سلطة أخرى محل السلطة الحكومية الرومانية التى إستمرت موجودة أول الأمر ، ولم يكن ممكنا أن تكون هذه السلطة الأخرى سوى دولة أخرى ، وعلى ذلك فقد كان من الضرورى تحويل أجهزة التنظيم القبلى إلى أجهزة للدولة ونظرا لضغط الظروف كان من الضرورى أن يتم ذلك سريعا .

وكان أول ممثل للشعب المنتصر هو القائد العسكرى . وكانت السلامة الداخلية والخارجية للأراضى المفتوحة تتطلب أن تزداد سلطة القائد العسكرى . ووصلت اللحظة التى تحول فيها القائدالعسكرى إلى ملك وقد تم ذلك فعلا .

أما مملكة الفرانكس فقد ضمت الأقاليم الفسيحة من الدولة الرومانية كما ضمت كل الأراضى الواسعة التى لم تقسم إلى قطع gau صغيرة

وكبيرة ولم تنضم إلى مجتمعات المارك وخصوصا كل الغابات الواسعة ، سقطت كلها فى أيدى الشعب السالياني المنتصر . وكان أول شيء عملة ملك الفرانكس الذى تحول من قائد عسكرى عادى إلى ملك حقيقى ، كان أول شيء عمله هو تحويل أراضى الشعب إلى إقطاعية ملكية وسرقها من الشعب ووهبها إلى تابعية فى صورة إقطاعيات . وقد ازداد عدد هؤلاء التابعين (الذين كانوا يتكونون فى الأصل من تابعى الملك الخصوصيين وقواد الجيش) بضم رومان وغال إليهم وأصبحوا ضروريين للملك نظرا لمعرفتهم الكتابة وتعليمهم ومعرفتهم للأقاصيص الوطنية والآداب اللاتينية وقوانين الأرض .

كما انضم للتابعين عبيد ورقيق أرض ورجال أحرار كانوا يكونون بلاط الملك وكان يختار من بينهم خلصائه . وكانت كل الإقطاعات التى منحت لهؤلاء التابعين قطعا من أرض العامة كانت تمنح لهم فى الأصل كهدايا ثم فى شكل benefices وهى الأراضى التى كان ملوك الفرانكس يمنحونها كمكافأة لأفراد حاشيتهم . وهكذا وضعت قواعد أرستقراطية جديدة على حساب الشعب .

ولم يكن هذا هو كل شيء ، فإن الإمبراطورية النامية لم يكن ممكنا حكمها بوسائل الدستور القبلى القديم . فمجلس الرؤساء لم يكن ممكنا جمعه ولو لم يلغى منذ وقت طويل ، فاستبدل على الفور بحاشية الملك الدائمة . أما الجمعية الشعبية القديمة فكانت موجودة إسميا ولكنها تحولت شيئا فشيئا إلى جمعية لقادة الجيش والنبلاء الجدد . أما ملاك الأراضى من الفلاحين الأحرار وكتلة شعب الفرانكس فقد أرهقت

وافتقرت نتيجة الحروب الأهلية المستمرة والغزوات خصوصا تحت حكم شرلمان : كما حدث للفلاحين الرومان خلال الفترة الأخيرة من الجمهورية . وهؤلاء الفلاحين الذين كانوا يكونون فى الأصل الجيش كله وأصبحوا شعب فرنسا بعد فتح أراضيها ، كانوا فى أشد الفقر فى بداية القرن التاسع لدرجة أن واحدا من كل خمسين كان يستطيع بالكاد أن يقوم بتجهيزات الحرب .

أما الجيش السابق المكون من الفلاحين الأحرار الذين كان يجمعهم الملك مباشرة فقد استبدل بجيش مكون من تابعى النبلاء الجدد ، وبين هؤلاء التابعين كان يوجد أشخاص من ذرية الفلاحين الذين لم يكونوا يعرفون فيما سبق أى سيد سوى الملك والذين لم يكونوا يعرفون قبل الملك أى سيد على الإطلاق . وفى ظل حكم ورثة شرلمان تحطم الفلاحون الفرنسيون تحطيما تاما نتيجة الحروب الداخلية وضعف سلطة الملك وإستبداد النبلاء الذين إرتفعت مرتبتهم بإنشاء شرلمان لرتبة الكونت وجعلها وراثية وأخيرا نتيجة الغزو النورماندى ؛ فبعد خمسين سنة من موت شرلمـــان رقدت إمبراطورية الفرانكس عاجزة تحت أقدام النورمانديين ، كما رقدت الإمبراطورية الرومانية قبل ذلك بأربعمائة عام تحت أقدام الفرانكس . وقد ظل العجز الخارجى والنظام الداخلى أو بمعنى أصح الفوضى الداخلية على ما هى عليه . ووجد الفلاحون الفرانكس الأحرار أنفسهم فى وضع مشابه لوضع أسلافهم المزارعين Coloni الرومان . فقد حطمتهم الحروب والإستغلال وكان عليهم أن يلجؤوا إلى حماية السادة الجدد أو الكنيسة لأن الملك كان أضعف من

أن يحميهم ، وكان عليهم أن يدفعوا ثمن هذه الحماية غاليا . فمثل الفلاحين الغال من قبلهم كان عليهم نقل ملكية أرضهم إلى السادة النبلاء ثم إستئجارها منهم ثانية بطرق مختلفة ولكن بشرط تقديم الخدمات ودفع الجزية دائما . وبمجرد أن وصل الفلاحون إلى هذا الوضع من التبعية فقدوا تدريجيا حريتهم الشخصية ، وبعد أجيال قليلة أصبح معظمهم من رقيق الأرض .

وترينا سجلات أرض irminon لكنيسة سان جرمان دى برى الموجودة الآن فى باريس أنه حتى فى أثناء حياة شرلمان فى الإقطاعات الفسيحة لهذه الكنيسة والتى كانت تمتد فى الريف المحيط ، كانت هناك ٢٧٨٨ أسرة كلهم تقريبا من الفرانكس ذوى الأسماء الألمانية ، وكانت ٢٠٨٠ أسرة منهم من الـ « colori » [أى المشمولين بحماية الكنيسة] ، ٣٥ liti ، ٢٢٠ أسرة من العبيد » ٨ أسرات فقط من الفلاحين الأحرار. فقد كانت العادة التى ينقل السيد بمقتضاها ملكية أراضى الفلاحين إليه ويعطيهم حق إستغلالها مدى الحياة فقط وهى العادة التى إستنكرها سلفيانوس لمخالفتها للدين ، هذه العادة كانت الكنيسة تطبقها تطبيقا عاما فى علاقاتها مع الفلاحين . وعلى ذلك فقد أصبح نظام رقيق الأرض الإقطاعى مطبقا أكثر فأكثر وقد إقتبس من نظام angarise الرومانى وهو نظام الخدمات الإجبارية للدولة ، مثل الخدمات التى كان يقوم بها أعضاء إتحاد المارك الألمانى فى بناء الكبارى وتمهيد الطريق وغيرها من الأعمال ذات النفع العام . وعلى ذلك فقد كان يبدو أن الكتلة الشعبية قد عادت بعد أربعمائة عام إلى النقطة التى بدأت منها . وهذا يدل على شيئين فقط :

أولا : أن توزيع الملكية فى الأمبراطورية الرومانية المنتهية كان

متعلقا بالمرحلة الإنتاجية التى كانت سـائدة حينئذ فى الزراعة والصناعة وأن هذا التوزيع كان لايمكن تجنبه .

وثانيا : أن هذه المرحلة الإنتاجية لم تنحط أو ترتفع إلى مرحلة أعلا فى مدى الأربعمائة عام التالية لبدئها ولذلك سببت بالضرورة نفس التوزيع الملكية ونفس التقسيم الطبقى للشعب : وفى خـلال القرون الأخيرة للإمبراطورية الرومانية فقدت المدن تفوقها على الريف ولم تستعد مكانتها خلال القرون الأولى للحكم الألمانى .

وهـذا الوضع يفترض وجود مرحلة منحطة من الزراعة والصناعة ، ومثل هذه الظروف العامة لابد أن تؤدى إلى وجود ملاك كبار حاكمين وفلاحين صغار خاضعين . وقد أثبتت تجارب شارلمـان فى إقطاعاته الملكية الشاسعة التى إنقرضت دون أن تترك أثرا يذكر ، أثبتت هـذه التجارب أنه من المستحيل أن يقوم النظام الإقتصادى الرومانى المبنى على عمـل العبيد أو نظام الزراعة الواسعة النطاق المبنى على عمل رقيق الأرض. نقول من المستحيل أن يقوم أحدهذين النظامين فى مثل المجتمع الذى كان موجودا حينئذ ، فتجارب شارلمـان لم يكملها إلا الرهبان ولم تـكن مثمره إلا لهم ، ولـكن نظام الرهبان كان نظاما إجتماعيا غيرعادى مبنى على العزوبة وعـدم الزواج وكان فى إستطاعة الرهبان أن يفعلوا الاستثناءات والشواذ ولذلك ظل نظامهم إستثنائيا شاذا .

ومع ذلك فقد تقدم المجتمع خلال هـذه الأربعمائة عام . وحتى إذا وجدنا فى نهايتها تقريبا نفس الطبقات فى البداية ، فإن الناس المـكونين

لهذه الطبقات كانوا قد تغيروا ، فقد اختفى الرق القديم كما إختفى الرجال الأحرار الفقراء الذين كانوا يحتقرون العمل باعتباره شيئا خاصاً بالعبيد. وبين المزارعين الرومان « coloni » ورقيق الأرض الجدد كان هناك الفلاحون الفرانكس الأحرار . أما الذكريات والصراعات الرومانية فقد ماتت ودفنت . وقد نشأت الطبقات الإجتماعية فى القرن التاسع فى مهد مدنية جديدة وليس فى لحد مدنية ميتة ، فالجنس الجديد من الناس سواء فى ذلك السادة والخدم كان جنسا يقارن بأسلافه الرومان، وأصبحت العلاقة بين الملاك الأقوياء والفلاحين الخدم نقطة البدء لتقدم جديد بعد أن كانت شكل الفناء للعالم القديم أيام الرومان . وزيادة على ذلك فإنه وإن ظهرت هذه الأربعمائة عام جامدة فقد تركت وراءها إنتاجا عظيما واحدا هو القوميات الجديدة وإعادة تنظيم وتجميع سكان غرب أوربا لدخول التاريخ . والواقع أن الألمان أقاموا حياة جديدة فى أوربا وهذا هو السبب فى أن تحلل الدول فى العهد الألمانى إنتهى لا بإخضاع النرويجيين والمسلمين ولكن بالتطور من الملكيه اللاهوتية إلى النظام الإقطاعى مع زيادة هائلة فى السكان لدرجة أن الفيضان الدموى الذى سببه الصليبيون لمدة قرنين من الزمان استطاعت أوربا إحتماله دون صعوبة .

فماذا كانت القوة الغامضة التى نفث الألمان بها حيوية جديدة فى أوربا الميتة ؟ هل كانت القوة السحرية الطبيعية للجنس الألمانى كما يزعم مؤرخونا الوطنيون؟ لم يكن ذلك قطعاً هو السبب ، صحيح أن الألمان كانوا قبيلة آرية راقية فى كامل نموها وخاصة فى ذلك الوقت ولكن لم تكن مقدرتهم الوطنية الخاصة هى التى دفعت القوة فى أوربا وإنما كان الدافع ببساطة هو مرحلة البربرية التى كانوا فيها ونظامهم القبلى .

فمقدرتهم الشخصية وشجاعتهم وحبهم للحرية وغريزتهم الديموقراطية

التى كانت تعتبر كل الشئون العامة شئونها الخاصة ، وبإختصار كل هذه المؤهلات التى فقدها الرومان والتى كانت وحدها قادرة على تكوين « دولة جديدة ورفع قوميات جديدة من حضيض العالم الرومانى ، كل هذه المؤهلات كانت الصفات المميزة للبربرية فى مرحلتها العليا وكانت ثمرة النظام القبلى .

وقد مكنتهم هذه البربرية من تحويل الشكل القديم للزواج والتخفيف من حدة حكم الرجل فى العائلة ورفع شأن المرأة لدرجة لم يعرفها العالم القديم ، كما مكنتهم من ذلك عاداتهم القبليه والميراث المتبقى منذ أيام الإنتساب للأم .

وإذا كانوا قادرين على الأقل فى ثلاثة من أكثر الأقطار أهمية وهى ألمانيا وشمال فرنسا وانجلترا ، إذا كانوا قادرين فى هذه البلاد أن يحملوا إلى الدولة الإقطاعية قطعة من الدستور الحقيقى فى شكل مجتمعات المارك فقد أعطوا بذلك للطبقة الخاضعة من الفلاحين الإتحاد الإقليمى [حتى تحت أسوأ ظروف نظام رقيق الأرض الإقطاعى] ووسائل المقاومة التى لم تتوفر لعبيد النظم القديمة أو عمال العصر الحديث ، وتعود قدرة الألمان هـــذه إلى مرحلة البربرية التى كانوا فيها وطريقتهم البربرية فى الاستقرار فى فروع .

وأخيرا فقد استطاع الألمان تنمية وتعميم الشكل المخفف لنظام رقيق الأرض الذى كانوا يمارسونه فى بلادهم والذى عمل تدريجيا على إلغاء الرق فى الأمبراطورية الرومانية ، وكان هذا الشكل كما يقول فوريير يعطى المستعبدين وسائل التحرر التدريجى كطبقة وهو لذلك نظام أرقى بكثير من الرق ، كما يسمح بتحرير الأفراد دون أى مرحلة إنتقالية . [لم يعرف التاريخ القديم أى إلغاء للرق نتيجة ثورة ناجحة] . وقد حصل

رقيق الأرض فى العصور الوسطى على تحريرهم كطبقة لدى الألمان. ويرجع الفضل فى ذلك كما سبق إلى بربريتهم التى يرجع الفضل إليها فى أنهم لم يصلوا إلى الاسترقاق الكامل سواء فى شكل العمل العبيدى القديم أو عبيد المنازل فى الشرق .

وعلى ذلك فكل الحيوية التى جلبها الألمان للعالم الرومانى تعود للبربرية ، فالبربريون هم وحدهم القادرون على بعث الحياة فى حضارة ميتة . وقد كانت المرحلة العليا للبربرية التى شق الألمان طريقهم إليها وخلالها قبل هجرة الشعوب أحسن مثل لذلك . ولعل فى ذلك تفسيرا لكل شىء .

الفصل التاسع

البربرية والمدنية

تتبعنا فيما سبق إنحلال النظام القبلى فى الأمثلة التفصيلية الكبرى الثلاث ، الإغريق والرومان والألمان .

وسنبحث فى النهاية الظروف الإقتصادية العامة التى حطت من شأن النظام القبلى للمجتمع فى المرحلة العليا للبربرية وألغته تماما بقدوم المدنية وفى هذا البحث سيكون كتاب « رأس المال » لماركس مهما بقدر أهمية كتاب مورجان .

فعندما خرجت السلالة من المرحلة الوسطى للوحشية ودخلت مرحلتها العليا ، كانت السلالة فى قمة مجدها ونؤكد ذلك بقدر مالدينا من معلومات عن المرحلة الدنيا للبربرية ، ومن هذه المرحلة سنبدأ بحثنا .

ففى هذه المرحلة التى يعتبر الهنود الأمريكيون مثلا لها نجد النظام القبلى فى قمة إزدهاره . فكل قبيلة كانت منقسمة إلى عدد من الفروع يبلغ فى معظم الحالات فرعين ، وبإزدياد عدد السكان انقسمت هذه الفروع الأصلية بدورها إلى عدة فروع وكان الفرع الأصلى يعتبر أخوة بالنسبة لهذه الفروع الجديدة . وانقسمت القبيلة بدورها إلى عدة قبائل نجد فى كل منها فى معظم الحالات الفروع القديمة . وفى بعض الحالات نجد اتحادا للقبائل يضم القبائل المرتبطة برابطة القرابة . وكان هذا التنظيم

البسيط كافيا تماما للظروف الإجتماعية التى نشأ منها ، فلم يكن أكثر من تجمع طبيعى قادر على حل كل المشاكل الداخلية المحتملة الوقوع فى مجتمع منظم بهذا الشكل ، وفيما يتعلق بالمشاكل الخارجية ، فقد كانت تسوى بالحرب التى كانت تنتهى بإفناء إحدى القبائل وليس بإخضاعها . وكان علو النظام القبلى وانخفاضه فى نفس الوقت راجعاً إلى أنه لم يوجد مكانا لحكام ومحكومين . ففى نطاق الشئون الداخلية لم يكن قد وجد بعد أى تمييز بين الحقوق والواجبات ، ومسألة ما إذا كانت المساهمة فى الشئون العامة أو الانتقام للدم ونحوها تعتبر واجبا أو حقا ، هذه المسألة لم تكن تشتغل تفكير الهندى وكانت تبدو له مثل الأكل والنوم والصيد لا يهم أن كانت حقا أو واجبا . ولم يكن ممكنا أن تنقسم القبيلة والسلالة إلى طبقات اجتماعية ، وهذا يقودنا إلى البحث عن الأسس الاقتصادية لهذه الظروف .

كان عدد الشعب قليلا جدا ومبعثرا فى إقليم كبير ولم يكن مركزا إلا فى موطن القبيلة تحيط به أرض الصيد الواسعة الخاصة بها وبعدها غابة تعتبر إقليما محايدا يفصل القبيلة عن القبائل الأخرى . وكان تقسيم العمل بطريقة طبيعية مبسطة جدا فقد كان تقسيما للعمل بين الرجل والمرأة فقط ، فكان الرجال يذهبون للحرب والصيد والحصول على المواد الأولية للطعام والأدوات الضرورية لتحقيق هذا الغرض ، وكانت النساء تتولى العناية بالبيت وإعداد الطعام والملابس والطهى والغسل والحياكة . وكان كل من الجنسين سيدا فى مجال نشاطه ، الرجل فى الغابة والمرأة فى البيت . وكان كل منهما يملك ما ينتجه أو يستخدمه من الأدوات فكان الرجال يملكون الأسلحة وأدوات الصيد وتملك النساء أثاث

البيت . وكانت الوحدة المنزلية مشاعية تشمل عدة أسر [1] . وكان كل شيء ينتج يستعمله الجميع ويعتبر ملكا للجيع مثل المنزل والحديقة وقارب الصيد . وهنا فقط نجـــد الملكية المكتسبة » التى قدمها الفقهاء والإقتصاديون زائفة إلى المجتمع المتمدن باعتبارها آخر تعبير قانونى ترتكز عليه الملكية الرأسمالية الحديثة .

ولكن الإنسان لم يظل فى هذه المرحلة فى كل بقاع الأرض . ففى آسيا وجد حيوانات يمكن استئناسها وجمعها تحت سيطرته ، وكان يصطاد البقر الوحشى وكان البقر المستأنس ينتج له عجلا مرة كل سنة ويدر له اللبن أيضاً . وقد قامت باستئناس الحيوانات عدد من أكثر القبائل تقدما وهم الآريون والساميون وربما التورانيون أيضا . وبعد ذلك تكونت القطعان من الماشية التى أصبحت العمل الأساسى لهذه القبائل . وقد انشقت قبائل الرعاة من المجموعة العامة للبربرين وكان هذا هو أول تقسيم اجتماعى كبير للعمل . وكانت هذه القبائل الرعاة تنتج مواد طعام وأنواع أكثر من باقى المتبربرين فقد كان عندها اللبن ومنتجاته واللحوم بكميات وفيرة عن الآخرين ، كما كان لديهم الجلود والصوف وشعر الماعز والغزل والنسيج الذى حول المواد الخـــام المتزايدة إلى الاستعمال العـام . وقد سبب ذلك للمرة الأولى التبادل المنتظم ، ففى المراحل السابقة كانت عمليات التبادل تتم بصفة غير دورية ، وربما كانت المقدرة الشخصية الاستثنائية فى صنع الأسلحة والأدوات سببا

(١) خصوصا على الساحل الشمالى الغربى لأمريكا [أنظر باتشوفن] ، فعند الهايداس القاطنين بجزائر الملكة شارلوت تجمعت عدة وحدات منزلية معـا فى عدد يبلغ السبعمائة تحت سقف منزل واحد ، عند النوتكاس كانت قبائل كاملة تعيش تحت سقف منزل واحد . (المؤلف)

فى إيجاد تقسيم سريع للعمل . وقد وجدت مخلفات لايمكن إنكارها لمصانع الأدوات الحجرية من الزمن النيوليثك فى أمكنة كثيرة . وكان الصناع الذين نمت مقدرتهم فى هذه المصانع يعملون للمجوعة كلها فى الغالب كايفعل الحرفيون الدائمون إلى الآن فى المجتمعات القبلية الهندية وعلى أى حال فلم يكن ممكنا إيجاد أى نوع آخر من التبادل فى القبيلة فى هذه الرحلة ، وحتى هـذا النوع كان استثناءا وبعد تبلور قبائل الرعاة وجدت كل الظروف التى تمكن من وجود عمليات التبادل بين مختلف القبائل وتنميتها وتحولها إلى نظام عادى وقد كانت القبائل فى الأصل تجرى عمليات التبادل عن طريق رؤسائها . وعندما بدأت القطعان الحيوانية تتحول إلى الملكية الخاصة ازداد التبادل بين الأفراد تدريجيا حتى أصبح الشكل الوحيد للتبادل . وكانت المادة الرئيسية التى تقدمها قبائل الرعاة لجيرانها هى الماشية فقدأصبحت الماشية هى السلعة التى كانت كل السلع الأخرى تثمن بها وكانت تقبل فى كل مكان فى مقابل السلع الأخرى ، وباختصار كانت الماشية تقوم مقام النقود فى هذه المرحلة . وكانت هذه هى الضرورة التى تزايد بسببها طلب وجود سلعة نقدية فى بداية تبادل السلع .

أما زراعة الحدائق التى يحتمل أنها لم تكن معروفة لدى الآسيويين فى المرحلة الدنيا للبربرية فقد ظهرت عندهم على الأكثر فى المرحـــلة الوسطى كخطوة تالية لزراعة الحقول فإن مناخ أراضى التورانيين العليا لا يسمح بحياة الرعى دون مدد إضافى من الطعام للشتاء الطويل القاسى ، وعلى ذلك قد أصبحت زراعة القمح والحشائش ضرورية . ونفس الشىء ينطبق على منطقة الاستبس شمال البحر الأسود . أما القمح الذى كان فيما مضى طعاما للحيوان فقد أصبح طعاما للإنسان . وظلت الأرض

المنزرعة مملوكة للقبيلة وكانت أول أمرها مملوكة للسلالة التى وزعتها فيما بعد إلى الوحدات العائلية لاستعمالها ، وأخيرا منحت للأفراد حقوق الحيازة ليس إلا .

أما النجاح الصناعى فى هذه المرحلة فأهم مظاهره اثنان هما آلات الغزل (النول) واستخراج المعادن وأهمها القصدير والبرونز والنحاس ، وكانت الأدوات والأسلحة تصنع من البرونز ولكنه لم يستطع الحلول محل الأدوات الحجرية كلية وكان الحديد وحده هو الذى يستطيع ذلك ولكنه لم يكن قد استخرج بعد . وبدأ استعمال الذهب والفضة فى الحلى ولابد أنهما كانا أعلا قيمة لديهم من البرونز والنحاس .

وقد مكنت الزيادة فى كل فروع الإنتاج ، فى تربية الماشية والزراعة والحرف المنزلية ، مكنت هذه الزيادة قوة العمل الإنسانى من إنتاج أكثر مما يحتاجه الإنسان ، وزادت فى الوقت نفسه كمية العمل اللازمة لكل عضو من أعضاء الأسرة أو الوحدة العائلية أو السلالة . وأصبحت إضافة عمل جديدة أمرا مرغوبا فيه وكانت هذه الإضافة ممكنة عن طريق الحروب وتحويل الأسرى إلى عبيد . وفى ظل الظروف التاريخية القائمة تم التقسيم الكبير الأول للعمل وبزيادة القوة الانتاجية للعمل أى الثروة وتوسيع نطاق الإنتاج ، كل ذلك حمل معه الرق . ومن التقسيم الاجتماعى الكبير الأول للعمل نشأ التقسيم الكبير الأول للمجتمع إلى طبقتين ، سادة وعبيد ، مستغلين ومستغلين .

ولا نعلم إلى اليوم كيف ومتى تحولت الملكية الجماعية للقبيلة أو السلالة فى القطعان إلى الملكية الفردية لأفراد العائلة ولكن لابد أن ذلك قد حدث بصفة رئيسية فى هذه المرحلة . فالماشية وموضوعات

الثروة الأخرى سببت ثورة فى العـائلة ، فكسب العيش كان دائما عمل الرجل ولذلك كان ينتج ويملك وسائل الإنتاج وكانت الماشية هى الوسيلة الجديدة لكسب العيش وكان إستئناسها وتربيتها فى الأصل عمل الرجل، وعلى ذلك فقد كان الرجل يملك القطيع والسلع والعبيد التى كانت الماشية تبادل بها . وكان كل الفـائض من الإنتاج من نصيب الرجل . وكانت المرأة تشارك الرجل فى إستهلاك هذه الأشـــياء دون أن تشاركه فى ملكيتها .

لقد كان الصياد والمحارب فى عصر الوحشية قانعا بأن يشغل المكان الثانى فى بيته ويترك الرئاسة للمرأة أما الراعى المسـالم فقد إعتمد على ثروته للوصول إلى المكان الأول فى البيت ودفع بالمرأة إلى المـكان الثانى ولم تستطيع المرأة الإعتراض . ونظم تقسيم العمـل فى المنزل توزيع الملكية بين الرجل والمرأة .

وظل هذا التقسيم دون تغير ومع ذلك فقد قلب العـلاقة المنزلية السابقة رأسا على عقب لأن تقسيم العمل خارج العـائلة كان قد تغير . فالسبب الذى جعل المرأة فيما سبق سيدة المنزل وهو كونها مسئولة عن العمل المنزلى أكد الآن سيادة الرجل وفقد عمل المرأة المنزلى قيمته بمقارنتـه بعمل الرجل فى سـبيل كسب العيش ، فقـد كان كسب العيش هو كل شيء وأصبح عمل المـرأة مساهمة تافهـة . وهنا نرى أن تحرر النساء ومساواتهن بالرجال تصبح مستحيلة وتظل كذلك طالما بقيت النساء مبعدة عن العمل الإجتماعى المنتج ومختصة بالعمل المنزلى فقط وهو شيء خاص ولا يصبح تحرير المرأة ممكنا إلا عندما تتمكن المرأة من المساهمة فى الإنتـــاج على نطاق واسع وعندما يصبح العمل

المنزلى شيئا ثانويا بالنسبة لها . وقد أصبح هذا ممكنا نتيجة الصناعة الحديثة الواسعة النطاق التى أصبحت مساهمة المرأة فيها ضرورية وزيادة على ذلك فقد جعلت المرأة تكافح من أجل تحويل العمل المنزلى الخاص إلى وظيفة عامة .

وقد حطم حصول الرجل على السلطة فى المنزل العائق الأخير أمام إستبداده ، وتأكد هذا الإستبداد وإستمر بالقضاء على الإنتساب للأم وتطبيق الإنتساب للأب والتحول التدريجى من العائلة المكونة من فردين إلى الزواج الحديث ، وقد كان ذلك ضربة للنظام القبلى فقد أصبحت العائلة الزوجية الحديثة قوة وأصبحت تهديدا للسلالة .

والخطوة الثانية تقودنا إلى المرحلة العليا للبربرية ، وهى الفترة التى مرت خلالها كل الشعوب المتمدنة أثناء عصورها البطولية ، فهى فترة السيف الحديدى والمحراث والفأس الحديديين .

وأصبح الحديد خادم الإنسان ، وكان الحديد آخر وأهم كل المواد الخام التى لعبت دوراثوريا فى التاريخ وهو آخر هذه المواد ظهورا . فقد جعل الحديد زراعة الحقول ممكنة على نطاق واسع كما مكن من قطع أشجار الغابات الممتدة وتهيئها للزراعة ، وقدم الحديد للحرفيين آلة من القوة والحدة لدرجة لا ينافسها أى حجر أو معدن آخر . وقد تم كل هذا تدريجيا ، فأول حديد أنتج كان غالبا أقل صلابة من البرونز ، واختفت الأسلحة الحجرية تدريجيا ، وكانت الفؤوس الحجرية لا تزال تستعمل فى القتال كما جاء بأغنية هيلدبراند وكما حدث فى معركة هاستنجر سنة ١٠٦٦ . وكان التقدم لا يمكن مقاومته . وفى المدن كانت تبنى المنازل من الحجاره أو الطوب داخل حوائط المدن الحجرية ذات الأبراج والشرفات

وأصبحت مثل هذه المدن المقر المركزى للقبيلة أو إتحاد القبائل ، وكانت سببا فى تقدم فن البناء كما كانت دليلا على الخطر المتزايد والحاجة للحماية. وإزدادت الثروة سريعا ولكنها كانت مملوكة للأفراد . كما إزداد التخصص فى صناعة المعادن والحرف الأخرى وتطور الفن الصناعى . وكان الزراعة تمدهم بالحبوب والخضروات والفواكه كما كانوا يصنعون الزيت والنبيذ . ومثل هذا النشاط المتعدد لهم يكن ممكنا أن يقوم به فرد واحد ، وهنا تم التقسيم الثانى الكبير للعمل فقد إنفصلت الحرف عن الزراعة . رفعت الزيادة المستمرة فى الإنتاج والنشاط المتزايد فى العمل ، رفعا من قيمة العمل الإنسانى . وأصبح الرق فى هذه المرحلة جزءا هاما من النظام الإجتماعى بعد أن كان مبتدئا متفرقا فى المرحلة السابقة . وأصبح العبيد يدفعون فى جماعات إلى العمل فى الحقول والمصانع . وقد ترتب على تقسيم العمل إلى فرعين كبيرين ، الزراعة والحرف اليدوية ، ترتب على ذلك قيام الإنتاج من أجل التبادل ، كما ظهر إنتاج السلع ، وجاءت التجارة معهما ولم تقتصر على حدود القبيلة بل إنتقلت عبر البحار . وكل ذلك لم يكن قد اكتمل نموه بعد . وكانت المعادن الثمينة تفضل فى إستعمالها كسلعة نقدية عالمية إذ لم يكن سك النقود من المعادن الثمينة قد عرف بعد وكانت هذه المعادن تقدر عند المبادلة بوزنها فقط . وأضيف التفريق بين الغنى والفقير إلى التفريق بين الحر والعبد ، ومع التقسيم الجديد للعمل جاء التقسيم الجديد للمجتمع إلى طبقات .

وقد كان الإختلاف فى الثروة بين العائلات المختلفة سببا فى تحطيم مجتمعات الوحدات العائلية المشاعية القديمة فى كل مكان كانت هذه المجتمعات لا تزال قائمة فيه ، وهكذا وضع حد للزراعة الجماعية للأرض

لحساب المجتمع كله . وكانت الأرض المزروعة تخصص لاستعمال عدة عائلات ، لمدة محدودة أول الأمر ثم باستمرار بعد ذلك . وتم الانتقال إلى الملكية الخاصة الكاملة بالتدريج وجنبا إلى جنب مع الانتقال من العائلة المكونة من فردين إلى الزواج الحديث . وبدأت العائلة تصبح الوحدة الاقتصادية للمجتمع .

وحتمت الكثافة المستمرة فى السكان وجود إتحاد أقوى بينهم فى الداخل والخارج وأصبح إتحاد القبائل المرتبطه برابطة القرابة ضرورة فى كل مكان وبعد ذلك فورا تم امتزاج هذه القبائل ثم امتزاج الأقاليم القبلية المتفرقة فى اقليم واحد يكوّن قطرا لشعب معين . وأصبح القائد العسكرى للشعب (Rex — أو bacileus أو thiudans) موظفاً رسمياً دائما وضروريا . وكانت الجمعية الشعبية تنشأ فى كل مكان لم توجد فيه بعد ، وكان القائد العسكرى والجمعية الشعبية والمجلس يكونون الديموقراطية العسكرية التى تطور إليها المجتمع القبلى ، وقد كانت ديموقراطية عسكرية لأن الحرب والاستعداد لها كانا من الأعمال المنتظمة فى حياة الشعب . وكانت ثروات الشعوب المجاورة تجتذب إهتمام الشعوب الأخرى التى بدأت تنظر إلى الحصول على الثروة على أساس أنه أحد الأغراض الأساسية فى الحياة . وكانت هذه الشعوب بربرية وكان السلب يبدو لهم أسهل وأشرف من العمل المنتج أما الحرب التى كانت من قبل تقوم من أجل الإنتقام أو توسيع الاقليم الذى يصبح غير كاف لسكانه ، فقد أصبحت تقوم الآن من أجل السلب وحده وأصبحت حرفة دائمة . ولم تكن إقامة الأسوار المتينة حول المدن المحصنة الجديدة دون سبب وقد كانت خنادقها المحصنة مقبرة النظام القبلى ووصلت أبراجها إلى المدنية .

وعانت الشئون الداخلية تغييرا مماثلا فقد زادت حروب السلب من قوة القائد العسكرى الأعلى والقواد الأدنى مرتبة . وتحول الإنتخاب الذى جرت عليه العـــادة للمنحدرين من أسرة واحدة خاصة بعد الإنتساب للأب ، تحوّل تدريجيا إلى خلافة وراثية فى المناصب ، وكانت هذه الوراثة مسموحا بها أول الأمر ثم مدّعى بها ثم مغتصبة .

وتم تأسيس الملكية الوراثية والأرستقراطية الوراثية . وبهذه الطريقة انتزعت أجهزة النظام القبلى تدريجيا من جذورها فى الشعب والسلالة والأخوّة والقبيلة وتحول التنظيم القبلى كله إلى عكسه ، تحول من تنظيم للقبائل لإدارة شئونها فى حرية إلى تنظيم لسلب وإستعباد الشعوب المجاورة وتحولت طبقا لذلك أجهزة التنظيم القبلى من أدوات تحت مشيئة الشعب إلى أجهزة مستقلة لحكم الشعب والإستبداد به . ولم يكن ذلك بمستطاع الحدوث إذا لم يقسم الإختلاف فى الثروة أعضاء القبائل إلى غنى وفقير ، وإذا لم تغير الإختلافات فى الثروة فى السلالة ، إذا تغير المجتمع الموحد المصالح إلى الصراع بين أعضاء السلالة الواحدة ، وإذ لم يكن نمو الرق قد بدأ فعلا ووصم العمل من أجل العيش بالحقارة على أنه عمل من أعمال العبيد أشد مهانة من الإشتراك فى السرقة .

... ...

وهذا يؤدى بنا إلى مدخل المدنية . وتبدأ هذه المرحلة بتقدم أكثر فى تقسيم العمل . ففى المرحلة الدنيا كان الرجال ينتجون لإشباع حاجاتهم المباشرة فقط وكان التبادل محصورا فى حالات متفرقة عندما يتصادف وجود فائض فى الإنتاج . وفى المرحلة الوسطى للبربرية نجد أن الشعوب التى تعيش على الرعى كان لها فى قطعانها نوعا من الملكية ينتج عنه

بانتظام نظرا لوفرة الماشية فائض من الإنتاج يزيد عن حاجتهم ، كما نجد تقسيما للعمل بين شعوب الرعاه والقبائل المتأخرة التي لا تملك ماشية . وعلى ذلك فقد كانت هناك مرحلتان للإنتاج توجدانَ جنبا إلى جنب مما خلق الظروف المناسبة للتبادل المنتظم ، وقدمت المرحلةَ العليا للبربرية تقسيما أكثر للعمل بين الزراعة والحرف اليدوية تسبب فيه إنتاج نسبة مستمرة الزيادة من البضائع للمبادلة خاصة بحيث وصلت المبادلة بين الأفراد المنتجين إلى نقطة أصبحت عندها المبادلة ضرورة حيوية للمجتمع .

وقد قوت المدينة وزادت من كل التقسيمات القائمة للعمل ، خصوصا بتقويتها للتعارض بين المدن والريف (فإما أن تكون المدينة السيادة الإقتصادية على الريف كما فى العصور القديمة وأما العكس كما فى العصور الوسطى) كما أضافت المدنية تقسيما ثالثا للعمل غريب على نفسه وذو أهمية حاسمة ، فقد خلقت طبقة لاتشترك فى الإنتاج ولكن تشترك إلى أقصى حد فى تبادل المنتجات هى طبقة التجار . فكل التقسيمات الأصلية السابقة للطبقات كانت مرتبطة تماما بالإنتاج فقد كانت تقسيما لهؤلاء المشتركين فى الإنتاج إلى مديرين وعاملين أو إلى منتجين على نطاق واسع [الأغنياء] ومنتجين على نطاق ضيق (الفقراء) . ولكن نجد هنا أن طبقة ظهرت لأول مرة وهى تستحوذ على الإنتاج ككل وتسيطر إقتصاديا على المنتجين وتخضعهم لحكمها دون أن تشترك بأى نصيب فى الإنتاج ، وقد كانت طبقة تجعل من نفسها وسيطا حتميا بين طبقتين من المنتجين وتستغل كليهما . وباسم حماية المنتجين من متاعب ومخاطر المبادلة ، وباسم إيجاد أسواق بعيدة لمنتجاتهم ، تصبح هذه الطبقة الجديدة (التجار) أهم طبقة نافعة فى المجتمع ، وهى طبقة طفيلية ومنافقة

إجتماعية خالصة ، تأخذ نظير خدمة غير جوهرية الزبد من الإنتاج فى الوطن وفى الخارج وتستحوذ بسرعة على ثروات ضخمة وبالتالى على نفوذ إجتماعى ، ولهذا السبب تطمع فى مزيد مستمر من المناصب وتكسب رقابة متزايدة على الإنتاج خلال فترة المدنية إلى أن تخلق شيئا من إنتاجها الخالص تقدمه إلى المجتمع هو الأزمات الإقتصادية الدورية .

وفى مرحلة النمو التى ندرسها هذه ، لم تكن طبقة التجار الفتية تعرف بعد الأشياء الضخمة التى كانت مختزنة من أجلها ، ولكنها ظهرت كطبقة وجعلت نفسها ضرورية وكان هذا يكفيها .

ومع ظهور هذه الطبقة دخلت النقود المعدنية والعملة المسكوكة فى دائرة التعامل ، وبسبب ذلك ظهرت وسائل جديدة يستطيع غير المنتج بها أن يتحكم فى المنتجين وإنتاجهم . فسلعة السلع (أى النقود) التى تختفى فى طياتها كل السلع كانت قد إكتشفت وكانت الإغراء الذى يستطيع أن يحول نفسه بإرادته إلى أى شىء مرغوب فيه . وأيا كان مالك هذه النقود فهو يستطيع أن يحكم عالم الإنتاج ، ومن الذى كان يملكها أكثر من الجميع ؟ التاجر . ففى يديه كانت هيبة النقود فى مأمن فقد أوضح للجميع أن كل السلع وبالتالى كل منتجى السلع يجب أن تركع أمام النقود . وأثبت التاجر فى الحياة العملية أن كل أشكال الثروة الأخرى عبارة عن صور إذا ما قورنت بهذا الأصل المجسم للثروة . ولم تظهر قوة النقود نفسها بعد ذلك بمثل هذه الحالة البدائية والعنف كما فعلت فى هذه الفترة من شبابها .

وبعد بيع السلع من أجل النقود جاء إقتراض النقود بالربا ولم يلق

أى تشريع ظهر فى فترة لاحقة ، بالمدين تحت أقدام المرابى الدائن دون شفقة أو رحمة كما فعل تشريع أثينا وروما القديم ، فكلا التشريعين جعل الضغط الإقتصادى قانونا تلقائيا .

وبجانب الثروة فى السلع والعبيد ، وبجانب الثروة النقدية ظهرت الثروة فى الشكل العقارى . لحقوق الأفراد فى قطع الأرض التى منحتها لهم فى الأصل السلالة أو القبيلة أصبحت سائدة لدرجة أن هذه الأراضى أصبحت ملكية متوارثة للأفراد . وكان أكثر شيء صارع الأفراد فى سبيله إلى ما قبل هذه الفترة هو تحررهم من إدعاء المجتمع القبلى الحق فى أراضيهم ، وكان هذا الإدعاء قيدا عليهم . وقد تحرر الأفراد من هذا القيد ولكنهم تحرروا بعد ذلك فورا من ملكيتهم العقارية الجديدة نفسها . وقد تضمنت الحرية الكاملة فى الملكية العقارية إمكانية الملكية غير المحدودة وإمكانية نقل هذه الملكية ، فطالما كانت الأرض مملوكة للسلالة لم يكن ممكنا نقل ملكيتها . ولكن عندما حطم الملاك الجدد قيود الحق الأعظم للسلالة والقبيلة مزقوا أيضا الروابط التى ربطته وقتا طويلا بالأرض .

وقد وضح معنى ذلك من النقود التى ظهرت جنبا إلى جنب مع الملكية الخاصة فى الأرض . وأصبحت الأرض سلعة يمكن بيعها ورهنها . وعندما إكتشف الرهن أصبح من الصعب إدخال الملكية الخاصة فى الأرض [أنظر أثينا] ، وكما إرتبط البغاء والعلاقات غير المشروعة بالزواج الحديث ارتبط الرهن بملكية الأرض .

أما الامتداد التجارى ؟ النقود والربا والملكية العقارية والرهن فكانت مصحوبة بالتركيز السريع للثروة فى أيدى طبقه صغيرة ومن ناحية أخرى كان الإفتقار المتزايد للكتل الشعبية وظهرت كتلة كبيرة من

الفقراء . ودفعت أرستقراطية الثروة الجديدة بالجماهير إلى الحضيض دائما [أنظر أثينا وروما وألمانيا] بشكل أقسى كثيراً مما فعلته الأرستقراطية القبلية القديمة وكان تقسيم الرجال الأحرار إلى طبقات طبقا لثروتهم مصحوبا [خاصة لدى الإغريق] بزيادة ضخمة فى عدد العبيد[1] . وكان عمل العبيد الإجبارى هو الأساس الذى يقوم عليه الصرح الكامل للمجتمع .

ولنرى الآن ما إنتهى إليه النظام القبلى نتيجة هذه الثورة الإجتماعية . فقد وقف النظام القبلى عاجزا فى وجه العناصر الجديدة التى نمت دون مساعدته . وكان معتمدا على اضطرار أعضاء السلالة أو القبيلة أن يعيشوا معا فى إقليم واحد ويكونون قاطنية الوحيدين وقد بقى ذلك مدة طويلة . وقد امتزجت الفروع والقبائل فى كل مكان وأصبح العبيد والتابعون والأجانب يعيشون مع المواطنين .

وكان يزعج الدولة التى لم تكن مطلوبة إلا حوالى نهاية المرحلة الوسطى للبربرية ، كان يزعجها التنقل وتغير المقر الذى كانت التجارة وتغير حيازة الأرض مشروطين به . ولم يعد فى إستطاعة أعضاء التنظيم القبلى الأجتماع لبحث أمورهم العامة إلا فى حالات قليلة الأهمية مثل الإحتفالات الدينية التى كانت لا تزال تراعى دون إكتراث . فبجانب المصالح التى قامت أجهزة التنظيم القبلى للعناية بها ، ظهرت مصالح جديدة فى مجال كسب العيش والتغير الذى ترتب على ذلك فى البناء الإجتماعى وقد كانت هذه المصالح الجديدة غريبة على النظام القبلى ومعارضة له فى

---

(١) سبق ذكر عدد العبيد فى أثينا ، وفى كورنث أيام إزدهارها كان عدد العبيد ٤٦٠ ألفاً وفى إيجينا ٤٧٠ ألفا أى أنه فى كلا المدينتين كان عـــدد العبيد عشرة أمثال عدد المواطنين . (المؤلف)

كل إتجاه . فمصالح مجموعات الحرفيين التى خلقها تقسيم العمل ، والحاجات الخاصة للمدن ، كانت تتطلب أجرة جديدة ، ولما كانت المجموعات الإجتماعية الجديدة تتكون من أناس من مختلف الفروع والأخوات والقبائل وتشمل حتى الأجانب ، فقد كان على الأجهزة الجديدة أن تتشكل خارج النظام القبلى وكان ذلك يعنى أن تكون ضد هذا النظام . ومرة ثانية نقول أنه فى كل تنظيم قبلى أصبح تعارض المصالح محسوسا ووصل إلى قمته بكون الأغنياء والفقراء والمرابين والمدينين مندمجين فى نفس الفرع والقبيلة . كما كانت هناك كتلة المقيمين الجدد الأجانب عن الإتحادات القبيلة والذين إستطاعوا [كما فى روما] أن يصبحوا قوة وكان عددهم من الكثرة بحيث لا يمكن للفروع والقبائل المرتبطة برباط الدم أن تبتلعهم بالتدريج . وواجهت الإتحادات القبلية هذه الكتل كمجموعات ذات مزايا قوية . وتحولت الديموقراطية الأصلية الطبيعية النمو الى أرستقراطية مكروهة .

وأخيراً فقد نشأ النظام القبلى ونما فى مجتمع لم يعرف الصراع الداخلى ولذلك لم يكن هذا النظام صالحا إلا لمثل هذا المجتمع . ولم تكن لهذا النظام أى قوة إلزامية سوى الرأى العام .

ولكن جاء الآن مجتمع جديد كان عليه أن يفرق بين الأحرار والعبيد وبين الأغنياء والفقراء نظرا لقوة الظروف الاقتصادية التى أوجدته ، وكان مجتمعا عاجزا عن التوفيق بين المصالح المتعارضة بل كان عليه أن يزيد من حدة هذا التعارض . ومثل هذا المجتمع لم يكن ممكنا وجوده إلا فى حالة صراع علنى مستمر بين هذه الطبقات أو تحت حكم قوة ثالثة وهى القوة التى كانت تقف فى الظاهر فوق الطبقات المتصارعة بينما كانت تضغط الصراع العلنى بين الطبقات ولا تسمح بالصراع الطبقى

إلا فى الميدان الاقتصادى على أكثر تقدير و بشكل يسمى شروعى . إذن فقد استنفد النظام القبلى أغراضه وتحطم عن طريق تقسيم العمل ونتيجته الحتمية وهى تقسيم المجتمع إلى طبقات ، وحملت الدولة محل النظام القبلى .

* * *

بحثنا فيما سبق كل من الأشكال الرئيسية الثلاث التى نمت فيها الدولة على حطام النظام القبلى . وكانت أثينا تمثل أكثر الأشكال كلاسيكية ، فقد خرجت الدولة فيها مباشرة وبصفة أساسية من الصراع الطبقى الذى نما فى المجتمع القبلى . وفى روما أصبح المجتمع القبلى أرستقراطية كاملة يقف خارجها عدد كبير من الأفراد المحرومين من الحقوق وكل ماعليهم هو الواجبات . وقد حطم انتصار هذه الطبقة الدنيا فى روما المجتمع القبلى القديم وأقام على أنقاضه الدولة التى ابتلعت كل من الارستقراطية القبلية والطبقة الدنيا على السواء . وأخيرا فقد قامت الدولة عند الألمان الذين هزموا الامبراطورية الرومانية ، قامت كنتيجة مباشرة لفتح أراضى أجنبية واسعة لم تكن لدى النظام القبلى وسائل حكمها . وحيث أن هذا الفتح لم يحتم وجود صراع خطير مع الشعب القديم أو تقسيم أكثر تقدما للعمل ، وحيث أن المنتصرين والمنهزمين كانوا تقريبا فى نفس المرحلة من التطور الاقتصادى فبقيت الأسس الاقتصادية كما كانت من قبل ، لذلك استطاع النظام القبلى أن يظل قائما مدة قرون عديدة بشكل إقليمى مختلف ، فى شكل إتحاد المارك ، كما استطاع أن يجدد شبابه لمدة من الزمن بشكل أضعف فى العائلات الارستقراطية المنتسبة للأب التى جاءت

بعد ذلك وحتى فى عائلات الفلاحين كما فى دثمارشن [1] .

وعلى ذلك فالدولة ليست بأى حال قوة مفروضة على المجتمع من لاشيء ، أو كما يقول هيجل خطأ أنها «تحقيق لفكرة أدبية» أو «صورة وحقيقة العقل» . فالدولة شيء أنتجه المجتمع فى مرحلة معينة من نموه والدولة هى الاعتراف بأن المجتمع قد أصبح مصابا بتعارض لاحل له مع نفسه وأنه أصبح غارقا فى صراع لاتخف حدته عجز عن إزالته . ولكى لاتدفع هذه الخلافات والطبقات المتصارعة بنفسها وبالمجتمع إلى صراع قاتل أصبح ضروريا وجود قوة تقف فى الظاهر فوق المجتمع لتخفيف النزاع وحصره داخل دائرة القانون ، وهذه القوة التى قامت من المجتمع ووضعت نفسها فوقه وزادت من استقلالها عنه هى الدولة .

وبعكس التنظيم القبلى القديم على طول الخط ، فإن الدولة تقسم وظائفها طبقا للإقليم . وكما سبق ورأينا فقد أصبحت الاتحادات القبلية القديمة المبنية على روابط الدم ، أصبحت غير صالحة خاصة لأنها تقوم على أساس ارتباط أعضائها بإقليم معين وهو رباط ظل قائما لوقت طويل. وقد ظل الإقليم على ماهو عليه ولكن ساكنيه أصبحوا كثيرى التنقل ، وعلى ذلك فقد اتخذ التقسيم طبقا للإقليم كنقطة البدء وكان من حق المواطنين ممارسة حقوقهم وواجباتهم العامة اينما استقروا بصرف النظر عن السلالة أو القبيلة . ويعتبر تنظيم المواطنين طبقا للإقليم صورة معروفة لكل الدول ، وهذا هو فى السبب أنه يبدو طبيعيا لنا ، ولكننا

---

(١) كان نيبور هو المؤرخ الأول الذى كانت لديه فكرة صحيحة عن طبيعة السلالة وذلك بفضل معلوماته عن عائلات دثمارشن ، التى كانت أيضا سبب الأخطاء التى وقع فيها . (المؤلف)

قد رأينا كيف احتاج تغيير هذا النظام إلى صراع طويل مرير فى أثينا وروما .

وثانى شيء فى الدولة هو إنشاء قوة عامة لم تعد تلازم الشعب الذى كان ينظم نفسه كقوة مسلحة .

وكانت هذه القوة العامة ضرورية لأن إستمرار قيام الشعب بتنظيم نفسه كقوة مسلحة أصبح مستحيلا منذ إنقسام المجتمع إلى طبقات . فقد كان العبيد أيضا ينتمون إلى السكان ، وكان التسعون ألف مواطن أثينى يكونون طبقة ممتازه ضد الثلاثمائة وخمسة وستون ألف عبد . وقد كان جيش الشعب فى الديموقراطية الأثينية عبارة عن قوة أرستقراطية عامة موجهة ضد العبيد لإبقائهم تحت سلطتها ، وقد كان وجود الجيش ضروريا على أى حال ليبقى المواطنون أنفسهم تحت سلطة الدولة كما ذكرنا قبلا . وتوجد هذه القوة العامة فى كل دولة وتتكون من جنود مسلحين ووسائل مساعدة مادية كالسجون والإدارات الحكومية من كل نوع وهو مالم يعرفه المجتمع القبلى وهذه الوسائل تكون غير ذات معنى فى المجتمعات التى لم يتطور فيها الصراع الطبقى كما كان الحال لدى الهنود الحمر ، ويزداد نمو هذه الوسائل كلما ازداد الصراع الطبقى فى الدولة وكلما اتسعت الدول الناشئة وزاد عدد سكانها . وما علينا إلا أن ننظر إلى أوربا فى يومنا الحالى[1] حيث كان الصراع الطبقى والمنافسة على الإستعمار سببا فى زيادة القوة العامة إلى درجة تهدد بابتلاع المجتمع كله والدولة نفسها . ولكى يمكن المحافظة على هذه القوة العامة كان لابد من الحصول على

---

(١) أواخر القرن التاسع عشر ، وما أشبه الليلة بالبارحة . (المترجم)

عطايا من المواطنين لجاءت الضرائب وقد كانت مجهولة تماما فى النظام القبلى .

ولما تقدمت المدينة أصبحت هذه الضرائب غير كافية فوضعت الدولة مشروعات المستقبل وعقدت القروض العامة وغير ذلك ، وتستطيع أوربا القديمة إخبارنا بالكثير فى هذا الشأن .

وبحيازة السلطة العامة وجمع الضرائب أصبح الحاكمون فوق المجتمع باعتبارهم أجهزة المجتمع . أما الإحترام الاختيارى الحر الذى كانت أجهزة النظام القبلى تتمتع به فلم يعد يكفى الحاكمين ولو إستطاعوا الحصول عليه ، فلكونهم فوق المجتمع فالإحترام لهم يجب أن يفرض بقوانين إستثنائية يمارسون بفضلها مكانة خاصة . ويتمتع رجل البوليس العادى فى الدولة المتمدنة اليوم بسلطة تفوق سلطة أجهزة النظام القبلى مجتمعة ، ولكن لاشك أن أكثر الأمراء نفوذا وأكبر الحكام فى الدولة المتمدنة يحسدون الرئيس القبلى المتواضع على الإحترام المطلق الذى كان يتمتع به . وقد كان الرئيس القبلى يقف وسط المجتمع بينما يحاول الحاكم تمثيل شىء خارج عن المجتمع وفوقه .

حيث أن الدولة نشأت من الحاجة للسيطرة على الصراع الطبقى ، وحيث أنها نشأت فى نفس الوقت وسط هذا الصراع فهى دولة الطبقة الاقوى بصفة عامة ، الطبقة المسيطرة إقتصاديا والتى تصبح عن طريق الدولة الطبقة للسيطرة سياسيا كذلك ، ولذلك تتطلع إلى وسائل جديدة للسيطرة على الطبقة الخاضعة واستغلالها . وعلى ذلك فقد كانت الدولة فى النظم القديمة هى دولة ما لكى العبيد للسيطرة على العبيد ، كما كانت الدولة الإقطاعية هى جهاز الأرستقراطية

للسيطرة على رقيق الأرض من الفلاحين والتابعين ، كما كانت الدولة النيابية الحديثة هى أداة رأس المال لإستغلال العمل الأجير .

وبطريق الاستثناء تظهر فترات يحدث فيها توازن بين الطبقات المتصارعة لدرجة أن سلطة الدولة كوسيط عشوائى تتطلب إلى حين درجة معينة من الإستقلال لكل طبقة ، وكان هذا هو حال الملكية المطلقة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كان التوازن قائما بين النبلاء وطبقة سكان المدن ، وكذلك كان الحال فى عهد بونابرت الأول والإمبراطورية الفرنسية الثانية التى أثارت الطبقة العاملة ضد البورجوازية والبورجوازية ضد الطبقة العاملة . وآخر صورة لهذا النوع الذى يظهر فيه الحكام والمحكومون على قدم المساواة كانت فى الإمبراطورية الألمانية الجديدة أيام بسمارك حيث كان التوازن قائما بين الرأسماليين والعمال من أجل مصلحة البحارة البروسيين الفقراء .

وفى معظم الحالات التاريخية تتناسب حقوق المواطنين مع ثرواتهم ، وهذا يؤكد أن الدولة هى تنظيم من الطبقة المالكة لحمايتها من الطبقة التى لا تملك ، وقد كانت كذلك فى التقسيم الرومانى والأثينى للمواطنين طبقا لثرواتهم ، وكانت كذلك فى الدولة الاقطاعية فى العصور الوسطى التى كانت السلطة السياسية فيها تتناسب مع مساحة الأرض المملوكة ، ويظهر ذلك أيضا فى المؤهلات الإنتخابية للدولة النيابية الحديثة . وهذا الإعتراف السياسى بالتمييز بسبب الملكية ليس أساسيا بأى حال ، فهو على العكس يدل على مرحلة دنيا من تطور الدولة ، فالشكل الأعلا للدولة هو الجمهورية الديموقراطية الذى يصبح تدريجيا فى ظل ظروفنا الحديثة ضرورة لا يمكن تجنبها ، ، وهو شكل الدولة الذى يمكن فى ظله وحده

حسم الصراع الحاسم الأخير بين الطبقة العـــاملة والبورجوازية ولا تعرف الجمهورية الديموقراطية من الناحية الرسمـية أى تمييز بين النـاس بسبب الثروة ، إذ تمارس الثروة قوتها فى ظلهـا بطريق غير مباشر ولـكنه مؤكد فمن ناحيـــة تمارس الثروة هذه السلطة فى شكل الإفساد الكامل للحاكمين وتعتبر أمريكا المثل الـكلاسيكى لذلك . ومن ناحيـة أخرى تمارس الثروة سلطتهـا فى شـكل حلف بين الحكومة والبورصة ، وهو الشكل الذى يصبح أسهل تحقيقا كلما ازداد دين الدولة وكلما ركزت شركات المضاربين فى يديها الإنتاج نفسه مستعملة البورصة كمركز لها . وتعتبر الجمهورية الفرنسية الأخيرة ، مثلها فى ذلك مثل الولايات المتحدة ، مثلا دقيقا لذلك ، وقد قامت سويسرا القديمة الطيبة بنصيبها فى هذا المجال . وليست الجمهورية الديموقراطية ضرورية لهذا الحلف الأخوى بين الحكومة والبورصة ، ويؤيد ذلك قيام هـذا الحلف فى انجلترا الملكية والإمبراطورية الألمانية الجديدة [أيام بسمارك] حيث لايستطيع المرء أن يعرف من الذى نجح فى الإنتخاب بسمارك أم بليتشرودر[1] . وأخيرا فإن الطبقة المالـكة تحكم مباشرة عن طريق الإنتخاب العام ، فطالمـا أن الطبقة الخاضعة لم تنضج بعد لتحرير نفسها فإنها ستظل فى أغلبيتها تنظر إلى النظام القائم على أنه النظام الوحيد الممكن للمجتمع وستظل من الناحية السياسية ذيلا للبورجوازية وجناحها الأكثر يسارية ، إلى أن تنضج هـــذه الطبقة لتحرير نفسها وتـكون حزبها الخاص بها وتنتخب ممثليها بدلا من ممثلى البورجوازية .

---

(١) أحد كبار رجال المـال أيام بسمارك . (المترجم)

وعلى ذلك فالانتخاب العام هو مقياس نضج الطبقة الخاضعة : وهو لايستطيع أن يكون فى الدولة الحالية أكثر من ذلك . وفى اليوم الذى يسجل فيه ترمومتر الانتخاب نقطة الغليان سيعرف كل من الرأسماليين والعمال ما يجب عمله ،

فالدولة إذن لم توجد منذ الأزل ، فقد كانت هناك مجتمعات تسير بلا دولة وبلا سلطة . وعند مرحلة معينة من التطور الاقتصادى وهى المرحلة التى رافقت تقسيم المجتمع إلى طبقات ، أصبحت الدولة ضرورة طبقا لهذا التقسيم . ونحن نقترب الآن من مرحلة من التطور الإنتاجى سيكون وجود الطبقات فيها غير ضرورى كما سيكون عائقا إيجابيا للإنتاج وهنا ستنتهى الطبقات بنفس الحتمية التى ظهرت بها فى مرحلة سابقة ، ومع انتهاء الطبقات ستنتهى الدولة بالضرورى . وسيضع المجتمع الذى سينظم الانتاج على أسس من الاتحاد الحر والتساوى بين المنتجين ، سيضع جهاز الدولة حيث يجب أن يكون حينئذ ، فى متحف الآثار بجانب العجلة والفأس البرونزى .

... ...

وعلى ذلك فمنذ القدم والمدنية هى تلك المرحلة من تطور المجتمع التى يصل عندها تقسيم العمل والتبادل الناتج عن ذلك بين الأفراد وانتاج البضائع الذى يربط بين الإثنين ، تصل هذه الأشياء إلى كامل نموها وتعمل على إثارة كل المجتمع الذى كان قائما من قبل ، فالإنتاج فى كل المراحل السابقة للمجتمع كان جماعيا وكان الاستهلاك يتم بالتوزيع المباشر للمنتجات خلال مجتمعات مشاعية صغيرة أو كبيرة ، وكان هذا الانتاج الجماعى يجرى فى أضيق حدود ، ولكن بجانب ذلك كان المنتجون سادة

إنتاجهم وسادة عملهم وكانوا يعلمون مصيره فقد كانوا يستهلكونه. وطالما كان الانتاج يجرى على هذه الأسس فلم يستطع أن يخرج عن رقابة المنتجين ولم يكن يستطيع إيجاد أى قوة غريبة ضد المنتجين كما فى الحالة العادية المحتومة فى ظل المدنية .

وبالتدريج زحف تقسيم العمل فى عملية الانتاج هذه ونقصت الطبيعة الجماعية للإنتاج والملكية ، وقامت الملكية الفردية وصارت هى القاعدة السارية على نطاق واسع وكان ذلك سببا فى قيام المبادلة بين الأفراد كما رأينا فيما سبق . وأصبح إنتاج السلع بالتدريج هو الشكل السائد .

وبإنتاج السلع لم يعد الانتاج لإشباع حاجات المرء الاستهلاكية ولكن للمبادلة ، ولذلك تمر المنتجات بالضرورة من يد إلى يد . ويشترك المنتج بإنتاجه فى عملية المبادلة وهو لم يعد يعرف مصير منتجاته . وبمجرد أن تدخل النقود ومعها التاجر كوسيط بين المنتجين فإن عملية المبادلة تصبح أكثر تعقيدا ويصبح مصير المنتجات النهائى غير مؤكد . فالتجار متعددون ولا يعرف أحدهم مايفعل الآخر ، فتمر البضائع من يد إلى يد ومن سوق إلى سوق . وقد فقد المنتجون السيطرة على المجموع الكلى للإنتاج وعلى ظروف حياتهم نفسها ولم يحصل عليها التجار . وهكذا تصبح المنتجات والانتاج ألعوبة فى يد المصادفة.

ولكن المصادفة هى جانب واحد من علاقة يسمى جانبها الثانى الضرورة . فى الطبيعة حيث يبدو أن المصادفة هى التى تتحكم ، طالما رأينا فى كل ميدان الضرورة الملحة والإلزام الذى يفرض نفسه على هذه المصادفة . وماينطبق على الطبيعة ينطبق بدوره على المجتمع . فبقدر مايصبح النشاط الاجتماعى (وهو مجموعة من العمليات الاجتماعية) بقدر

مايصبح هـذا النشاط قويا بالنسبة للرقابة الإنسانية الواعية ويصل إلى مابعد حدود الطاقة الإنسانية ، بقدر مايبدو أن هـذا النشاط تتحكم فيه المصادفة المحضة ، وبقـــدر ماتؤكد القوانين العشوائية نفسها فى هذه المصادفة كما لو كان ذلك ضرورة طبيعية . ومثل هذه القوانين تتحكم أيضا فى ظروف الانتاج وتبادل السلع ، وهـذه القوانين توجه المنتج بالمستهلك كما لو كانت قوى غريبة ومجهولة فى بدايتها . وهذه القـوانين الاقتصادية الخاصة بإنتاج السلع تتعدل فى مختلف مراحل تطور هذا النوع من الانتاج ،وقد تحكمت هذه القوانين فى فترة المدنية كلها . ومازال الانتاج هو سيد المنتج إلى يومنا هذا ، ومازال الانتاج الكلى للمجتمع ينظم لا عن طريق خطة مدروسة ولكن عن طريق قوانين عمياء تعمل بقوة حتمية تنتهى بأزمات اقتصادية دورية .

وقد رأينا فيما سبق كيف استطاعت قوة العمل الانسانى فى مرحلة مبكرة نوعا من التطور أن تنتج أكثر من حاجة المنتجين ، وكيف أن هذه المرحلة سارت جنبا إلى جنب مع مرحلة ظهور أول تقسيم للعمل والتبادل بين الأفراد . ولم يمض وقت طويل حتى اتضح أن الرجل نفسه يمكن أن يكون سلعة وأن القوة الانسانية يمكن أن تكون موضوع تبادل وتستخدم عن طريق تحويل الرجل إلى عبد . وقد بدأ الرجال المبادلة فى الوقت الذى كانوا فيه هم أنفسهم موضـوع مبادلة وأصبح الإيجابى سلبيا أراد الانسان أم لم يرد .

ومع الرق الذى بلغ قمة نموه فى المدنية جاء التقسيم الكبير الأول للمجتمع إلى طبقة مستغِلة وطبقة مستغَلة ، واستمر هذا التقسيم طوال فترة المدنية ، وكان الرق هو أول أشكال الاستغلال خصوصا فى العالم القديم . وأعقب العبيد رقيق الأرض فى العصور الوسطى والعمال الأجراء فى العصر الحديث ، وكانت هذه هى الأشكال الثلاثة الكبرى للعبودية وهى

تميز العصور الثلاثة الكبرى للمدنية ، فقد تنكرت العبودية فى أشباهها رقيق الأرض والعمال الأجراء .

وتتميز مرحلة إنتاج السلع التى بدأت بها المدنية بما يأتى : —

١ — النقود المعدنية وبالتالى رأس المال المالى والفائدة الربوية .

٢ — قيام التجار بدور الوسيط بين المنتجين .

٣ — الملكية الخاصة فى الأرض ، والرهن .

٤ — عمل العبيد باعتباره الشكل الممتاز للإنتاج .

وكان الشكل العائلى الذى ظهر فى المدنية وأصبح الشكل السائد هو الزواج الحديث وسيادة الرجل على المرأة ، والعائلة باعتبارها وحدة المجتمع الاقتصادية . أما القوة التنفيذية للمجتمع فهى الدولة ، التى تظهر فى كل العصور باعتبارها دولة الطبقة الحاكمة وتبقى فى كل الحالات أداة للسيطرة على الطبقة الخاضعة . أما علامات المدنية الأخرى فهى :

تثبيت التعارض بين المدن والريف كأساس للتقسيم الكلى للعمل فى المجتمع ، ومن ناحية أخرى ظهور نظام الوصايا الذى يمكن لمالك الثروة بمقتضاه التحكم فى ثروته حتى بعد موته ، وقد كان هذا النظام الذى يعتبر ضربة قوية للنظام القبلى ، كان مجهولا تماما فى أثينا حتى عهد سولون ولكنه ظهر فى روما فى وقت مبكر جدا ولكننا لا نعلم متى[1] . وعند

(١) جاء فى الجزء الثانى من كتاب لاسال « نظام الحقوق المكتسبة » فى مجال القول بأن الوصايا فى روما قديمة بقدمها ، جاء أنه فى التاريخ الرمانى لم يكن هناك وقت لم توجد فيه الوصايا ، وأن الوصايا ظهرت حتى قبل تأسيس روما من نظم الموتى الدينية . وكأى =

الألمان ظهرت الوصية عن طريق القسس حتى يستطيع الألمانى المخلص أن يورث أملاكه للكنيسة دون عقبات .

وقد حصلت المدنية على الأشياء التى لم يستطع النظام القبلى الحصول عليها عن طريق نظامها الذى تعتبر الوصية أساساً له . ولكن المدنية وصلت إلى هذه الأشياء عن طريق التلاعب بأحط غرائز أو عواطف الإنسان وبتنميتها على حساب كل ميزاته الأخرى . فقد كان الجشع الصريح هو الروح المحركة المدنية منذ اليوم الأول لوجودها إلى يومنا هذا تحت شعار واحد «الثروة ومزيد من الثروة»، الثروة لا المجتمع ولكن لهذا الفرد التافه كانت أمل المدنية الوحيد الثابت .

وبتتبع هذا الهدف سقط التقدم المتزايد للعلم وفترات إزدهار الفن فى فم الجشع، وكان هذا لأن ماحققته المدنية فى سبيل الحصول على الثروة كان مستحيل التحقيق بدون العلم والفن .

وحيث أن استغلال طبقة لأخرى هو أساس المدنية فإن كل تطورها يسير فى تعارض مستمر . وكل تقدم فى الإنتاج هو فى الوقت نفسه تأخر فى الطبقة الخاضعة أى الأغلبية ، وما هو نعمة لطبقة هو نقمة للأخرى . وكل تحرير جديد لطبقة هو يعنى دائما استعباد جديد لطبقة أخرى ، وأكبر دليل على ذلك يقدمه ظهور الآلات الصناعية التى نعرف اليوم جيدا آثارها . وبينما كان المتبربرون لا يكادون يعرفون التمييز بين الحقوق

= هيجلى (نسبة إلى هيجل) من المدرسة القديمة يستمد لاسال معلوماته عن القانون الرومانى من تأملاته الخاصة فى الوصية وليس من الظروف الاجتماعية للرومان ، ولذلك نجده يقول أن انتقال الملكية كان أمرا ثانويا فى الميراث الرومانى ، ولا يكتفى لاسال بتصديق مغالطات الفقهاء الرومان وخاصة فقهاء الفترة الأولى ولكنه يتخطاهم أيضا . (المؤلف)

والواجبات ، تخلق المدنية الفرق والتعارض الظاهر بينهما حتى لأغبى العقول ، معطية لطبقة كل الحقوق تقريبا وملقيه على عاتق طبقة كل الواجبات تقريبا .

وليس ذلك هو مايجب أن يكون . فما هو حسن بالنسبة للطبقة الحاكمة يجب أن يكون كذلك بالنسبة للمجتمع كله الذى تجد الطبقة الحاكمة شخصيتها فيه ، ولذلك فبقدر ماتتقدم المدنية بقدر ماتضطر لتغطية الأضرار التى تخلقها بغطاء من الحب لإخفاء هذه الأخطاء أو إنكار وجودها ، أى لكى تقدم نفاقا مقنعا لم يكن معروفا فى المجتمع القديم أو حتى فى المرحلة الأولى للمدنية ، وهو النفاق الذى يكمن فى إعلانها : أن الطبقة المسيطرة تستغل الطبقة الخاضعة من أجل مصلحة الطبقة الخاضعة وحدها ، وإذا أخفقت الطبقة الخاضعة فى تقدير ذلك أو تمردت ، فهذا يظهر نكران الجميل المتأصل فى أحط صورة نحو خدامها من المصلحين[1] .

وفى الختام يقول مورجان عن المدنية : « منذ قدوم المدنيه تضخم نمو الثروة وتعددت أشكالها واستعمالاتها وتحسنت إدارتها لمصلحة مالكيها لدرجة أنها أصبحت قوة لا قبل للشعب بمقاومتها . ولذلك يقف العقل البشرى حائرا أمام ماخلقته يداه » ورغم ذلك سيأتى الوقت الذى يرتفع فيه الذكاء الإنسانى ليسود الملكية ويحدد علاقات الدولة بالملكية التى

---

(١) لقد أردت فى البداية وضع نقد فورييرللمدنية بجانب نقد مورجان ونقدى لها، ولكن لسوء الحظ لا أستطيع إضاعة الوقت . وأود فقط أن أشير إلى أن فورييه قد اعتبر الزواج الحديث والملكية العقارية الشكل الرئيسى المميز للمدنية واعتبرها حربا من الأغنياء ضد الفقراء . وقد ذكر فورييه غير مرة أنه فى كل المجتمعات غير السليمة نجد أن هؤلاء اللذين تمزقهم المصالح المتعارضة [أى العائلات] هم الوحدات الاقتصادية للمجتمع . (المؤلف)

تحميها ، وستوضع الإلتزامات والحدود على حقوق مالكيها . إن مصالح المجتمع فوق مصلحة الفرد ويجب أن تنظم العلاقات بينهما على أساس عادل متجانس . إن مجرد كسب الثروة ليس المصير النهائى للبشرية إذا كان التقدم هو قانون المستقبل كما كان فى الماضى . فالوقت الذى مضى منذظهور المدنية بدأ كمجرد قطعة من الاستمرار الماضى لحياة الإنسان وكمجرد قطعة من العصور التى سوف تأتى . إن الحلول التى يقدمها المجتمع تتطلب العدالة لتحدد الاتجاه الذى تكون الملكية نهايته وغايته لأن مثل هذا الإتجاه يحتوى على عناصر تحطيم الذات، إن الديموقراطية فى الحكومة والأخاء فى المجتمع والمساواة فى الحقوق والمزايا والتعليم العام ليظللون الخطة العليا التالية للمجتمع الذى تتجه إليه الخبرة والذكاء والمعرفة فى ثبات . وسيكون ذلك عودة للحياة فى شكل أعلا من الحرية والمساواة والأخاء لدى الأقدمين [1] » .

---

(١) كتاب المجتمع القديم لمورجان ص ٥٥٢ . (المؤلف) .

مع البلاغة

رسالة الى جامعية

بقلم

احمد رشيد

١٠ مـ

الثمن ٢٠ مـ

دار الطباعة الحديثة
٥ شارع فرج النرق - ت ٤٩٣١٨